مئوية معركة ميسلون

في ذكرى الشهيد البطل يوسف العظمة

مئوية معركة ميسلون

في ذكرى الشهيد البطل يوسف العظمة

إعداد مؤسسة وثيقة وطن

مؤسسة وثيقة وطن
2020

سورية – دمشق – أبو رمانة
شارع أحمد شوقي – خلف السفارة السعودية
هاتف: 00963-11-3311272
فاكس: 00963-11-3311262
info@wathiqat-wattan.org
www.wathiqat-wattan.org

جميع الحقوق محفوظة

لا يمكن إعادة طباعة أو تخزين أو نقل أو إنتاج أي جزء من هذه الوثائق أو كامل الوثائق، بكافة الوسائل المتاحة إلكترونياً أو تصويراً أو تسجيلاً أو على شكل سيناريو أو بأي وسيلة أخرى

دون الحصول على إذن من مؤسسة وثيقة وطن

الطبعة الأولى 2020

الفهرس

الشرف الرفيع	7
كلمة مؤسسة وثيقة وطن	11
الأحداث التي سبقت معركة ميسلون	13
سورية والعهد الفيصلي مذكرات يوسف الحكيم بيروت 1966	15
الانتداب الفرنسي الغاشم على سورية مذكّرات حسن تحسين باشا الفقير دمشق 2004	27
ميسلون: نهاية عهد مذكرات صبحي العمري لندن 1991	61
معركة ميسلون للمؤرخ إحسان هندي دمشق 1967	105
يوم ميسلون مذكرات ساطع الحصري دمشق 1948	199
ميسلون في الأرشيف الوطني الفرنسي وثائق ميسلون: مقدمة تاريخية	215
المراسلات	220

الشرف الرفيع

خلال عملية السلام التي تمّت على مراحل في العقد الأخير من القرن المُنصرم، كان الرئيس الخالد حافظ الأسد يستشهد دوماً ببطل ميسلون، الشهيد يوسف العظمة. كان يوسف العظمة أحد القادة التاريخيين المُلهمين بالنسبة للرئيس الأسد، تجمعهم عدة نقاط تلاقي، أبرزها حب الوطن والتفاني في خدمته. كلاهما تولّى حقيبة الدفاع (التي كان اسمها وزارة الحربية في زمن ميسلون) بفارق ستة وأربعين سنة. وكلاهما كان في السادسة والثلاثين من عمره يوم وقعت النكسة، في ميسلون أولاً سنة ١٩٢٠ ومن ثمّ في الجولان عام ١٩٦٧. وكلاهما رفض أن يُسجّل التاريخ أن العدوّ دخل بلاده دون معركة مُشرّفة، تكون نبراساً للأجيال المقبلة.

أحببت يوسف العظمة عندما سمعت باسمه لأول مرة وأنا طفلة صغيرة على مقاعد الدراسة، فوجدت فيه مثالاً للتضحية والبسالة والرجولة. كبرت وكبر إعجابي بهذا البطل المقدام، عندما عدت إلى منزلنا الصغير في قرية المسعودية بريف حمص الشرقي وسألت أبي عنه، فقال لي: «اجلسي يا بثينة لأكلمك عن زينة الرجال وسيّد الأبطال». دارت الأيام، وأطلقت اسمه على أحد أحفادي كما أسميت ابنتي على اسم رفيقة درب يوسف العظمة في ميسلون، الرائدة السورية نازك العابد، التي حاولت تضميد جراح الشهيد في معركة ميسلون، بصفتها رئيسة لجمعية النجمة الحمراء المعنية بجرحى الحرب والمرتبطة بمنظمة الصليب الأحمر الدولي. وصرت أحدّث «يوسف الصغير» والدكتورة ناهد «أم يوسف» عن يوسف العظمة، مستدركة كل تفصيل سمعته من أبي ومن الرئيس الأسد خلال

عملي المباشر معه في القصر الجمهوري من سنة ١٩٩٠ وحتى وفاته عام ٢٠٠٠. كلما نطق الأميركيون بكلمة واحدة عن البطولة والشجاعة، كان حافظ الأسد يرد بمعلومات مسهبة عن يوسف العظمة، أمام جيمس بيكر أولاً ومن ثمّ وارن كريستوفر وأخيراً بحضور الرئيس بيل كلينتون عند زيارته دمشق عام ١٩٩٤. كان الرئيس حافظ الأسد رحمه الله عاشقاً لقصص المجد ولكل من سطّر بدمه انتصاراً على الغزاة، وهذا يُفسّر تقديره الكبير لسلطان باشا الأطرش وابراهيم هنانو والشيخ صالح العلي. في عهده، تم تحويل منزل يوسف العظمة في حيّ المهاجرين الدمشقي إلى متحف، وكان الرئيس الأسد شديد الحرص على الإحتفال بالذكرى السنوية لمعركة ميسلون، في الرابع والعشرين من شهر تموز، حيث يتحوّل ضريح البطل في ميسلون إلى محجّ لطلاب المدارس والجامعات، يأتونه أفواجاً مع ممثلين عن النقابات والجمعيات الأهلية والقوات المسلحة. وكان دائم القول لضباطه: «تعلّموا الشجاعة والرجولة من يوسف العظمة.» وأهمّ هؤلاء الضباط كان سيادة الرئيس الدكتور بشار الأسد، الذي أثبت للتاريخ أنه خير خلف لخير سلف، عندما سار على خطى يوسف العظمة في مواجهة المستعمر الحديث، قائداً وجندياً ومواطناً، محارباً في الصفوف الأمامية في وجه فرنسا والولايات المتحدة وإسرائيل وتركيا. المستعمر الحديث لا يختلف كثيراً عن المستعمر الذي أطلق النار على يوسف العظمة، فكلاهما أراد النيل من عزيمة الشعب السوري وحاول تمزيق هذا البلد الطيّب وتفتيته على أسس طائفية وعرقية. وكما رحل المستعمر القديم سنة ١٩٤٦ سيرحل المستعمر الجديد في يوم لم يعد بعيداً على الاطلاق، لأننا... ورثة بطولات يوسف العظمة ونحن أحفاده... نأبى الذل ولا نقبل بالاستعمار، تحت أي مسمى كان.

يأتي هذا الكتاب في ظلّ عدة مناسبات قومية هامة. أولها الذكرى العشرون لرحيل الرئيس حافظ الأسد وتولي الرئيس بشار الأسد مقاليد الحكم يوم ١٧ تموز ٢٠٠٠. وثانياً، احتفالاً بالذكرى المئوية الأولى لمعركة ميسلون يوم ٢٤ تموز ٢٠٢٠. إكراماً لهذا البطل، قمنا في «مؤسسة وثيقة وطن» بجمع صفوة ما قيل عنه بقلم معاصريه، مع إضافة ترجمة للوثائق التاريخية الهامة المتعلّقة بمعركة ميسلون، المأخوذة من أرشيف الخارجية الفرنسية. ونحن نقف اليوم بإجلال

وإكبار لروح هذا البطل العظيم، الذي ردّد أبياتاً من شعر للمتنبي قبل ذهابه إلى ميسلون، قائلاً: «*لا يَسلَمُ الشّرَفُ الرّفيعُ منَ الأذى*، حتى يُرَاقَ عَلى جَوَانِبِهِ الدّمُ.»

وها قد أريق الدمُ مجداً يا يوسف العظمة، ونحن ماضون على خطاك في دفاعنا عن الأرض والعرض والكرامة، كما فعلت أنت. لروحك السلام والمجد الدائم.

الدكتورة بثينة شعبان

دمشق في ٢٤ تموز ٢٠٢٠

كلمة مؤسسة وثيقة وطن

يأتي هذا الكتاب في الذكرى المئوية الأولى لمعركة ميسلون الخالدة التي سطّرها آباؤنا وأجدادنا بدمائهم، دفاعاً عن الأرض والعرض، في ذلك اليوم التاريخي من شهر تموز عام 1920. تفاصيل المعركة حُفرت في ذاكرتنا الجماعية وكانت مصدر إلهام لجيل بعد جيل من المناضلين السوريين، الذين عشقوا الشهيد يوسف العظمة وأطلقوا اسمه على شوارع سورية ومدارسها وميادينها، وشيدوا له عدّة تماثيل، لعلّ أشهرها ذلك الموجود في ساحة يوسف العظمة بدمشق، والآخر عند ضريحه في موقعة ميسلون. احتفالاً بهذا البطل، وبملحمة ميسلون التاريخية، قامت مؤسسة وثيقة وطن بجمع شهادات بعض معاصريه، من ضباط ووزراء، لوضعها بين يديّ القارئ الكريم، تحديداً من أبناء جيل الشباب الذين عاشوا الحرب الأخيرة على سورية، وكانوا قلعة متينة في وجه المستعمر الجديد، تماماً كما كان يوسف العظمة من قبلهم وهو يحارب المستعمر القديم.

أولى تلك الشهادات جاءت على لسان وزير الزراعة والتجارة في حكومة الملك فيصل، المرحوم يوسف الحكيم صديق يوسف العظمة، الذي وضع مذكراته في أربعة أجزاء صدرت في بيروت عام 1966. والشهادة الثانية لقائد معركة ميسلون، المرحوم تحسين باشا الفقير، الذي نجا من الموت يومها حاملاً راية الجيش السوري وتوجّه إلى منفى قسري دام حتى جلاء الفرنسيين عن سورية سنة 1946. ويوم عودته، أعاد معه راية الجيش الوطني، بعد أن حافظ عليها طوال ست وعشرين سنة، ليقدمها إلى الحكومة السورية في احتفال رسمي أقيم في متحف دمشق الوطني. وقد جُمعت مذكرات الفقير وصدرت سنة 2004، وهي من الكتب النادرة

جداً وغير المتوفرة في الأسواق. أما الشهادة الثالثة، فهي للمرحوم صبحي العُمري، أحد ضباط معركة ميسلون، الذي وضع كتاباً قيّماً عن تجربته يومها، سُمّي «ميسلون: نهاية عهد»، صدر في لندن عام 1990. ثم تأتي دراسة المؤرخ إحسان هندي، المنشورة في كتاب فريد عن المعركة، صادر عن وزارة الثقافة سنة 1967. وتليهما الشهادة الأشهر لساطع الحصري، وزير المعارف حينذاك، وهو الذي قاد المفاوضات السياسية مع الفرنسيين قبيل المعركة، وقد صدرت شهادته في دمشق عام 1948 في كتاب حمل عنوان «يوم ميسلون». وأخيراً، قامت مؤسسة وثيقة وطن بترجمة بعض الوثائق المتعلقة بمعركة ميسلون، الموجودة في أرشيف الحكومة الفرنسية.

الأحداث التي سبقت معركة ميسلون

1914 بدء الحرب العالمية الأولى.

16 **أيار** 1916 توقيع اتفاقية سايكس بيكو بين فرنسا وبريطانيا.

10 **حزيران** 1916 بدء الثورة العربية الكبرى ضدّ الحكم العثماني، بقيادة الشريف حسين بن علي، أمير مكة المكرمة.

2 **تشرين الثاني** 1917 صدور وعد بلفور.

26 **أيلول** 1918 جلاء أخر جندي عثماني عن مدينة دمشق، وتشكيل حكومة انتقالية برئاسة الأمير سعيد الجزائري.

3 **تشرين الأول** 1918 دخول الأمير فيصل بن الحسين دمشق، وتشكيل الحكومة العربية الأولى.

تشرين الثاني 1918 وصول أول دفعة من الجيش الفرنسي إلى الشواطئ السورية.

19 **كانون الثاني** 1919 بدء أعمال مؤتمر السلام في باريس، بحضور الأمير فيصل ممثلاً عن سورية.

حزيران 1919 انتخاب أول مجلس نيابي في سورية.

8 **أذار** 1920 تتويج الأمير فيصل ملكاً على سورية من قبل المؤتمر السوري الأول، والإعلان عن رفض وعد بلفور في فلسطين واتفاقية سايكس بيكو في سورية ولبنان.

9 **أذار** 1920 تعيين يوسف العظمة وزيراً للحربية في حكومة الفريق علي رضا باشا الركابي.

14 **تموز** 1920 وصول إنذار الجنرال غورو إلى دمشق.

24 **تموز** 1920 وقوع معركة ميسلون، خلع الملك فيصل عن العرش، واستشهاد الوزير يوسف العظمة.

سورية والعهد الفيصلي
مذكرات يوسف الحكيم

بيروت 1966

بعد أن عاد مندوبو اللجنة الوطنية الستة، ناقلين ما شاهدوا من غضب الملك فيصل، وما سمعوا من كلامه، ولمّا شاهدت اللجنة بدورها حرس جلالته يطوفون الشارع الكبير مهدّدين، استنتجتْ أنّ الجيوش الفرنسية ستدخل العاصمة[1]. حضّت الشعب على الثورة، وقامت المظاهرات الصّاخبة حتى الليل، واشتدّ الغليان والهياج في نفوس الشعب وارتفعت الأصوات منادية: «إلى الحرب! إلى الحرب!» لإنقاذ الوطن من الأعداء اللئام. حينئذ لم يرَ الملك مناصاً غيرَ النزول عند إرادة شعبه، فأعلن الجهاد المقدس على الفرنسيين لردّهم عن العاصمة والأراضي السورية.

وعلى الأثر انقلب الغليان إلى الدعاء بحياة الملك، وإلى حماس وطنيّ جامع دفع المتطوّعين زرافات ووحداناً إلى دُمّر، للالتحاق بالجيش السوري ومقابلة القوات الفرنسية، وردها عن ميسلون والأراضي السورية. وكان وزير الحربية نائب القائد العام على رأس جيشه، بل في طليعته، يعطي إخوانه المثل الأعلى في التضحية. وفي صباح 24 تموز، التحم الجيشان، السوري المدافع عن وطنه والفرنسي المعتدي، في وسط ميسلون والجبال المحيطة بها.

1- الملك فيصل بن الحسين (1883-1933)، نجل الشريف حسين بن علي، قائد الثورة العربية الكبرى. وُلّي حاكماً عربياً على سورية بعد انتهاء الحكم العثماني، وتُوّج ملكاً في 8 أذار 1920، ثمّ خُلع عن العرش إثر معركة ميسلون، ليصبح ملكاً على العراق حتى وفاته سنة 1933.

ولمّا كانت قوى الفريقين غير متكافئة في العَدد والعُدد، بل غير متقاربة، انتهت المعركة، مع عظيم الأسف، بأقل من ساعة من الوقت، اخترق فيها العدوّ الظالم جبهة الجيش السوري، وأصيب البطل الزعيم يوسف العظمة، وزير الحربية، برصاصة قضت على حياته الغالية، بعد ما أظهر من البسالة والإقدام، ممّا استدعى دهشة الأعداء وإعجاب الأصدقاء، فكان شهيد الوطن الذائد عن استقلاله، أسكنه الربّ المتعال فسيح جناته.

يقتضي الواجب أن أشير إلى ما قاله الخبراء المنصفون في صدد هذه المعركة، وهو أن التدابير والترتيبات التي اتخذها وزير الحربية في طريق زحف الجوش الفرنسية هي أكبر دليل على مهارته في الفنون الحربية، كما أن إخوانه المدافعين في نقاط متعدّدة قد أظهروا منتهى النشاط والبسالة فاستحقّوا عليها فائق الشكر والثناء. وأضاف الخبراء أنه لولا سبق تراجع الجيش السوري عن استحكاماته في مجدل عنجر وغيرها، لما حلّت به الكارثة في ميسلون بمثل هذه السرعة.

لقد سمعتُ فيما بعد من فم الدكتور أحمد قدري، طبيب الملك الخاص وملازمه في معظم أوقات فراغه، أنه حضر آخر اجتماع بين الملك والمرحوم وزير الحربية في القصر؛ حيث صرّح الوزير للملك أن الذخيرة الحربية الموجودة لدى الجيش لا تساعده على إحراز النصر على العدوّ، ولا حتى على الثبات في وجهه، وأنّ تظاهره بالقوة إنما هو لمجرّد الإيهام والخداع، لجعل الفرنسيين يحجمون عن حرب قد تكلفهم تضحيات كبيرة. فأجابه الملك حينئذ: «ولكن هل من سبيل للتراجع بعد الحالة التي وصلنا إليها؟» فلم يكن من الوزير يوسف العظمة إلا أن حيّا الملك التحية العسكرية قائلاً: «إذاً ألتحقُ بجيشي في الجبهة ولن أعود، وأطلبُ رضاك تاركاً ابنتي الوحيدة في ذمتك». وقبل التحاقه بالجيش، كرّر مثل هذا الكلام أمام صديقه ساطع الحصري، وزير المعارف.

إنَ كلام أحمد قدري والوزير ساطع الحصري، يتفق كل الاتفاق مع ما هو معروف عن المرحوم يوسف العظمة من مزايا الإخلاص لوطنه وشغفه باستقلاله، وثقته بنفسه وكفاءته لإدارة الأمور، والالتجاء إلى الأعمال الحربية عند الاقتضاء

ثقةً عمياء جعلته يكتم خطّته عن باقي إخوانه، حتى أنه لم يبحْ بها إلى مليكه وصديقه إلا في اللحظة الأخيرة.

الانتقال إلى الكسوة

دخلتُ الساعة العاشرة من ضحى 24 تموز بهو مجلس الوزراء، وقلتُ للرئيس الجليل السيد هاشم الأتاسي: «لا شكّ بأن الملحمة الحربية في شدّتها، والله يعطي النصر من يشاء، ولكنّ اتكالنا عليه سبحانه وتعالى لا يحول دون استعدادنا لكلّ طارئ. فيجدر أن تأمروا بانعقاد مجلس الوزراء حالاً للمداولة فيما يجب علينا القيام به[2]»!»، فقبل اقتراحي وما كاد اجتماع الوزراء يتمّ، إذ بالدكتور أحمد قدري، الطبيب الخاص لجلالة الملك، يدخل والأسفُ بادٍ على وجهه، وقال وهو يرتجف حسرة: «انكسرت الجبهة، وسقط الأسد العظمة شهيداً، والآن يأمر صاحب الجلالة أن تنسحب الوزارة إلى محطة الكسوة، وهي المحطة الأولى لخطّ الحديد الموصل إلى درعا، بعد أن تعيّن نوري باشا السعيد أميناً للعاصمة[3].» وعلى الفور صدر القرار بهذا التعيين وأُبلغ إلى نوري باشا كما أُبلغ مدير محطة الحجاز بدمشق أن يُهيّئ قطاراً خاصاً للسفر على خطّ درعا خلال ساعة من الوقت على أبعد تقدير واتفقنا أن نلتقي في محطة الحجاز قبل انقضاء الساعة.

لمّا ركبتُ العربة، قاصداً منزلي في شارع السلطاني، طلب مني زميلي فارس الخوري، وزير المالية، أن يرافقني آذن وزارته ليأتيه بمحفظة ثيابه من بيته في حيّ

2- هاشم الأتاسي (1875-1960)، زعيم سوري من حمص، قاد الحركة الوطنية ضد الفرنسيين وانتُخب رئيساً للجمهورية مرتين؛ الأولى سنة ١٩٣٦ والثانية سنة ١٩٤٩ . في عهد الملك فيصل، أصبح رئيساً للمؤتمر السوري الأول، ثم رئيساً للوزراء خلال معركة ميسلون. وفي حكومته، عُيّن يوسف العظمة وزيراً للحربية.

3- نوري باشا السعيد (1888-1958) سياسي عراقي تولى رئاسة الحكومة في بلاده مرات عدة، وكان مستشاراً سياسياً للملك فيصل خلال مدّة حكمه في سورية. وقُتل خلال الثورة العراقية سنة ١٩٥٨ .

باب توما[4]. وبوصولي إلى بيتي، استغربتْ والدتي وشقيقتي قدومي في هذا الوقت خلافاً للمعتاد، وتسرّعي في تزويدي ببعض الألبسة، فأخبرتهما أنّي متوجه مع زملائي إلى الكسوة، وربما تابعتُ السفر مع جلالة الملك إلى أوروبا ومصر، حسبما تقتضيه الظروف. ثم أسرعتُ إلى المحطة، فوجدتُ من الزملاء الرئيس هاشم الأتاسي، والدكتور عبد الرحمن الشهبندر، وجلال زهدي، وساطع الحصري. أما السيدان علاء الدين الدروبي، رئيس الوزراء الجديد، ووزير المالية فارس الخوري، فقد بقيا في دمشق[5]. ولما ركبنا القطار، وجدنا فيه نحو خميسين شخصاً من أركان الجمعيات الوطنية، وكبار الموظفين وأعضاء المؤتمر السوري، وجميعهم من غلاة الوطنيين الذين كانوا ينادون بمقاومة الفرنسيين بالنفس والنفيس.

ولمّا وصل بنا القطار إلى محطة الكسوة، افترق عنا الزميل الشهبندر، وبعض الاخوان الوطنيين وركبوا قطاراً آخر كان على أهبة السفر إلى درعا فحيفا، وفي مقدمتهم الشيخ كامل القصاب وسعيد حيدر وخالد الحكيم، وتوفيق مفرّج وخير الدين الزركلي وتوفيق يازجي وسامي السراج. نزلنا في محطة الكسوة، والقطار الخاص موقوف لأمرنا وبدأ بعض الاخوان ينادون بتخلّف الدروبي والخوري وبقائهما في دمشق، ويشيدون بخطّة وزير الشؤون النافعة (الزراعة والتجارة والأشغال العامة) باعتباره «المسيحي الذي حمل صليبه، وتبع مليكه»، كما أشارت إلى ذلك في اليوم نفسه جريدة «ألف باء» الغراء لصاحبها الكاتب الأديب يوسف العيسى. ولما تطرّقوا إلى ما يُحتمل أن يلاقيه المتخلّفون عن ركب المليك والإخوان من سوء معاملة الفرنسيين لهم، أجبتهم أني لا أخشى نقمة الفرنسيين على موقفنا الوطني، فقد سبقونا إلى النضال في سبيل حريتهم حتى أصبحوا مضرب الأمثال

4- فارس الخوري (1874-1961)، سياسي سوري تولى رئاسة الوزراء والمجلس النيابي في زمن الاحتلال ثم في عهد الاستقلال، وكان أول وزير للمالية في تاريخ سورية أيام الملك فيصل الأول. وهو رئيس الوفد السوري المؤسس إلى الأمم المتحدة سنة 1945.

5- علاء الدين دروبي (1870-1920) رئيس مجلس الشورى في عهد الملك فيصل، ثم أخر رئيس حكومة شُكلت في عهده بعد معركة ميسلون، وقد قُتل على يد ثوار حوران في 21 آب 1920.

في هذا الصّدد، ولكني شاركتكم في الرأي والعمل، وسرنا مع مليكنا خطوات في قضية وطنية هي لجميع أبناء الوطن على السواء، لا يفرق بينهم اختلاف المذاهب والمشارب ومن كُتبت عليه خطا مشاها.

وبينما كنّا نتبادل عواطف الإخاء بانتظار تفصيل أخبار الجبهة، شاهدنا سيارة مقبلة نحونا على غير طريق دمشق، وكانت خالية من كل أبهة خارجية، أما داخلها فقد حوى الرجل العظيم الملك فيصل. ولمّا وصلت به السيارة إلينا، أحاطت عيوننا وقلوبنا بجلالته، وكانت علائم الإعياء والحزن بادية عليه. ولمّا أتى على ذكر الشهيد يوسف العظمة، اغرورقت عيناه بالدمع، وأخبرنا أنه آت من الجبهة دون أن يمرّ بدمشق، ثمّ دخل إلى صالون القطار لأخذ قسط من الراحة.

أخذنا، نحن الوزراء ورفاق السفر الأوفياء، نتجاذب أطراف الحديث بالقرب من المحطة، ومعظمه يدور حول مصير سورية وإمكان عودة الملك إلى دمشق أم متابعة السفر إلى أوروبا، وكلّ هذا يتوقف على مدى إدراك السلطة الفرنسية المراحل التي مرّت بها هذه البلاد منذ دخول فيصل دمشق حتى عقده الاتفاق مع كليمنصو، وتقديرها موقف الملك أمام عواصف الاتجاهات المختلفة التي ثارت حوله، وكامل إخلاصه لوطنه، سواء كانت حليفته فرنسا أم بريطانيا العظمى، التي أُكرهت أخيراً على نفض يدها من سورية ومليكها.

طعام المسافر

لم يعدم الركب من يقوم بتهيئة ما لا بدّ منه من غذاء نسدّ به غائلة الجوع في محلّ منقطع عن العمران، فكان غذاؤنا الرئيسي الكعك اليابس (بقسماط)، ولما لحظ الأخ العزيز رياض الصلح صيامي عن هذا اللون من الطعام، غاب قليلاً ثم عاد إليّ ببيضة مسلوقة مع كأس حليب[6]. فأفطرت حالاً وشكرت للأخ

6- رياض الصلح (1894-1951)، سياسي لبناني أصبح رئيساً للوزراء في بيروت سنة 1943 وكان نائباً في المؤتمر السوري الأول سنة 1920.

اللطيف فطنته وحدة ذكائه واهتمامه بإخوان السفر. أوجد رياض بك بحديثه العذب في هذا المقام المحفوف بالقلق نفحة مرح وسرور خفّفا عنا كلّ انزعاج، بالرغم من قضائنا ليلتنا على مقاعد القطار، وتخوّف بعض الإخوان، بدون حقّ وبلا موجب، من انقضاض قد يقع علينا لا من الفرنسيين بل من جيران السوء. ولمّا خرجنا من غرف القطار صباح تلك الليلة، ظهر أمامنا أربعة رؤوس من الضأن المعلوف، تكرّم بإرسالها الوجيه الكبير عبد الرحمن اليوسف، حاتم دمشق، فأخذ القوم يتبارون في فنّ القصابة وشيّ اللحم، ضاربين صفحاً عن الكروش وما إليها.

احتلال العاصمة

بعد أن وقع البطل يوسف العظمة، وزير الحربية، شهيداً في معركة ميسلون، إثر هجومه على مصفّحات العدو هجوماً أدهش الأعداء وبرهن على استخفافه بالحياة، وأعطى المثل الرائع في التضحية دفاعاً عن المبدأ الوطني والحرية والاستقلال، لم يجد الجيش الفرنسي، المجهز بأقوى معدات الحرب، مقاومة تذكر، فأخذ يتقدم نحو دمشق وتحصّن في ضواحيها.

كانت أنباء العاصمة تردنا ونحن في محطة الكسوة، متفرقة المصادر والمآل، عن اضطراب الأهلين ونقمتهم على كلّ باغ، إلى أن تلقّى الملك مساء ذلك اليوم برقية من أمين العاصمة، نوري باشا السعيد (وكان على اتصال بالمعتمد الفرنسي الكولونيل كوس ومعاونه الكولونيل تولا)، عرفنا من مضمونها إمكان الاتفاق على أن يبقى الفرنسيون في موقع المزة مؤقتاً والجنود النظامية في القدم، والدرك والشرطة داخل المدينة التي يسودها الآن الهدوء التامّ. ويرى نوري السعيد أن يكون الملك قريباً من دمشق، وأن يرسل إليه توكيلاً خطياً للمفاوضات السياسية.

وفي 25 تموز، دخلت القوات الفرنسية دمشق، وأشغلت مفرزاتها مقاطع الطرق العامة، دون أن تباشر أيّ عمل إداري. وكان كل من أمين العاصمة، المشار إليه،

وإحسان الجابري، كبير أمناء الملك، يواصلانه بما يحصلان عليه من معلومات في نتيجة اتصالاتهما بمختلف المقامات والفرنسية منها خاصة.

نقاش المجاهدين

قبل أن نطلع على حقيقة أخبار العاصمة، اجتمع الوزراء الثلاثة ورئيسهم الأتاسي والمجاهدون الموجودون في محطة الكسوة من سوريين وعراقيين، وأخذوا يتبادلون الموقف الذي يجب أن يقفه الملك ورجاله بعد أن وصلت القضية إلى هذا الحدّ المؤلم. واشتدّ النقاش بينهم إلى أن انقسموا على أثره فريقين مختلفي الرأي: فريق يقول بوجوب عودة الملك إلى عاصمته، باعتباره من الحلفاء، وقد قبل مع حكومته إنذار الجنرال غورو[7]، وأمر بانسحاب الجيش السوري من مواقعه الدفاعية تنفيذاً للإنذار، ولما تقدمت الجيوش الفرنسية نحو ميسلون اضطر، عملاً بإرادة الشعب وتظاهراته، لدفع الاعتداء عن بلاده. فإذا ارعوى الفرنسيون وقبلوا التعاون مع جلالته، فبها ونعمت، وإلا سافر إلى أوروبا متذرّعاً بنواياه الحسنة ومساعيه السليمة، وهنالك يتسع له المجال لكسب القضية بالطرق السياسة والاستناد إلى ما كان يظهره معظم الحلفاء، ولا سيما أمريكا وإيطاليا، من الولاء لجلالته ولسورية معاً، وجلّ هذا الفريق من السوريين. أما الفريق الثاني، المؤلف من الإخوان العراقيين، فكان يميل إلى عدم الثقة بالفرنسيين ويرى ضرورة الالتجاء إلى حرب العصابات في جبال حوران وغيرها.

وأخيراً، ترجّح رأي الفريق الأول السوري الذي كان خطيبه أحد الوزراء، وقد جاء هذا الرأي متفقاً مع الأخبار التي تلقاها جلالته من قناصل الحلفاء، بواسطة أميني سرّه الجابري والسعيد، اللذين ظلاّ في العاصمة لتأمين الاتصال بهؤلاء وغيرهم، وتزويد صاحب الجلالة بأصدق الأخبار.

7- هنري غورو (1867-1946) جنرال فرنسي قاد جيوش بلاده في مستعمرات أفريقيا وعُيّن مندوباً سامياً في سورية ولبنان، قبل نقله إلى فرنسا ليصبح حاكماً عسكرياً على مدينة باريس حتى سنة 1937.

خلوة مع الملك

في ضحى ذلك النهار، أراد الملك أن يتمشى منفرداً عن الركب، وأمرني أن أرافقه في هذه الرياضة. وبعد قطع مسافة مائتي متر، جلس أرضاً ثمّ مدّ رجليه واتكأ على أحد ذراعيه، وأمرني أن أتمثل به، فامتثلت الأمر بقدر ما تسمح به قواعد الاحترام والإجلال للملك. بدأ صاحب الجلالة الكلام قائلاً:

«لا أذمّ السياسة الخارجية على تلونها، لأني ما اعتقدت يوماً بثباتها على حال، ولا ألوم الصديق الأجنبي على تقلّبه حين يستلم زمام السياسة الخارجية لأن بلاده أحق بالرجحان على عاطفته ومصلحته الشخصية. ولم تكن بريطانيا العظمى عدوتنا ولا فرنسا حبيبتنا حين غادرتُ الأولى ولجأتُ إلى الثانية. فكلّ منا نحن الثلاثة عمل لمصلحة بلاده. ولا شكّ بأنّ بريطانيا تركتنا في منتصف المعركة بالرغم من إرادتها، ففضلت دوام التفاهم بينها وبين حليفتها وجارتها فرنسا على ما سبق من وعود أغدقتها علينا قبل الحرب الكبرى، وبعدها ولا سيما أثناء الاستفتاء.

ولا ألوم الدهماء من الشعب على تهورها، فمن طبيعتها أن تخضع لقادتها ما دامت متأخرة عن ركب الحضارة والثقافة والسياسة. وإنما عتبي على أولئك القادة ورؤساء الجمعيات الوطنية والأحزاب السياسية إذا تهوروا في خططهم وبعدوا عن محجة الصواب.

طلبنا أولاً مع أولئك الإخوان المجاهدين وحدة العرب واستقلالهم، مع علمنا بعدم إمكان تحقيق هذا الطلب في مرحلة الجهاد الأولى. ثم نزلته إلى وحدة سورية واستقلالها، اتباعاً لإرادة حليفتين أصبحتا أقوى دول العالم. ثم رضينا بالانتداب نزولاً عند قرار مؤتمر الصلح العالمي، ثم طلبنا انتداب أمريكا، فإن رفضته فانتداب بريطانيا العظمى، ورفضنا انتداب فرنسا معلنين عداءنا لها اندفاعاً مع الإشارة السرية الموعز بها من سلسة الحليفة بريطانيا. وفي جميع هذه المراحل، كنا على اتفاق مع إخواننا المجاهدين والشعب يتبعنا حيث شئنا.

ولما قضى القضاء والقدر بتخلي بريطانيا عنا وتركنا عرضة لانتقام فرنسا، رأيت من الحكمة والسياسة، وعملاً بنصائح الأصدقاء المنزهين عن الغرض أن نتفاهم مع فرنسا ونقتطف ما أمكن من ثمرات جهودنا وضحايانا، عملاً بقاعدة «خذ وطالب»، واتفقت مع مسيو كليمنصو على أساس اعترافه باستقلال سورية واعتبار فرنسا هي الحليفة المفضلة على غيرها من الدول، تمدنا بما نحتاج إليه من مال وخبراء.

بعد عودتي إلى سورية، أوضحتُ لإخواني المجاهدين واقع الحال، فبعضهم كان راضياً عن عملي والأكثرون قاوموه بدون حجة ولا منطق، والمؤسف كلّ الأسف هو أنهم أصرّوا على تفكيرهم الضيق حتى بعد علمهم بضعفنا جيشاً وسلاحاً وشعباً ومالاً، وعدم إمكان وقوفنا أمام عدو لا ينضب معين سلاحه وعتاده وذخائره، فجازفوا بمصير أمتهم واستقلال بلادهم. فهل يستدعي تبدل الانتداب البريطاني بمثله فرنسي، المقاومة والمجازفة بوحدة سورية واستقلالها؟

أنا لا أنكر على الشعب السوري ذكاءه وصادق وطنيته، وما شاهدته فيه، حين تعاون معي، من تعقل ورضوخ لمنطق الحوادث، ولقد لقيت من وجهاء البلاد تبصراً في الأمور وابتعاداً عن التهور، ولكن هؤلاء ظلّوا قلّة لم تجرؤ على التصريح برأيها علناً ولم يصل صوتها إلى مسامع الشعب، بينما تقوم الكثرة من الزعماء بتضليله واستثمار سلامة طويته بالخطب والتظاهرات وإثارة مشاعره على اقتحام الأخطار ولو أدت إلى الخراب والدمار.

إني غير آسف على العرش، بل على ما حلّ بسورية العزيزة من ضياع الآمال بسبب تهور قادة الشعب. أؤكد لك يا يوسف أني لن أنسَ سورية، وسأواصل جهودي لتحقيق أمانيها ما جرى في عروقي دم عربي.»

قلت: «ألا ترون يا مولاي أنه لو عمل قادة الجيش بموجب أمر جلالتك، وبمقتضى رأيك الحكيم، أسوة بأكثرية مجلس الوزراء، لما حلّت الكارثة، ولما كان

لتظاهرات المتظاهرين وحماس محرّضيهم أقلّ تأثير؟»، وقبل أن أتمّ كلامي نهض الملك على رجليه قائلاً: «رحمه الله.. رحمه الله، لم تنته القضية السورية، ولن تُحل بمجرد احتلال أجنبي». قال صاحب الجلالة هذه الكلَمة ومشى ومشيت معه حتى وصلنا إلى الرفاق فوجدناهم يُعيدون سابق النقاش في الموقف بين العودة إلى دمشق أو البقاء خارجها، حيث تتألف عصابات الجهاد ضدّ الأجنبي.

استئناف الحديث مع الرفاق بحضور الملك

كان الرفاق السوريون يردّدون فكرة العودة إلى دمشق، وترجيحها على حرب العصابات التي لم تجد فتيلاً للقضية الوطنية، فأجابهم الملك قائلاً: «أنا أفضّل الموت جندياً شريفاً على اعتلا ء العرش ذليلاً». بعد أن ساد السكوت لحظة من الزمن، قلت: «أقمتَ يا صاحب الجلالة بناءً شامخاً لم يبقَ لإكماله سوى سقفه. فإن تركته على حاله انهار بكامله، وإذا عدت إليه والأمة من ورائك واجهت أحد أمرين: إمّا أن يتعاون الفرنسيون مع جلالتك على أساس اتفاق فيصل – كليمنصو، فتسير سورية سيرها الطبيعي تحت راية الملكية، وإما أن تُسافر، إذا أبوا التعاون، إلى أوروبا حيث تطالب بحقوق سورية، بصفتك زعيمها المفوّض عنها، وحليفاً لم ينقض العهد ولم يقبل الحرب إلا مُرغماً بعد أن رفضت خوض غمارها، بينما تفقد، يا صاحب الجلالة، صفة الحليف، إذا رفضت التفاوض والتعاون، بل إذا اتبع أحد رجالك طريقة الحرب، حرب العصابات كما يقول إخواننا العرب غير السوريين».

وضع الملك حينئذ يده فوق صدغه، ونادى: «جعفر! تعال وإخوانك واسمعوا كلام يوسف!»، فحضروا وكررت أمامهم كلامي السابق، فصرّحوا بضعف ثقتهم بالفرنسيين وعقليتهم، فأجبتهم: «أيّ ضرر ينجم عن سُخف قد يظهر من المحتلين، ألا يزيد هذا السخف في قوة حجة الملك حين يذهب إلى أوروبا حليفاً يدافع عن حقوق أبنائه وموكليه؟» وساد السكوت حين وردت للوقت رسالة إلى الملك من كبير أمنائه السيد إحسان الجابري، يلحّ فيها، بناء على نصيحة القنصل الإيطالي العام الصديق الحميم للملك، بضرورة عودة جلالته إلى عاصمته بدون تأثير، تبريراً لموقفه وتقوية لمركزه في أوروبا على أقلّ تقدير.

كانت هذه الرسالة خاتمة المناقشة، فنهض الملك ونهضنا كلنا عائدين إلى القطار، وبعد أن قطع بنا مسافة يسيرة من الطريق إلى دمشق، شاهدنا سيارة خاصة تستهدف القطار. فأشار راكبها نوري السعيد بيده فتوقف القطار، فصعد إليه السعيد ناصحاً بالعودة إلى الكسوة نظراً لما تحقّقه من سوء نية الفرنسيين وانقيادهم لآراء بعض الوجهاء الدمشقيين بالاستغناء عن فيصل، عميل البريطانيين حسب تعبيرهم. فعاد بنا القطار بأمر الملك إلى حيث كنّا، وعدنا نضرب أخماساً بأسداس حتى أمسى المساء، ولم يتورّع بعض الرفاق من التحدث همساً عن خشيتهم ما قد ينالنا من انقضاض عصابات السوء، بعد أن يتصل بعلمها ما آلت إليه الحالة في سورية.

الانتداب الفرنسي الغاشم على سورية
مذكّرات حسن تحسين باشا الفقير

دمشق 2004

بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، عدتُ من تركيا برتبة عقيد (قائم مقام)، والتحقتُ بالجيش العربي الفيصلي، فعُيّنت للمرة الأولى قائداً للواء المشاة الرابع في عمّان، ومن ثمّ نُقلتُ إلى العاصمة دمشق وعُينتُ قائداً للواء المشاة الأول، فعكفتُ على تدريبه بجدّ ونشاط، فأصبح يُشار إليه بالبنان لحسن تدريبه ودقة انتظامه في التعليم والأمور الحربية. فسُرّ لذلك وزير الحربية البطل الشهيد يوسف بك العظمة، وعهد إليّ بقيادة الفرقة الأولى، وعيّن المقدم حسن بك الهندي قائداً للواء الأول، فدأبتُ، ومعي قواد الألوية وبقية الضباط، على تعليم قطع الفرقة المذكورة جميعاً وتدريبها وتربيتها التربية العسكرية الحقّة ما يقرب من شهرين بمنتهى الجدّ والنشاط.

وفي صبيحة أحد الأيام تلقيتُ أمراً من معالي وزير الحربية بأن أعدّ الجيش لعرض عسكري يشمل جميع قطع الفرقة، وضمّ إلى لواء المدفعية الذي يقوده العقيد محمد علي بك المدفعي، ولواء الخيالة الهاشمي الذي يقوده المقدم إسماعيل نامق (وهو حالياً رئيس أركان حرب الجيش العراقي)، وكان استقدمهم من الفرقة الثانية السورية ا لتي كان مركزها درعا، والتي كانت بقيادة العقيد إسماعيل بك الصفار، فواجهتُ وزير الحربية، ورجوته أن يصرف النظر عن هذا العرض الكبير لئلا يطّلع العدوّ على الكثير من أوضاع جيشنا الفتي وعَدده وعُدده، فيصبّوا لنا الأحابيل والدسائس، ويستعدّ لقتل الجيش في مهده قبل أن يستكمل نموه وتدريبه المطلوب.

وكان الشيخ كامل القصاب حاضراً، فأكّد الطلب، ولكن الوزير رجاني أن ترى الامة جيشها لتفخر به، ويزيد من حماسها، فامتثلتُ للأمر، وأعددتُ العدّة. وأجري العرض في شارع النصر، ودام ساعة ونصف ساعة كانت تمرّ خلالها الجند والأعتدة بانتظام ومهابة. وبلغ مجموع الفرقة ثلاثة آلاف وثمانمائة جندي نظامي، وثمانية وأربعين مدفعاً، وثمانين رشاشاً بين ثقيل وخفيف، وثمانين عجلة محمّلة بالعتاد للمدفعية، ومائة وثمانين عجلة للنقليات، يضاف إلى ذلك المدرسة الحربية السورية، وحرس جلالة الملك، وقوى الشرطة والدرك.

وكان جلالة الملك واقفاً أمام المشيرية، فبعد مروري أمام جلالته نزلتُ عن حصاني وحضرتُ إلى يسار جلالته، ووقفتُ بجانب وزير الحربية، معالي يوسف بك العظمة، وكان إلى يمينه الكولونيل بيكو قنصل فرنسا، فأخذ وجه هذا يتغيّر أشكالاً وألواناً. وكان ما كنت أتوقعه وأخشاه؛ إذ التفتَ إلى يوسف بك، وقال له، وإمارات الاستياء والحنق تعلو جبينه: «أتريدون محاربتنا بهذا الجيش؟» فأجابه يوسف بك، رحمه الله، فوراً: «لا بالعكس نريد معاونتكم به». فاصفرّ وجهه وامتقع وصمت ولم ينبث ببنت شفة، وعندها ذكّرت معالي يوسف بك بما كنت أتوقعه عندما رجوته تأجيل الاستعراض من محاولات لإحباط مساعينا، والسعي لإهلاك جيشنا في مهده قبل أن يستكمل نموّه وتدريبه الذي نرجو له، فتبسّم رحمه الله وقال: «لا بأس، لنا الله».

وأخذني معه بعد انتهاء العرض إلى حديقة المشيرية، وهناك، وتحت إحدى مظلات الحديقة، قال لي: «هل أنت مستعدّ للحرب يا تحسين؟» فأجبته: «نعم، إني مستعدّ للموت ولا أخشاه، ولكن يجب أن تؤمّنوا لي الوسائل اللازمة لإنشاء خط دفاعي متين في مجدل عنجر، وأن تجلبوا لنا السلاح والعتاد مع الوسائط الفنية، كما يجب دعوة القادرين على حمل السلاح من أبناء البلاد، وبضع «قرع» على الأقل لتدريبهم وتعليمهم بالسرعة الممكنة، ولنكون قادرين على ردّ العدو إذا اضطررنا للمحاربة. أما حالتنا الحاضرة، الناقصة من كثير من الوسائل الحربية الفنية وخاصة العتاد الحربي، فمن الصعب جداً، إن لم يكن من المستحيل، أن نجابه بها عدواً مستعداً قوياً، بل إنّ ذلك بمثابة الانتحار».

المفاوضات ومطالب الفرنسيين

وفي صبيحة اليوم التالي للاستعراض، أرسل جلالة الملك فيصل الأول فخامة نوري باشا السعيد والكولونيل طولا، الملحق العسكري للقنصل الفرنسي، إلى بيروت، للبحث مع الجنرال غورو في وضع خطة لرحلة جلالته إلى أوروبا، تلبيةً لنداء مؤتمر الصلح، ولإتمام المباحثات السياسية مع الحلفاء، فرفض الجنرال غورو البحث في تفاصيل الرحلة، وأعطى نوري باشا السعيد إنذاراً شفهياً مؤداه ما يلي:

1- أن تقبل الحكومة العربية الفيصلية في سورية انتداب فرنسا دون قيد أو شرط.

2- أن تُعيد الجيش إلى ما كان عليه قبل شهر شباط.

3- أن ترضى بالتعامل بالورق السوري.

4- ألّا تُمانع الفرنسيين من احتلال خط حديد رياق حلب؛ أي احتلال محطات بعلبك وحمص وحماه، وحتى احتلال نفس مدينة حلب.

وقال إنه - أي الجنرال غورو – لا يوافق على رحلة جلالة الملك إلى أوروبا قبل حلّ هذه النقاط وقبولها، وأن جلالته إذا سافر من غير طريق بيروت إلى أوروبا، فإن الحكومة الفرنسية لا تعترف عليه ولا تستقبله. فتأثر جلالة الملك كثيراً لذلك واستشاط غضباً، وكتب إلى الجنرال غورو محتجّاً لتعديه، ومفنّداً لمخالفته لقرارات عصبة الأمم.

وصول الإنذار الفرنسي

ومن ثمّ تكررت المكاتبات بين جلالة الملك وغورو على النمط المذكور حتى اليوم الرابع عشر من شهر تموز سنة 1920، حيث وصل إنذار خطّي جديد من الجنرال غورو بالمطالب الغادرة السابقة وفحواه ما يلي:

1- قبول الانتداب الفرنسي.

2- قبول التعامل بالورق السوري.

3- قبول المستشارين الفرنسيين في دوائر الحكومة.

4- تسليم الضباط الذين كانوا يعملون على رأس العصابات.

5- تسليم خط حديد رياق – حلب.

6- ترخيص الجيش السوري، وإلغاء الخدمة الإجبارية.

وقد حدّد مدة هذا الإنذار بستة أيام، وضرب موعداً لانتهائه بعد منتصف ليلة 21 تموز سنة 1920 وأنه إذا لم تقبل به الحكومة العربية الفيصلية، فإنّ الجيش الفرنسي سيزحف على دمشق.

الاستعداد للمعركة

فانزعج الجميع لذلك، وابتدأت حكومتنا تعدّ عدتها، ورسم معالي وزير الحربية الخطة الحربية، وأمر بملاحظة الحدود من حلب إلى مرج عيون، وقسّم الحدود إلى مناطق ثلاث: الأولى منطقة حلب، والثانية منطقة حمص تل كلخ، والثالثة منطقة مجدل عنجر إلى مرج عيون. وكانت مهمتها ما يلي:

أ- الدفاع عن العاصمة دمشق.

ب- الارتباط مع قيادة البقاع والقنيطرة.

ت- تشكيل احتياط قوي لأمر المنطقة.

وقبل ذلك ببضعة أيام، وبناءً على أمر وزير الحربية، أرسلتُ اللواء الثاني المشاة، الذي يقوده المقدم توفيق بك العاقل لمنطقة مجدل عنجر، واللواء الرابع لمنطقة حاصبيا وراشيا، وذهبتُ بنفسي مع اللواء الثاني لتنظيم خطّ دفاعي في مجدل عنجر، فحفرنا الخنادق وأقمنا المتاريس، ولكنا أعوزتنا الأسلاك الشائكة، فطلبتها وأكدت الطلب مراراً، ولكن طلبي وندائي ذهبا صرخة في واد، فاقتصدنا في استعمالها ما أمكن، والذي تمكنا من تدبيره منها اقتصرنا على وضعها في الأماكن الضرورية جداً من مدخل طريق بيروت – دمشق.

ثم عدتُ لمركز فرقتي في دمشق، حيث تلقيتُ من وزير الحربية بإرسال بقية قطعات الفرقة من مشاة ومدفعية إلى مجدل عنجر، ما عدا الفوج الثاني من اللواء الأول المشاة الذي كان يقوده المقدم إسماعيل زهدي، والذي كُلّف بالبقاء في دمشق تحت إمرة الحكومة المركزية احتياطاً لكلّ طارئ مع لواء المدفعية الذي جلب من درعا، وكان تحت قيادة العقيد محمد علي بك المدفعي، وقد كلفت العقيد المدفعي، المومى إليه، بوكالة الفرقة في دمشق، وذهبتُ مع قطعاتها إلى مجدل عنجر، حيث عبأتُ القوات من مشاة ومدفعية ورشاشات في الأماكن التعبوية اللازمة والمناسبة، ووسّعتُ التحكيمات بمعرفة سرية الاستحكام التي كان يرأسها إذ ذاك الرئيس تحسين بك العنبري، وأمّنتُ ارتباط الهاتف بين مركز القيادة وجميع قوات الألوية والشعب الأخرى بصورة جيدة، وبعد أن عبأت المدفعية تعبئة مستورة أخذتُ مدفعين جبليين سريعين، ومعي قائد لواء المدفعية العقيد صدقي بك الكيلاني إلى جوار جسر دير زنون، ووضعناهما بين الأشجار على رابية في مكان مستور بعيداً عن الأنظار، غير أنه حاكم ومشرف على معسكرات العدوّ جميعها من مشاة ومدفعية ودبابات ومطارات، وكان بعدهما عن معسكراته لا يزيد عن ألف وثلاثمائة متر، وكتم أمرهما عن الجميع ما عدانا، وجعلتُ مركز قيادة الفرقة في قلعة مجدل عنجر الخربة التي تشرف على سهول البقاع جميعاً، وأتممتُ التحكيمات والترتيبات بصورة حسنة، وأمرتُ بنسف الجسور التي قد يستخدمها العدوّ في هجومه من رياق إلى جب جينين على نهر الليطاني، وأبقيتُ جسري برّ الياس ودير زنون بعد أن لغمناهما لنسفهما عند الحاجة الماسة، ووضعتُ على حراستهما ضابطاً تحت إمرته حضيرة نظامية ومائة متطوّع من القرية المجاورة لتدافع عنهما شرقي النهر، ولو أمكننا الحصول على الكمية الكافية من الأسلاك الشائكة لكان لدينا من مجدل عنجر خطّ دفاعي متين يصعب جداً اقتحامه مهما كان العدد قوياً. ولما اطلع وزير الحربية على الترتيبات الدفاعية المذكورة سُرّ أيّما سرور، وأبدى شكره الجزيل، ووعدني بإرسال ما يمكنه من قوة لتعويض ما نقص من الفرقة من جرّاء الفارين. ويا للأسف الشديد! حيث كان مجموع قوتنا في مجدل آنذاك ألف وأربعمائة جندي لا غير.

وبعد أن وصل الإنذار لدمشق عُيّن سمو الأمير زيد، شقيق جلالة الملك، قائداً عاماً للجيش السوري[8]. وأصبح معالي ياسين باشا الهاشمي قائداً لجبهة دمشق، والزعيم الركن يحيى حياتي بك قائداً لمنطقة حمص وحماه، والعقيد الركن محمد إسماعيل بك الطباخ قائداً لفرقة حلب ومنطقتها[9]. وكانت البلاد مستعدة للمقاومة، غير أن ياسين باشا الهاشمي اعتذر عن القيام بمهمة قيادة منطقة دمشق، وصرّح للأمير زيد بعدم استطاعة البلاد مقاومة الجيش الفرنسي طويلاً. فاستدعاه جلالة الملك كما استدعى رجال الحكومة إذ ذاك، وأعلمهم بما قال الهاشمي، فأجاب المرحوم يوسف بك العظمة قائلاً: «معاذ الله أن نستسلم لليأس والقنوط».

وأخيراً تمّ الاتفاق على عقد مجلس عسكري للبتّ في الأمر، وتألف المجلس، برئاسة جلالته، من السادة والأركان ياسين باشا الهاشمي، والعقيد أحمد بك اللحّام، والمقدّم مصطفى وصفي بك، والمقدّم شريف بك الحجّار، والزعيم مصطفى نعمت بك، والمقدّم حسن يحيى بك الصّبان، وانضمّ إليهم العقيد المدفعي عارف بك التوّام مدير التسليح العام. وكنُت إذ ذاك في الجبهة في مقرّ قيادتي في مجدل عنجر. فتضاربت آراؤهم واختلفت أجوبتهم فأمرهم جلالته بتوحيد الفكرة وإبداء الرأي النهائي. فاستمهلوه برهة، ثم أعلنوا أنه يمكن للجيش السوري العربي أن يقاوم بضعة أسابيع فقط بتجهيزاته الحالية، وعدده ومواقعه الحربية، على أن يشترك معه متطوعة حوران والبدو والأهالي، وعلى أن يتصرف بالأسلحة التي كانت بأيدي الأهليين من بدو وحضر. وأنه إذا لم يتح للحكومة ذلك فالجيش يعجز عن المقاومة حينئذٍ ساعة واحدة. وهكذا اجتمع الرأي على ذلك، فأخذت الحكومة بالحذر والانتباه.

8- الأمير زيد بن الحسين (1898-1970)، أصغر أولاد الشريف حسين بن علي وقائد جبهته الشمالية خلال الثورة العربية الكبرى. عُيّن نائباً للأمير فيصل خلال سنوات الحكم الهاشمي في سورية، ثم سفيراً للعراق في اسطنبول وأنقرة ولندن حتى عام 1958.

9- ياسين باشا الهاشمي (1884-1937)، ضابط عراقي خدم في الجيش العربي وكان رئيساً لأركان فيصل في دمشق، ثم انتقل معه إلى بغداد وترأس الحكومة العراقية مرتين، ثم أُطيح به فعاد إلى دمشق وتوفي فيها سنة 1937.

بوادر الخيانة

بتاريخ 18 تموز سنة 1920 وردت إليّ برقية من قائد اللواء الرابع، العقيد شكري بك، المعسكر في راشيا، يعلمني فيها أن أهالي حاصبيا، وعلى رأسهم الشيخ حسين القس، شيخ خلوة البياضية، هاجموا الحكومة والجند ليلاً في حاصبيا، وقتلوا من قتلوه وفرّ الباقون، وأخذوا الرشاشات، وأحضروا من مرج عيون ستمائة خيال فرنسي، وسلموهم حاصبيا، ومثّل أهالي راشيا الدور نفسه، فأحرقوا دار الحكومة، وسلّموا راشيا للخيالة الفرنسية التي أحضروها من حاصبيا. ويقول قائد اللواء الرابع المذكور أنه اضطر للانسحاب بعد إرساله هذه البرقية من راشيا باستقامة ميسلون بعد أن أمضوا ليلتهم محصورين بقصر آل الشهابي، وأن الأهالي أمطروا قصر الشهابي بوابلٍ من الرصاص ليلاً، فقتل أحد الأمراء الشهابيين بالرصاص، فأعلمتُ الحكومة حالاً بالأمر.

قبول شروط غورو

فعقدت الحكومة اجتماعات عديدة عسكرية وملكية للمداولة في الأمر، وقرَّ رأيهم على قبول شروط غورو خوفاً من سراية مثل هذه الخيانة إلى مناطق أخرى، ودفعاً ومنعاً لحروب أهلية داخلية تخرب فيها البلاد.

الصلح المزعوم وغدر الفرنسيين

في مساء 20 تموز 1920 أبلغتني وزارة الحربية بأنّ الصلح تمّ بين حكومة سورية وفرنسا على الشروط الآتية:

1- قبول الانتداب الفرنسي على أن يكون للفرنسيين بضعة مستشارين فقط.

2- قبول النقد السوري الذي طبعته فرنسا.

3- ترخيص الجيش السوري في برهة أسبوع.

4- تسليم الفرنسيين محطة رياق لتأمين سوقياتهم إلى الشمال.

5- عدم تجاوز الحدود.

6- تسليم رؤساء العصابات والضباط المتهمين بالتعدي على المسيحيين.

وصادف أن حدث بتشويق الفرنسيين وتحريضهم على الخلاف بين أهالي رياق والدرك السوري مصادمة أسفرت عن قتل بضعه أشخاص من الأهالي، وبضعة جنود من الدرك، فانتهز الفرنسيون هذه الفرصة وذلك الخلاف، واحتلوا رياق وحصّنوها بتحصينات متينة. وبعد أن أعلمتني وزارة الحربية بالصلح وقبول الإنذار بساعة واحدة تقريباً، أُبلغتُ أمراً من قائد منطقة الشام، ياسين باشا الهاشمي، عن طريق أركان حربه، القائد الركن أدهم بك، بأن تبقى المدفعية في مجدل عنجر، وأن أعود في صباح اليوم التالي مع جميع جنود فرقتي إلى دمشق، فرفضت قبول هذا الأمر، ولاسيما ترك المدفعية دون عضد المشاة مضيعة أكيدة لها، وهي ركن الفرقة وناموسها.

فقلت لأدهم بك: «إما أن نحضر جميعاً أو أن نبقى جميعاً، وهو الأفضل. فشكاني لوزير الحربية، الذي كلمني هاتفياً ووافق على عودة الفرقة جميعها مع إبقاء مائة جندي مشاة للمحافظة على بقية الأرزاق والعتاد ليتم سحبها».

الفوضى تعمّ دمشق على أثر قبول الإنذار

وفي مساء ذلك اليوم طُلب مني إرسال ما لديّ من الرشاشات بالسرعة الممكنة إلى دمشق، إذ هاجم الأهالي القلعة، ونهبوا الأسلحة والتجهيزات، وحصل اختلال وفوضى شديدة على أثر قبول الإنذار الفرنسي. فطلبتُ إرسال سيارات كبيرة لنقلها بالسرعة الممكنة، فحضرت السيارات وأرسلتُ جميع ما لديّ من الرشاشات إلى دمشق، ثم تلقيتُ برقية من وزير الحربية، يوسف بك، ليلاً يأمرني فيها بأن أوكّل أحد قواد الألوية ليعود بالفرقة إلى دمشق، وأن أحضر بسرعة وبالسيارة، على أن أكون في الساعة 7,30 قبل الزوال في قصر جلالة الملك.

فوكلتُ قائد اللواء الأول، المقدم حسن بك الهندي، بوكالة الفرقة، وطلبتُ إليه أن يبطئ في السير ليحمي المدفعية ويؤمن وصولها معه، لاسيما المدفعين اللذين كانا بجوار جسر دير زنون، وكلفتُ الوكيل قائد السيد نوري رمو بالمحافظة على الأرزاق والعتاد، ومعه مائة جندي مشاة، كما أبقيتُ حضيرة مع ضابط على جسر برّ الياس كي يخبرني هاتفياً بجميع ما يراه من تبدل في معسكر الفرنسيين عن طريق قائد القوة التي كُلفت بالبقاء والمرابطة في مجدل عنجر، وحيث يمكنه أن يشاهد تماماً وبكلّ وضوح معسكرات الفرنسيين المنتشرة أمامه. وبعد ان اتخذتُ هذه الترتيبات عدتُ مسرعاً إلى دمشق بالسيارة، ومعي قائد اللواء الثاني، المقدم توفيق بك العاقل، فوصلتُ في تمام الساعة السابعة والنصف إلى قصر جلالة الملك كما طلب مني وزير الحربية.

خلفُ الفرنسيين بالعهد

وعندما قابلتُ جلالة الملك هنّأني بسلامة الوصول وقال: «يا تحسين لقد أخلف الفرنسيون عهدهم، وزعموا أن جوابنا بقبول الإنذار والصلح لم يصلهم، وأنهم لم يأخذوا أمراً من الجنرال غورو لإيقاف الزحف، وقد احتلوا مجدل عنجر بعد انسحاب فرقتنا. وقال يجب أن تعود حالاً وتأخذ معك القنصل الفرنسي المسيو بيكو، وأن تفهم قائد قوة الفرنسيين الجنرال غوابيه أننا تصالحنا وقبلنا شروطهم، فما معنى هذا التقدم والغدر؟»

ولمّا هممتُ بالعودة لتنفيذ أمر جلالة الملك، اقترح وزير الحربية، الذي كان حاضراً، أن أقوم أنا بمهمة تهدئة الخواطر الثائرة في دمشق من الأهليين الذي كانوا يتجمعون لمهاجمة الحكومة، وأنه سيرسل مرافقه، ياسين بك الجابي، مع القنصل الفرنسي لتحقيق رغبة جلالة الملك، فوافق جلالته على ذلك.

تهدئة الخواطر وإخماد الفتنة في دمشق

بعد أن ودّعتُ جلالة الملك ووزير الحربية، ذهبتُ توّاً بالسيارة إلى حيّ الميدان، حيث وجدتُ جماهير غفيرة من الأهالي المدجّجين بالسلاح قرب جامع الدقاق، في

الميدان الفوقاني، وهم مصمّمون على مهاجمة الحكومة، وعندما شاهدوني قادماً أحاطوا بالسيارة وبهتوا لرؤيتي، وقالوا أنهم بُلّغوا بأن الحكومة أوقفتني وسجنتني وباعت البلاد للفرنسيين، وأنّ مرادهم قتل جميع الخائنين.

فأفهمتهم ما حصل في حاصبيا وراشيا من خيانة وتسليم للفرنسيين، وأنّ الحكومة خشيتْ أن تصبح بين نارين وعدوَّين؛ عدوّ أجنبي ظاهر وعدوّ داخلي، وهو أشدّ ضراراً وفتكاً، يثير الفتن ويوقع البلاد في حروب أهلية ثمّ يسلمها للفرنسيين، وأنّ الحكومة اختارتْ أهون الشرين وقبلتْ مرغمة شروط الجنرال غورو، على أن يسعى جلالة الملك عند ذهابه إلى مؤتمر الصلح لإلغائها أو تخفيف ضررها، وحفظ استقلال البلاد. فاقتنع الجمهور بكلامي واطمأن، وعرضوا عليّ تطوعهم للجهاد، والعمل في سبيل سيادة البلاد وحماية استقلالها. فطلبتُ إليهم العودة إلى أعمالهم ريثما تصدر إلينا تعليمات جديدة، فإذا دعت الحاجة إلى معونتهم كلفناهم بذلك، فانصرفوا وتفرقوا شاكرين. وقد كرّرت نصائحي هذه وحديثي في كلّ من أحياء الشاغور والعقيبة والعمارة وباب السريجة وقبر عاتكة، وبسائر الأحياء الكبيرة التي تجمهر أهلها بتشويق صنائع الفرنسيين للإخلال بالأمن وإرباك الحكومة.

وقد رجوتُ كذلك الشيخ بدر الدين الحسني لما كان يتمتع به من محبة وكرامة واحترام في قلوب الناس أن يذهب بنفسه إلى الأسواق الرئيسية، كالحميدية ومدحت باشا، ويُطمئن الناس كي يفتحوا حوانيتهم، ويفهمهم حسن نيّة الحكومة، ففعل رحمه الله[10].

إعلان الحرب

ولمّا عدت ذلك اليوم، حوالي الساعة الثانية والنصف بعد الزوال، إلى وزارة الحربية، أبلغني المرحوم يوسف بك وسمو الأمير زيد إعلان الحرب، وأنهم كلفوا

10- بدر الدين الحسني (1850-1935)، المحدّث الأكبر لبلاد الشام، وأحد أشهر علماء مدينة دمشق.

وكيلي في قيادة الفرقة أثناء عودته مع الفرقة بميسلون أن يرابط بعقبة الطين، ويكلف الفرنسيين الذين كانوا يتابعون تقدمهم باتجاه دمشق أن يعودوا إلى معسكراتهم، فإذا لم يقبلوا ذلك بعد إنذارهم ثلاث مرات أن يحاربهم.

تراجع الفرنسيين

وقد أعلمنا أنه أنذرهم أحد الضباط المدعو جميل الدهان، ولكنهم لم يبالوا، فضربت مدفعيته طليعة دباباتهم، وحطّمت لهم ثلاثاً منها، وفرّ الباقون، وتراجعت قوات الفرنسيين من وادي القرن إلى الجديدة، وأمرني أن أسرع وأكون على رأس فرقتي في ميسلون، فأخبرته بما كان من أمر الجماهير في الأحياء الكبيرة، والتي عرضتْ عليّ تطوعها عند الحاجة، فوافق على دعوتهم للجهاد والتطوع، فذهبتُ مسرعاً وأذعتُ ما بُلّغت به من إعلان الحرب في الأحياء، ودعوتهم للّحاق بي بميسلون.

فرار الجنود

وعدتُ مسرعاً إلى ميسلون، ولكن، ويا للأسف، وجدتُ عند وصولي إلى أول سهل الديماس جماعة من الجند تبلغ الخمسين، ومعهم ثلاثة ضباط. ولمّا سألتهم عن سبب مجيئهم إلى هنا، زعموا أنهم لم يُبلّغوا إعلان الحرب، وأنهم ظمئوا وأتوا ليشربوا ثم يلحقوا بي بأقرب وقت بعد استراحتهم قليلاً. وبعد هنيهة صادفتُ ما ينوف عن المائة جندي مع بعض الضباط، وكانت حجتهم كالأولين. وبعد برهة أخرى رأيتُ جماعة من الجند ثالثة ثم رابعة على الخط المذكور، إلى أن وصلتُ إلى ميسلون، إلى الموقع المسمى بأم الشراطيط وعقبة الطين، حيث وجدتُ القوة الباقية في ميسلون، وكانت من القلة بحيث لم تتمكن من استثمار النصر الأول لها، لأن مجموعها لم يكن يتجاوز الأربعة وستين جندياً من المشاة، وثلاثة عشر ضابطاً مع عشرين جندي من المدفعية فقط، فدهشتُ لهذه الحالة السيئة، وأحصيتها بنفسي بالضبط، فلم تتجاوز المقدار المذكور، وإن مثل هذا العدد لا يكفي للمحافظة على المدفعية، فضلاً عن تعقّب العدوّ. وشاهدتُ بنفسي الثلاث دبابات المكسّرة قرب فم الوادي.

وبعد قليل وصل سمو الأمير زيد ومعه وزير الحربية، يوسف بك العظمة، واطّلعوا على الحالة بأنفسهم، ورأوا بأعينهم دبابات العدوّ الثلاث المحطّمة في مدخل الوادي قرب الجسر الصغير، وأسفوا معي لعدم وجود قوة كافية لاستغلال هذا الفوز، وتعقّب العدوّ المنهوك القوى، والقضاء عليه. وكان هذا ممكناً لو بقيت قوتنا كما تركتها في مجدل عنجر قبل إعلان الصلح وطلب تسريح المتطوعة ودعوة الفرقة لدمشق، ومن ثمّ إغراء الدساسين الخونة للجند بالهرب.

حضور جميل بك الألشي والملحق العسكري الفرنسي طولا إلى مراكز العرب

وبينما كنت أتذاكر مع سمو الأمير زيد ووزير الحربية بالأمر، وإذا بجميل بك الألشي مرافق جلالة الملك مع الملحق العسكري للقنصل الفرنسي الكولونيل طولا يصلان من دمشق[11]. فاطّلع وزير الحربية، جميل بك، على تفصيل الوضع، (وكان طولا يقف على بعد عشرين متراً يسترق السمع، وهو يحسن اللغة العربية، فأجابه جميل بك بأنه سيذهب مع الكولونيل الفرنسي طولا، ويطلب من قائد القوات الفرنسية هدنة ثمانية وأربعين ساعة لكي تتمكنوا من جمع شتاتكم، وكان إرسال أجنبي مع جميل بك الألشي، لاسيما وهو يتقن اللغة العربية ، خطيئة كبرى لا تغتفر، نتج عنها شرّ مستطير؛ إذ لا بدّ لي من القول بهذه المناسبة أنني سمعتُ من شاهد عيان، هو شاب لبناني كان سكرتيراً ومترجماً للجنرال غوابيه، جمعتني به الصدف بعد دخول الفرنسيين لدمشق ببضع شهور في دار صديق قديم لي، يدعى الدكتور الياس تين، في حي إخواننا المسيحيين في باب توما، تربطني وإياه صلة الجهاد أيام الحرب العالمية الأولى في جناق قلعة ورومانيا، وكنتُ في زيارة له، وعندما جاء ذلك الشاب فعرفني عليه، وكان منه أن ذكر لي قصة تلك الواقعة الحقيقية قائلاً:

11- جميل الألشي (1883-1951)، سياسي سوري تسلّم رئاسة الحكومة في زمن الانتداب الفرنسي، في سنة 1920 وسنة 1943. وكان مرافقاً عسكرياً للملك فيصل الأول ومندوباً عنه في المفاوضات مع الفرنسيين سنة 1920.

عدد القوات الفرنسية

«إنّ قوات الجنرال غوابيه عندما زحفت من معسكراتها في منتصف ليلة 21 تموز سنة 1920، كانت مؤلفة من أربعة ألوية مشاة، واثنتي عشرة بطارية من المدفعية؛ خمسة منها مدافع ميدان سريعة، وخمسة جبلية سريعة، وبطاريتان من عيار 5, 15 سنتيمتر، ولواء خيالة سباهية مراكشيين وخمسة عشر دبابة، وكثير من الرشاشات الثقيلة والخفيفة تقرب المائة، وسرايا فنية من استحكام وهاتف ولا سلكي، ووسائط نقلية كثيرة وخمس طائرات». وذكر المومى إليه أنه عند وصولنا إلى جسر برّ الياس جاءنا ضابط سوري، وقال إن شروط الصلح قبلت، وليس لنا أن نزحف إلى داخل حدود سورية، فلم يبالِ قائد القوات الفرنسية بما قاله، وأخذه أسيراً، ولمّا وصلنا إلى مجدل عنجر أسرنا القوة السورية الصغيرة التي كانت تحافظ على بقية عتادكم وأرزاقكم، وإن قائدها ذكر لنا أن الصلح تمّ ولم يقاوم.

ومن ثمّ تقدمت القوات الفرنسية إلى أن وصلت إلى جديدة كفر يابوس؛ حيث جاءنا ضابط سوري آخر وأخطرنا أن نقف ونعود، وإلا فإنّ لدى الجيش السوري أمراً بضرب القوت الفرنسية، فكان جواب القائد الفرنسي: «إن قاومتم هاجمناكم، وزحفنا عنوة، فعاد من حيث أتى وتقدمنا من الجديدة إلى وادي القرن، وأمامنا الدبابات الخمسة عشر تشقّ طريقنا، وخلفها سيارة نقل الجنود المشاة». وعندما خرجنا من فم الوادي، رأينا الجيش العربي آخذاً مواضعه في عقبة الطين، فأصلتنا مدافعه ناراً حاميةً حطمت ثلاثاً من الدبابات الفرنسية، واضطرّ الباقون للنكوص على أعقابهم إلى جديدة كفر يابوس، وترك جنود الدبابات الاثنتي عشرة، الباقية دباباتهم في وادي القرن، على الطريق، ولاذوا بالفرار ليسلموا بأرواحهم، وحصل تلاشي عظيم بين القوات الفرنسية، مما اضطر معه الجنرال غوابيه لإصدار أمر بالتراجع إلى شتورة، وأمر بجلب الدبابات الاثنتي عشرة، فلم يجسرْ أحد على الذهاب لإحضارهم، فعمل قرعة على جنود الدبابات، وأجبر من وقعت عليه القرعة أن يذهب ليلاً بعد أن يرخي الظلام ستاره، على أن تتحرك القوات راجعة بعد ذلك.

لماذا هجم الفرنسيون بعد تراجعهم؟

وبينما نحن كذلك إذ حضر حوالي الساعة السابعة والنصف زوالية الكولونيل طوالا الفرنسي، ومعه رسول الملك فيصل، وهو جميل بك الألشي، واجتمعا بالجنرال، ثم انفرد طولا بالمحادثة معه، ومن ثم لوحظ أن الجنرال قد سكن روعه، وأصدر أمره بإلغاء التراجع، وأطلع الجنرال غورو على ما علمه، فكان جواب الجنرال غورو بأن يشدّد شروط الهدنة كي ترفض من الجانب السوري، وأن ينتهز فرصة ضعف الجيش السوري بالتسريح والعودة والدسائس، وأن يدخل دمشق. فأرسل حالاً جنوداً سحبوا الدبابات التي سبق أن تركوها منهزمين، وكتب شروطاً لهدنة جديدة، وسلّمها إلى جميل بك الألشي، الذي عاد بها إلى عقبة الطين. وبعد إمضائها وقبولها من الجانب السوري، عاد إلينا، وذهبا إلى الجنرال غورو (هذا ما سمعته بنفسي من رجلٍ كان سكرتيراً وترجماناً للجنرال غوابيه).

شروط الهدنة

ولنعد الآن إلى عقبة الطين، حيث كنتُ مع سمو الأمير زيد، ووزير الحربية يوسف بك العظمة، ورسول جلالة الملك جميل بك الألشي، والكولونيل طولا الفرنسي، فقد وعدَنا جميل بك بأن يأخذ لنا هدنة 48 ساعة لجمع شتات جيشنا، فأعطيناه سرّ الليل لكيلا يرميه حرسنا عند عودته ليلاً، وذهب مع طولا بالسيارة إلى جديدة كفر يبوس، وعادا ومعهما شروط الهدنة التي سلّمها إلى يوسف بك، وكانت كما يلي:

على الطرفين ألّا يبدلا أماكنهما مطلقاً، وألّا يجريا أيّ استكشاف أو تحكيمات.

خط الحدود الفاصل بين الطرفين هو الجسر الصغير الكائن قرب فم الوادي – أي وادي القرن – (وقصدوا بهذا الشرط بقاء الدبابات المحطمة والسالمة التي تركت فراراً منهم ضمن منطقة الفرنسيين، ليتسنى لهم أخذها وتخليصها).

بما أنّ الجيش الفرنسي أصبح بعيداً عن قاعدة حركاته، وأصبح تموينه بالأرزاق والعتاد صعباً جداً، فيجب أن يستفيد من الخط الحديدي، وأن يسوق أرزاقه بالقطار إلى محطة التكية، ومن هناك يتابعون نقلها عبر جبهة ميسلون إلى الجديدة. (ويقصدون بذلك أن ينزلوا خلفنا ويضربونا الضربة القاضية، وهذه مادة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الحروب، وما أنزل الله بها من سلطان، فهي مكيدة مفضوحة).

ساد القلق من أجل شروط الهدنة

وفي هذه الأثناء وصل معالي الأستاذ ساطع بك الحصري، موفداً من قبل جلالة الملك ليقابل غورو في عاليه ويسعى لإنهاء هذه المشكلة، فاطلع على هذه الشروط المذكورة، وتعجّب لها. وقد سألتُ جميل بك الألشي، مستغرباً قبوله مثل هذه الشروط، وهو ضابط ركن، وكيف أنه لم يناقشهم بها، وهل ظنّ الفرنسيون أننا من وحوش إفريقيا؟ فأجاب أنه لم يقدر على عمل شيء أكثر من ذلك. ولمّا لم يكن لدينا من القوة ما يمكننا الاعتماد عليها، وكنا بحاجة ماسة إلى هدنة تمكننا من جمع شتاتنا، ساد القلق بالجميع من المصير المشؤوم.

قبول شروط الهدنة

وتفادياً لخطر المادة الثالثة، وهي بيت القصد والخطر المبيت الأكيد، خطر ببالي أن آمر بقلع قضبان السكة الحديدة ونسفها بين سرغايا والتكية، ونسف الجسور التي عليها، وكنتُ قبلاً فاتحت القائم مقام الزبداني، محمد بك الحلبي، بذلك. (وهو متخرج من المدرسة الحربية بالأستانة من ضباط العشائر ومن زعماء الدروز محمد باشا الحلبي اليوم)، ووعدني بتنفيذ هذا الأمر عند لزومه.

فقلتُ ليوسف بك أني قبلت الشروط، فاستغرب مني بعد رفضي الشديد لها، ولمّا أطلعته سراً وأطلعتُ سمو الأمير زيد أيضاً على فكرتي سراً، سُرّا أيّما سرور لإبطال مفعول شرط الفرنسيين الثالث الخطر، فشكراني وأمضيا (وقّعا) على

شروط الهدنة بالقبول، وسلّماها إلى جميل بك والكولونيل طولا الفرنسي، اللذين عادا بها إلى الجنرال غوابيه، وإلى غورو في عاليه.

جمع المتطوعين

بعد إمضاء الهدنة، رجوتُ سموّ الأمير زيد ووزير الحربية، يوسف بك، أن يعودا إلى العاصمة دمشق ليجمعا لنا شتات الجند الفارّين والمسرّحين، وما أمكن من المتطوعين، وأن يستعينوا بفضيلة الشيخ كامل القصاب، رئيس اللجنة الوطنية العليا، لما كان له من تأثير عظيم على عامة الشعب السوري، وأن يُسرعا بإرسال ما لديهم من قوة من دمشق للمحافظة على المدفعية وتأمين الجبهة.

فذهبا واستطاعا بعد جهد إرسال ألف وسبعمائة متطوع عُزّل من السلاح مع سبعمائة بندقية، في قطار خاص وصل إلى محطة التكية بعد منتصف الليل بقليل مع الرئيس عارف بك العنبري.

نسف الخطّ الحديدي

واتصلت فوراً بقائم مقام الزبداني، محمد بك الحلبي، ورجوته تنفيذ ما طلبته منه سابقاً، ووعدني بتحقيقه من نسف الخط الحديدي وجسوره بين سرغايا والتكية، أو قلع قضبانه على الأقل، ففعل ذلك ونفّذه فوراً.

فرار المتطوعين

غير أنّ المتطوعين الألف والسبعمائة تخاطفوا السلاح من محطة التكية عقيب وصولهم إليها – كما أعلمني الرئيس عارف بك العنبري الذي كان على رأسهم – فظنّ أنّ ذلك شوقاً للحرب والقتال للوهلة الأولى، ولكن خاب ظنه عندما فرّ الكثيرون بسلاحهم، فأحصاهم فلم يجد سوى ثلاثمائة مع سلاحهم، وفرّ الباقون لجهات مختلفة، وعاد بعضهم بالقطار إلى دمشق.

الإمدادات التي وصلت

في صباح يوم الخميس 22 تموز سنة 1920 ، وصل الرئيس عارف بك العنبري ومعه المتطوعون الثلاثمائة، وتواردت بعض المتطوعة التي سلحت من خان ميسلون، و115 خيّالاً من متطوعة الميدان، وسرية الحرس الملكي بقيادة الرئيس محمد علي بك العجلوني، وسريّة الهجانة لجلالة الملك (بقيادة المقدم الشيخ مرزوق التخيمي، وستون خيالاً نظامياً فقط من لوائي الخيالة والهاشمي للفرقة الأولى بقيادة الرئيس عزت بك الساطي، مع سرية رشاش يرأسها الرئيس هاشم بك الزين، وكان بين ضباطها الملازم، إذ ذاك، عبد الله بك عطفة الزعيم، رئيس أركان حرب الجيش السوري حالياً، والملازم صلاح الدين عرب أوغلي. وبذلك كله بلغ مجموع القوة العاملة في ميسلون ثمانمائة وخمسون بين جندي ومتطوّع، بينهم ستمائة وأربعة وسبعون مسلحين، والباقون بدون سلاح، وقد وزع العزّل من السلاح للمساعدة فقط على المدفعية والرشاشات والقطع الفنية الأخرى من استحكام وهاتف.

بعض الشهداء من المتطوعين ممن أبلوا البلاء الحسن

وكان بين المتطوعين الذين حضروا بسلاحهم من دمشق السادة الغرّ الميامين الشيخ عبد القادر كيوان، والشيخ كمال الخطيب، والشيخ محمد توفيق الدرّا، وياسين كيوان، وصلاح الدين أبو الشامات، وعمر الصباغ، وصادق هلال، وأحمد الموصلي، ومحمد نوري الحصري، وعبده الصباغ، وأحمد القحف، وعبد الله الكلاّس. فهؤلاء الأبطال الكرام استشهدوا جميعاً بعد أن أبلوا بلاءً حسناً في قتال العدوّ الغاصب، وقتلوا منه الكثير، وسقطوا أخيراً شهداء أبرار بواسل. رحمهم الله وأسكنهم فسيح جناته.

مركز الإسعاف الصحي

وقد تأسس بجوار قرية الديماس مركز الإسعاف والتضميد تحت إشراف الطبيب العسكري المقدم عبد القادر سري بك، ومعه بعض أطباء الفرقة العسكريين.

مركز التموين والتسليح

تولى القيام بمهمة التموين والتسليح وتنظيم المتطوعين القادمين من دمشق القائد الركن شريف بك الحجار، يعاونه المقدم إسماعيل نامق بك قائد لواء الخيالة الهاشمي (وهو الآن رئيس أركان الجيش العراقي وبرتبة فريق) وقد وصلا إلى ميسلون في 21 تموز سنة 1920، حيث اتخذا خان ميسلون مركزاً لهما.

الخونة يندسّون بين المتطوعين

أعلمني شريف بك الحجار، قائد مركز المتطوعين والتموين، هاتفياً أنه يوجد بين المتطوعين رجل لبناني يقال له هاشم القباني، ومعه عشرون متطوعاً يتسلّحون بالقنابل اليدوية، وأنه أكرم مثواهم وأحسن وفادتهم، ولكنه اشتبه بأمرهم من حركات رئيسهم هاشم وأسئلته التي لا مبرّر لها إلا سوء النية، فهو يسأل عن مستودعات العتاد والأرزاق، وأين هي الخ... فطلبتُ منه اعتقالهم حالاً وإرسالهم مخفورين إلى دمشق ليُحاكموا، وينالوا جزاءهم الصارم.

غير أنه تبين لي، كما سيأتي فيما بعد، تسريحهم من دمشق، من ثم قيامهم بأعمال التخريب وقطع المواصلات الهاتفية والسلكية، وبثّ الخيانة والفتنة بين الجنود والمتطوعين، لعدم المقاومة مع مزيد الأسف الشديد.

طلب المدفعية من دمشق

بعثتُ إلى دمشق أطلبُ من لواء المدفعية، الذي يقوده العقيد محمد علي بك المدفعي، بطارية صحراء سريعة لتعزيز مدفعية الجبهة، ونظمتُ جبهة الدفاع أثناء الهدنة، بحيث عبأتُ فيها اثني عشر مدفعاً، وهذا ما كان لديّ، منها أربعة مدافع ميدان سريعة بقيادة الرئيس طه من طرابلس الشام، ومعه ملازمان آخران، وستة مدافع جبلية سريعة بقيادة المقدم بكداش، وكان معه الملازم أول، إذ ذاك، رشيد بك عطفة، وملازم آخر. ووضعنا أحد هذه المدافع الجبلية السريعة في الخط الأمامي، عند منعطف الطريق لضرب الدبابات

المباشر إذا نجت من الألغام، وآخر على تلٍ عالٍ خلف الجبهة لضرب الطائرات مع الضابط حمزة، ومدفعان أوقص (أوبوس) وعليهم ملازم أول، وأخذتُ، أنا، وصدقي بك الكيلاني، قائد لواء المدفعية، مدفعين من مدافع بطارية الصحراء السريعة التي جلبناها من دمشق بقيادة الرئيس بهاء الدين الصواف مع الملازم ضياء، ووضعناهما على تلّ يشرف على طريق التكية ومحطتها، ولم يعلم محلها غيرنا أبداً، ووضعنا مدفعين بمنعطف على الطريق العام لضرب الدبابات فيما إذا اخترقت الجبهة.

توزيع القوات على الجبهة

ألحقت المتطوعة بقائد اللواء الأول المقدم حسن بك الهندي، وقسمت على فوجين، فوج يرابط في الجبهة بين الطريق العام إلى الشمال بقيادة وكيل القائد حسني بك توكلنا، وفوج آخر من الطريق العام إلى الجنوب بقيادة وكيل القائد أبو الخير بك الجابي، وكان بين ضباط الفوج الرئيس عارف بك العنبري، والملازم منيب الطرابلسي، والملازم جميل الدهان (المقدم في الجيش السوري حالياً). وبين ضباط الفوج الثاني فوزي المبيض وضباط آخرون، وأعطي لكل فوج بضع رشاشات ثقيلة وخفيفة، وأرسلتُ أيضاً سرية الحرس الملكي، وقدرها ستون جندياً نظامياً بقيادة الرئيس محمد علي بك العجلوني إلى قائد اللواء الأول، وكانت وظيفتها حماية الجناح الأيمن من الإحاطة، وأرسلتُ البيشة (الهجانة) الثلاثمائة، والتي يقودها المقدم الشيخ مرزوق بك التخيمي، لحماية الجناح الأيسر أمام دير العشائر وحلوة ونبطة، وألحقتُ بهم الخيالة النظاميين، وعددهم ستون مع سرية الرشاش بقيادة الرئيس، إذ ذاك، عزت بك الساطي (المقدم مدير السجون بدمشق الحالي)، وكان قائد سرية الرشاش هذه الرئيس هاشم بك الزين، وأحد ملازميها عبد الله بك عطفة (الزعيم رئيس أركان الجيش السوري الحالي)، والملازمين الآخرين صلاح الدين عرب أوغلي، ومحمود بك الهندي، كما ألحقت المتطوعة الخيالة الميادنة (من أبناء حيّ الميدان) وعددهم مائة وخمسة عشر خيالاً بالرئيس عزت بك الساطي.

تحضير الألغام وبثها

كان الرئيس تحسين بك العنبري قائداً لسرية الاستحكام، وقد كلفته بعمل ألغام ثلاثة كبيرة، أولها تحت الجسر الصغير الرئيسي، والثاني على الطريق العام على بعد مائتي مير عن الأول، والثالث قرب خط دفاعنا على بعد مائة متر منه. وأن يصنع لكلّ لغم جهاز اشتعال خاص، يعهد به إلى أحد الضباط لينسف به الدبابات عند وصولها إليه، ففعل ذلك ووضع في اللغم الأول اثنا عشر قالباً من الديناميت، وفي الثاني ثمانية قوالب، وفي الثالث ستة قوالب.

تأمين الاتصال والمخابرة

وقد كلفتُ تحسين بك العنبري أيضاً ربط قطاعات الفرقة وأجزائها، ومراكز التموين والصحة والإسعاف مع قيادة الفرقة ومع دمشق بواسطة الهاتف، ففعل حالاً. وجعلتُ مركز القيادة على مرتفع عالٍ في منطقة اللواء الأول يشرف على الجبهة جميعها، وقد جلبت آنذاك مدفعين جبليين سريعين، وسبع رشاشات، ومائة جندي من دمشق من الفوج الاحتياطي، لإرسالهم إلى جرد كفر يابوس في الجناح الأيمن بقيادة قائد اللواء الثاني المقدم توفيق بك العاقل، وبرفقته المقدم حسني بك الطرابلسي، وكان على المدفعين الملازم خالد نصري، وقد تمت هذه الأعمال والترتيبات حتى ظهر الجمعة في 23 تموز سنة 1920.

فشل المفاوضات

حضر ظهر يوم 23 تموز سنة 1920 إلى الجبهة وزير الحربية يوسف بك العظمة، وأفهمنا أن المفاوضات قد باءت بالفشل، وأن الحرب واقعة لا محالة، وأن الهدنة مددت اثنتي عشرة ساعة أخرى؛ أي إلى صباح السبت الساعة السادسة والنصف قبل الزوال، فأعلمتُ معاليه بترتيباتي وأطلعته عليها، فسرّ بها، وعرضت عليه كتابة أمر الفرقة الدفاعي، وتعميمه بما أن الحرب واقعة لا محالة، فوافق على ذلك أيضاً، فكتبتُ الأمر حالاً وأطلعته عليه، فقدّره وأقرّه، وبُلّغ حالاً إلى كافة قواد المناطق، وإلى قائد لواء المدفعية، وهو كما يلي:

أمر الفرقة الدفاعي

1- قائد اللواء الأول وقائد المدفعية مكلفان بالدفاع عن عقبة الطين، ومنع العدوّ من التقدم عن طريق وادي القرن، كما يجب على المدفعية خاصة إسكات مدفعية العدوّ.

2- قائد اللواء الثاني مكلّف بالدفاع عن الجرد الواقع على جديدة كفر يابوس، وعليه أن يأتي معه مائة جندي نظامي، وسبع رشاشات ومدفعين جبليين سريعين، ويتوجه بهم إلى الزبداني في الساعة الثالثة بعد الزوال، حيث يلتحق به هناك ألف ومائة متطوع مسلح من أهالي الزبداني، وخمسمائة مسلح من جماعة ملحم قاسم، كما تعهد بذلك قائم مقام الزبداني محمد بك الحلبي، ويجب أن يباشر بضرب العدو ومنعه من التقدم من وادي القرن في الساعة السادسة والنصف تماماً قبل الزوال غداً صباح السبت، كما يجب عليه المحافظة على جناح الفرقة الأيمن من الإحاطة، وعليه أن يصطحب معه حضيرة من جنود الهاتف لتأمين ربط القوة التي تحت إمرته بالفرقة عن طريق قائم مقام الزبداني.

3- قائد الجناح الأيسر المقدّم الشيخ مرزوق التخيمي، يعاونه قائد الخيالة عزت بك الساطي، عليهما أن يشغلا التلال الكائنة أمام دير العشائر وحلوة، وأن يسترشدا برأي سعيد بك عمون الخبير بالمنطقة، وأن يدافعا بقواتهما عن هذه التلال، ويمنعا تقدم العدو منها، أو إحاطته بجناحنا الأيسر، كما يجب عليهما منع تقدّم العدوّ بين عقبة الطين وبين المراكز التي يرابطان مع قوتهم فيها، وعلى الخيالة النظامية والمتطوعة أن يحاربوا مترجّلين، وأن يسلّموا كلّ أربعة خيول لرجل منهم، توضع جميعها مع الهجن وراء التلال حفظاً لها من نيران العدوّ، كما يجب تأمين المخابرة والاتصال مع مقرّ قيادة الفرقة بواسطة حضيرة من الهاتف تلحق بهم، وعلى قائد الجناح الأيسر الشيخ مرزوق التخيمي أن يستشير معاونه عزت بك الساطي ويسترشد بآرائه في جميع الأعمال الحربية الفنية، وعليه أن تدافع القوات التي تحت إمرته مدافعة مطلقة وأن لا تتقدم إلا بأمرنا.

4- مركز قيادة الفرقة في هضبة عقبة الطين، وعلى قواد جميع المناطق أن يحافظوا على الارتباط الدائم مع مقر قيادة الفرقة، ومخابرتها بما يحدث.

5- ترسل الجرحى إلى المركز الصحي للإسعاف الكائن شرقي خان ميسلون.

على قواد المناطق الدفاع كافة أن يعلموني بجميع ما يحدث في مناطقهم من الأعمال الحربية، أو التبدلات الطارئة والمفاجآت التي قد تظهر من قبل العدوّ.

6- بلغ هذا الأمر إلى قواد مناطق الدفاع في الساعة الثانية بعد الزوال.

بتاريخ 23 تموز سنة 1920 من عقبة الطين بميسلون

قائد الفرقة الأولى

العقيد حسن تحسين الفقير

وقد أمرتُ قائد الجناح الأيسر بصورة سرّية أنه إذا وفقنا الله لصدّ العدوّ وهزيمته، أن يرسل عشرين خيالاً ممن يعرفون المنطقة وطرقها، وأن يذهبوا من جناح العدو الأيمن ومن خلفه إلى مجدل عنجر، وأن يقطعوا خطوط البرق والهاتف لمنع اتصال العدوّ مع مراكزه في البقاع ولبنان، وأن يذيعوا خبر هزيمته في القرى المجاورة لكسر معنويات صنائعه، وتقوية معنويات سكان المناطق المذكورة.

فرنسا تنقض العقد وتخالف شروط الهدنة

وبعد أن بلغتُ أمر الفرقة بقليل إذ بي أشاهد طيارة للعدوّ، وخلافاً لشروط الهدنة، تحلّق فوقنا مستكشفة، فاستنفرت جنودنا، ما اضطر معه بعضهم لضربها، فأخذتْ تلقي بوابل من رشاشاتها علينا، فقمتُ فوراً لأنصح الجنود بالتقيد بشروط الهدنة وعدم رمي الطائرة، ولكنها واصلت ضربها بشدة، وكادتْ تصيبني مع المرحوم الشهيد الشيخ كمال الخطيب.

وقد شاهد وزير الحربية هذه المخالفة لشروط الهدنة بعينه، وبقي عندي بجبهة ميسلون إلى غروب الشمس، وعندما أراد الرجوع إلى دمشق مساءً قال لي:

«سأعود ليلاً إليك لأموت معك»، فقلت له: «إذا رجعت إلينا حُرمنا كل معاونة، أي التموين والذخيرة والمتطوعة من دمشق، إنّ وجودك في العاصمة أنفعُ لنا، واتصالي بك سيكون متواصلاً عن طريق الهاتف، والجبهة ليست بعيدة عن دمشق، فبإمكانك أن تكون معنا في برهة لا تزيد عن النصف ساعة بالسيارة». ولكنه رحمه اللّه أصرّ على العودة، ولما رجوتُه بإلحاح أن يعدل عن ذلك، وعدني أن يواجه جلالة الملك في دمشق، وأنه إذا استطاع البقاء فيها فعل، وذهب بعد ذلك إلى دمشق، وأكملت أنا ترتيباتي العسكرية.

وعند حوالي الساعة الثانية عشرة، أي في منتصف الليلة المذكورة، بينما كنت مستلقياً في سيارتي طلباً لقليل من الراحة والنوم بعد عمل مضنٍ متواصل خلال ثلاثة عشر يوماً، وكانت تنتابني فيها أحياناً نوبة الملاريا، وكنتُ أتجلّد وأغالب نفسي ومرضي لئلا أترك الجبهة أو يقال أني متمارض لا سمح اللّه. نعم في منتصف تلك الليلة سمعت صوت سيارة وزير الحربية عائدة من دمشق، فمرت بقربي، وسمعته رحمه اللّه يخاطبني: «تحسين، هل أنت نائم؟ تحسين هلمّ إليّ»، فنهضت وسألته: «لماذا رجعت يا معالي الوزير؟» فقال: «هيا بنا إلى مكان الرصد في مقرّ الفرقة»، وهناك أعلمني رحمه اللّه أنه ودّع أهله وابنته الصغيرة، وأنه لم يتمكن مطلقاً من البقاء في دمشق مع زملائه الوزراء لئلاّ يُقال أنه يخشى الحرب، وأنه حضر إلينا ليموت معي ميتةً شريفة، وأنه يعلم حقّ العلم بأن الحرب بقوتنا الحاضرة والقليلة جداً هي بمثابة انتحار ولكن ما الفائدة؟ وسكت قليلاً ثم أخرج مسدسه وقال: «واللّه أنني كنت أريد الانتحار مرتين يا تحسين تخلصاً من هذه الحياة التعيسة الذليلة ولكني خفت اللّه، وخفت أن أموت ميتة غير شرعية، أو يقال عني أنني انتحرت». فهدّأت من روعه وثورته، وقلت له بأنّ علينا أن نجاهد ما استطعنا، ونسأل اله أن يمدّنا بعونه وتوفيقه، وأن ينصرنا على عدوّنا الغادر الماكر، وأن المقدر كائن لا يمحى. وبعد ذلك تناول قليلاً من الطعام الناشف وطلب النوم قليلاً، فمددتُ له بطانية، ودثّرته بأخرى، وتدثرت أنا بقربه ببطانية واحدة، وكانت وسادة كلّ منا حجراً وضعه تحت رأسه، ونام بقربنا مرافقه السيد ياسين بك الجابي. وصحوْتُ قرب مطلع الفجر متأثراً من شدة البرد، وألقيتُ البطانية التي كنت ألتفّ بها فوق يوسف بك، ومن ثمّ استيقظ الجند والضباط، وذهب كل

منهم إلى وظيفته، وعندما استيقظ يوسف بك طلب قطعة من البسكويت فقط، وأكلتُ مع الضباط شيئاً قليلاً من الخبز والجبن.

عند الصباح في 24 تموز 1920

وحوالي الساعة السادسة قبل الزوال، أي قبل انتهاء الهدنة بنصف ساعة، نظرنا إلى جبهة الفرنسيين، فرأيناهم يعبئون مدافعهم الصغيرة من قمة الجبال، ورشاشاتهم من سفوحها، ورأينا أربعة مدافع جبلية سريعة ذات دروع كبيرة موضوعة في فم الوادي، وفي السهل على جانب الطريق، فتأثر يوسف بك من استهتار العدوّ بنا أيّما تأثير، وقال: «يظهر أنهم يعتبروننا همجاً أو حيوانات يخيفوننا بمدافعهم ظاهرة مكشوفة»، وطلب مني أن أُخرج مدافعي من أماكنها المستورة لمواضع مكشوفة مقابلها، وأن أرميها بها، فأجبته أن ذلك ممكن وميسور من مواضعنا المستورة، ولكنه رحمه الله أصرّ على ذلك، وكان يقف معنا وراء يوسف بك قائد لواء المدفعية العقيد صدقي بك الكيلاني، ويشير إليّ بحواجبه ورأسه ألا أقبل إخراج المدافع من مواضعها المستورة، فرجوت يوسف بك بأن يقبل بإخراج مدفعين فقط من سترهما امتثالاً لأمره، فقبل رحمه الله.

المعركـــــة

وفي تمام الساعة السادسة والنصف من 24 تموز 1920 بدأت الحرب، واشتعل أوارها، وكان من غريب الصدفة أن ظهرت بآن واحد طلقة من العدو وطلقة منا، وكان مقرّ قيادتي (ومعي وزير الحربية رحمه الله، وقائد اللواء الأول للمشاة، وقائد لواء المدفعية) على رأس رجم حجري فوق قمة تلّ الشراطيط، وأمامنا صخرة بارتفاع متر تسترنا إلى نصفنا فقط، ومركز الهاتف بقربنا، وكنا لا نبعد بموضعنا أو مقرّنا هذا عن الخطّ الأول أكثر من خمسين متراً، وقد تعمّدنا ذلك تشجيعاً للجند وللمتطوعة، بينما تؤكد التعاليم الحربية وأنظمتها أن يكون مقرّ قيادة الفرقة، أو وزير الحربية إذا حضر المعركة، بعيداً عن خطّ النار المقدار الكافي، ولكن واجب التشجيع وقلة العدد والمعدات أجبرتنا على اختيار

هذا الموضع الخطر القريب. وأمرتُ من فوري أن توجه المدفعية نيرانها جميعاً على مدافع العدوّ الأربعة المكشوفة بشدّة، ولم تمض نصف ساعة على بدء المعركة، حتى كسرنا مدافعه الأربعة المذكورة، ولقد سُرَّ وزير الحربية أيمّا سرور لهذه النتيجة الباهرة، وكان يفقش بيده اليمنى من شدة سروره، ويقول: «برابو برابو». وكانت مدفعيتنا مؤلفة من عشرة مدافع عاملة وواحد في خط الجنود عند منعطف الطريق لضرب الدبابات، وآخر سريع على تلّ مرتفع خلف الجبهة لضرب الطيارات، ومدفعين صحراويين على تلّ يحكم منطقة التكية، ووراء الجبهة شمالاً، ومدفعاً بخان ميسلون مسلّط باستقامة دير العشائر للمحافظة على ميسلون.

ولقد حمي وطيس القتال في الجناح الأيسر بين الهجانة والخيالة المترجلة من جهة، وبين أفواج جنود السنغال. ولكن ويا للأسف أن الخيالة المتطوعة المائة والخمسة عشر عندما اقتربوا من الجبهة وسمعوا أزيز الرصاص بشدّة عادوا بخيلهم إلى دمشق، وأوصلتهم طائرات العدو قنابلها ونيران رشاشاتها بشدة، فأصيب منهم بضعة خيول، وكان تراجعهم سبباً لضعف معنويات الجنود المتطوعة القادمين من دمشق؛ حيث اعتقد الجميع أنّ الجبهة قد كُسرتْ وسقطتْ، ودبَّ الخوف في قلوبهم، وهكذا لم نستفدْ أبداً من المتطوعة الخيالة، وكان سبب ذلك عدم امتثالهم للأوامر المعطاة بترجّلهم وإبقاء خيولهم خلف القتال في مكان مستور حتى يحين أوان استعمالها في الهجوم والتعقّب.

جبهة الجناح الأيمن

أما الجناح الأيمن، وكان تحت إمرة قائد اللواء الثاني في جرد كفر يابوس، فلم يظهرْ منه أدنى حركة أو نشاط، ولم يُسمعْ منه صوت أيّ انفجار كان. وقد علمتُ من قائد الجناح المذكور فيما بعد، أنّ ما وعد به قائم مقام الزبداني، محمد بك الحلبي، من وجود ألف ومائة مسلح من قضائه من الأهليين، وخمسمائة مسلّح من جماعة ملحم قاسم لم يتحقق منه شيء ما، وأنه ذهب بقوته المرسلة معه فقط مع القائم مقام وبضعة أشخاص من الأهالي فقط، إلى أن وصلوا إلى قرية

قريبة من الجرد، حيث رجع القائم مقام مع رجاله، وتابع هو وجنوده مسيرهم إلى المكان الذي أُمر أن يدافع منه، حيث تفقد ضابط المدفعية الملازم خالد نصري فلم يجده، ولمّا كانت مدفعيته مفكّكة لم يستطعْ تركيبها لتغيّب ضابط المدفعية أو فراره، ولولا خيانة هذا الضابط لاستطاع الجناح الأيمن أن يعمل عملاً حسناً وأن يربك العدو لأن موقعه كان حاكماً على معسكر العدو.

أما تأخر القوات التي وعد بها قائم مقام الزبداني، محمد بك الحلبي، فقد استغربتها كثيراً لأنني أعلم بأن محمد بك الحلبي رجل غيّور يفهم الجندية لأنه ناشىء ضابط عشائر من مدرسة الحربية بالأستانة، وهو حتماً يفي بوعده، فسألته بعد وقعة ميسلون ببضعة شهور عن سبب التأخر، فقال: «جماعة ملحم قاسم أخلفوا ما وعدوني به لأمر لا أعلمه حتى الآن، أما أهالي الزبداني فقالوا إنهم يريدون المدافعة عن بلدهم، ويخافوا إن خرجوا للجرد أن تداهم الزبداني قوة من العدو بدلالة أولاد الشماط من سرغايا وتستولي عليهم، لذلك فضّلوا البقاء متيقظين بالزبداني لدفع الشر عنها». ولذلك ظهر أنّ القائم مقام لم يخلف بما وعد، ولا بدّ أنه قد دخل بين أهالي الزبداني من حوّلهم عن قرارهم الأول، وهم بعض أذناب الفرنسيين قاتلهم الله.

ويقول قائد اللواء الثاني في تقريره الحربيّ أيضاً، إنّ عصابة توفيق الشمّاط ظهرت عليه من القرية المجاورة، وشُغِلَ بمحاربتها، ولم يبقَ معه من قوته إلا أربعون جندياً فقط، ويقول كذلك أنهَ ظهر اليوم الثاني – أي يوم المعركة – حضر ضابط المدفعية الملازم خالد نصري، وركب المدافع، ورمى بها الجديدة بضعة طلقات، وأنه عند العصر وصلهم خبر بأن جبهة ميسلون قد انسحبت، فترك المدفعية لضابطها كي يفكّكها ويحملها ويلحقه، ورجع مع جنوده الباقين ورشاشاته إلى الزبداني، ومنها إلى معربة حيث وضع الرشاشات أمانة عند أهلها وعاد إلى دمشق بعد دخول الفرنسيين بيوم، وعُلم أخيراً أن الملازم خالد نصري أخذ بغال المدفعية لنفسه، وأعلم الفرنسيين بعد دخولهم عن مكان المدافع، وذهب معهم وسلّمهم إياها، فكافؤوه باستخدامه عندهم، ولا أعلم أين هو اليوم.

جـبـهــة الـقــلــب

أما جبهة القلب، فبعد أن كسرت مدافع العدو الأربعة المذكورة سابقاً، ثابرتْ على القتال بشدة لإسكات مدافعه ورشاشاته، وحوالي الساعة التاسعة والنصف، ظهرتْ علينا من فم وادي القرن أربع دبابات، فرميناها بالمدافع وكسرنا الأخير، وتقدمت الثلاثة الباقية، وعندها التفت إليّ يوسف بك، وقال: «لقد اقتربت الدبابات الثلاث ولم تُصب»، فأجبته: «إنّ لدينا ألغاماً ثلاثة متتابعة ستكون لها بالمرصاد». غير أننا خاب ظنّنا عندما اقتربت من الجسر، ومرت عليه ولم ينسف، وأخذنا نعلّل النفس بأنّ الألغام الباقية ستعمل مفعولها، وأنه ربما طرأ على أشرطة اللغم الأول عُطل ما بسبب مدفعية العدو التي كانت تمطرنا بشدة بوابل من قنابلها، ولكنّ الدبابات اجتازت موضع اللغم الثاني ولم يطلق، فاغتاظ وزير الحربية، وأخرج مسدسه، واتجه نحو خطّ القتال ليقتل ضابط الاستحكام الذي قصّر بواجبه، ورجوته أن يترك هذا لنا وأن يبقى في مكانه، وأمسكته من يده التي كانت تحمل مسدسه موجّهاً إياه إلى دماغه، وأقسم أن سينتحر إن لم أتركه، وانقلبت عيناه مثل الجمر، فتركته.

استشهاد وزير الحربية يوسف بك العظمة

ونزل باتجاه مكان الألغام، ولقد انفجر اللغم الثالث لدى حركته، حيث كان يصيح بصوت عال شاتماً ضابط الاستحكام، فأحدث اللغم الثالث حفرة بعمق نصف متر لأنه أصغر الألغام، وكان انفجاره قبل وصول الدبابات لفوقه بثلاثة أمتار، ومع هذا فقد تجنّبت الدبابات الحفرة، وأدارتْ لنا جنبها، ووقفت بنظام النسق، وبدأت ترمينا بمدافع النورد الفلذ الصغيرة المجهزة بها، وقطر مرماها ثلاثة سنتيمترات تقريباً. ولما انفجر اللغم الثالث لم يتابع وزير الحربية سيره إلى جهة ضابط الاستحكام، فانعطف إلى جانب الطريق حيث يوجد المدفع الجبلي السريع، وعند صوله لموضع المدفع أمر النائب، الذي كان لوحده على المدفع المذكور، أن يوجّه المدفع على الدبابات ويرميهم مباشرة، والمسافة بينه وبين الدبابات المذكورة لا تزيد عن الخمسين متراً، ووقف، رحمه اللّه، مشيراً بيده إلى الدّبابات وهو يقول «ارمِ هذه»، ولكن المنيّة عاجلته حيث

وجهت الدبابات نيران رشاشاتها عليه، فأصيب بصدره ورأسه، وخرّ، رحمه الله، صريعاً شهيد الإخلاص والواجب. كما أصيب نائب المدفع وخرّ شهيداً إلى جانبه، وكان، رحمه الله، عند سقوطه سند ظهره للمحرس وأدار وجه نحوي وفيه بقية من الحياة والدم يتدفق من فمه، فحالاً أمرت الصدَّاح (المبوق)، النائب محمد الترك، أن يذهب بسيارتي ليأخذ وزير الحربية قبل أن يصل إليه العدوّ، ولما أرادت السيارة أن تدور، أصابتها قنبلة مدفع أطارت بابيها الخلفيين، وعاد سائقها ولم يتمكن من أخذ الوزير الذي أمال رأسه وسقط مسلّماً روحه الطاهرة، وحضر الصداح وأبلغني ما حصل للسيارة، فأمرته أن يأمر السائق أن يحمل عليها الجرحى الذين هم بحاجة إلى عمليات جراحية، وأن يذهب بهم إلى دمشق فيوصلهم إلى المستشفى، ويصلح السيارة، ومن ثمّ يعود إلينا، فذهب ولم يعد. ولكنه أعلمني بعد الحرب أنه صادف أثناء ذهابه في سهل الديماس نوري باشا السعيد، وقد أوقفه وسأله عني وعن يوسف بك، فأخبره بما حدث، ولكنه أخذ منه البندقيات الأربع المربوطة على السيارة، وأفرغ ما في حقيبتي الباقية في السيارة من أوراق وأوامر عسكرية في بطانية من بطانياتي، وأعاد إليه المحفظة فارغه، وأمره بمواصلة سيره.

وبعد ذلك بسنيتين جمعتني الظروف بمعالي نوري باشا، عندما حضر مرة لشرق الأردن، وكنت إذ ذاك مستشاراً خاصاً لسموّ الأمير عبد الله، فسألت معاليه عن المحفظة وعمّا قاله السائق المدعو صبري، فلم يخطر بباله تفاصيل الحادث، وربما فعل ذلك حرصاً على ضياع البندقيات أو وقوع الأوامر في يد الأعداء أو بعض الخونة من أعوانهم. وبعد استشهاد الوزير، رحمه الله، تقدمت إحدى الدبابات مخترقة خطّ القتال الأول، فتراجع بعض الجنود الذين على حافتي الطريق، غير أنني أرسلت إليهم بعض من كان بقربي من الضباط، وبينهم الملازم منيب الطرابلسي، فذهبوا شاهرين مسدّساتهم، وأعادوهم إلى الجبهة، والدبابة رجعت فارغة ورجعوا لي.

ومن ثمّ تقدمت مشاة العدوّ من فم وادي القرن مندفعة كالسيل، واستعرت نيران معركة جديدة وشديدة بيننا وبينها حتى الساعة الثانية عشرة والنصف، حيث سقطت قنبلة مدفع من عيار 5, 15 سنتيمتر أمام مقرّ القيادة ببضع خطوات،

وأصاب ظرفها (أي القوان) بعرضه ساق رجلي اليمنى، وبقيت نصف ساعة على أثرها لا أعي ولا أحسّ برجلي.

بسالة نائب عربيّ سوريّ

وفي أثناء احتدام المعركة، تقدّمت سرية للعدوّ تقدر بمائة وخمسين جندياً مع قائدها باستقامة رابية عالية على جانب الطريق وجنوبه، وكان يحمي هذه الرابية نائب مع ثلاثة من جنودنا النظاميين، فأصلى هؤلاء الجنود البواسل جند سرية العدوّ المتقدمة ناراً حامية بمعاونة رشاشة كانت قريبة من الرابية المذكورة، ولم يصلْ من سرية العدوّ المهاجمة إلى قمة الرابية إلا عشرون جندياً فقط مع قائدهم، وكان برتبة رئيس (كابتن)، وقد أشهر مسدسه على النائب الذي بقي من جندَنا حيّاً، لأن الاثنين من رفقائه استشهدا إلى قربه، وبقي الثالث جريحاً يعاني ألم إصابته، وطلب الضابط الفرنسي من النائب السوري أن يستسلم وإلا قتله، فما كان من النائب الباسل الجريء إلا أن رمى الكابتن فجرحه، وهجم عليه وطعنه بحربته المركّبة على بندقيته في صدره، ورماه على الأرض يتخبّط بدمه، وهجم على جنده العشرين الفرنسيين الباقين وتعقّبهم وهم يفرّون أمامه بحربته، وردّهم منهزمين إلى الوادي، وعاد إلى الرئيس (الكابتن) الفرنسي الذي كاد يُصعق لرؤيته، ولكنه هدأ روعه وسقاه ماء وحمله إلى مكان أمين خلف الرابية. وهكذا سجل هذا النائب العربي صفحةً خالدةً من الشجاعة والشهامة العربية يخلّدها التاريخ العربي بمدادٍ من نور، لاسيما وقد تمكّن من عدوه وهو بمفرده، ولم يُمثّل به أو يصبه بسوء.

وقد أكّد لي هذه الحادثة أيضاً قادم من بيروت في اليوم الثاني للمعركة إذ يقول: «عند وصولي إلى محطة رياق، رأيتُ هذا الضابط الفرنسي وهو جريح محمول على السدية، وكان يقصّ على إخوانه الفرنسيين قصّته مع هذا النائب السوري العربي الباسل، فأثنى على مروءة العرب وقال: إن النائب أحسن إليّ فسقاني وحملني إلى مكان أمين خلف الرابية إلخ...، وقال: حرام، بل وألف عار على فرنسا أن تحارب شعباً كريماً نبيلاً ينجب مثل هذا الجندي الشريف الباسل الشجاع» وراوي قصة هو من أسرة كريمة في دمشق تُتقن اللغة الفرنسية.

جبهة الجناح الأيسر تهاجم

حاربتْ جبهة الجناح الأيسر بشدة وبسالة، وهزمتْ ثلاثة أفواج من السنغال، وقتلتْ عدداً كبيراً منهم، ومنعتْ العدوّ من التقدم حتى الساعة الثانية عشرة، حيث حرض الهجانة من جماعة نسيب أبو داود صاحب حلوة الذي كان حضر مع خمسين من رجاله المسلحين، ومعه توفيق العريان وجماعته أيضاً، وكانوا قد قعدوا على رابية من التلال الجنوبية القريبة من خط دفاع الهجانة، وأخذوا يشجّعون الهجانة ليكرّوا هاجمين على السنغال بقولهم: «يا نشاما، يا ولد، على هؤلاء، يا ذبحان أسود، هاجموهم، نحن نحمي ظهوركم». فتحمّس الهجانة وخالفت أمر القيادة بالدفاع المطلق لقلة عددهم، وهجموا على أفواج السنغال بالسلاح الأبيض.

تصدّع الجبهة اليسرى

ولكنهم أصبحوا، ويا للأسف، بين نارين؛ نار العدوّ، ونار أعوانه الخونة نسيب أبو داود وتوفيق العريان وجماعتهما الذين قعدوا خلف الهجانة وأصلوهم ناراً حامية، وقتلوا منهم كثيراً، ورموا الهجن المعقولة بالرصاص فنفّروها، وتصدعت الجبهة اليسرى، وتعقبتهم خيالة العدو التي كانت تزيد على الثلاثة آلاف، وأصبحت أمام دير العشائر ساعية لقطع خط الرجعة علينا من قلب الجبهة. وفي تلك الأثناء انقطعت الصلة الهاتفية بيننا وبين دمشق وبين المراكز لأن بعض الخونة قطع أسلاكها، كما ظهر لي فيما بعد، وأخذ هؤلاء يحرّضون المتطوعة وبقية الجند النظامي على الانسحاب وأخذ كلّ ما صادفوه من خيول الضباط وبغال المدفعية والعتاد.

الانسحاب

فعندما شاهدتُ هذه السلسة من الحوادث المؤلمة، وأدركتُ أننا معرّضون للإحاطة حتماً، قرّرت الانسحاب بصورة تدريجية؛ لاسيما وقد تأكدت أن الفرنسيين كانوا يعاملون من يقع في أيديهم من جندنا ومتطوعين معاملة الأشقياء

وقطاع الطرق، فيجهون عليهم، ولا يعاملونهم معاملة الأسرى في الأمم المحاربة للشرعية. لذا رأيت أنّ واجبي العسكري يأمرني بالتخلص من إحاطة العدوّ التي بدأت فعلاً من الجناح الأيسر وبكل سرعة، وبلّغت قائدَي لواء المشاة والمدفعية ذلك، وكان إلى جانبي الأستاذ الشيخ صلاح الزعيم، فطلبتُ منه أن ينصح الجند ويحضّهم على الثبات بما أوتي من حجة دينية وبلاغة، وذهبت ساعياً لاختيار موضع خلفي ننسحب إليه، ولكني لم أجد خلفنا خيلاً ولا جنداً. وأعلمني مراسل الجندي عبد القادر الغزاوي أن الخونة نهبوا الخيل والبغال، وأنه دافع عن حصاني وحصان مرافقي وملحقي بكلّ جهدٍ وقوة، وأنه لو توانى لأخذوهم منه.

وعند وصولي إلى التلّ الذي وضعنا عليه المدفع المتخذ كمضاد للطائرات، رأيت ما ينوف عن مئة متطوع مسلّحين، ولمّا طلبت إليهم الصعود إلى التلّ لسحب إخوانهم بمساعدتهم ما كان منهم إلا أن رموني برصاصهم بشدّة، وسلّمني المولى عزّ وجلّ منها، وأُصيب عرف حصاني، فصعدتُ إلى قمة التل المذكور مع مرافقي والملحق الملازم محمد سيف وثلاثة من المتطوعين فقط، والباقين فرّوا باستقامة التكية. فرأيتُ من قمة التل أن الجبهة اليسرى متفرقة، وقد انسحب منها من بقي حيّاً وبصورة غير منتظمة، وكانت خيالة العدو تتقدم نحو خان ميسلون لإحاطتنا، وأدركتُ أن بقاء قواتنا الضئيلة الباقية في عقبة الطين أصبح خطراً جداً، فحالاً أمرت مرافقي حسني بك البحرة أن يبلّغ قواد الألوية ضرورة الانسحاب إلى الخطّ الثاني، وذهبتُ بنفسي إلى المدفعين الذين وضعتهما في مكان يحكم محطة التكية، ويشرف عليها، وأمرت الضابط المدفعي الذي كان على رأس هذين المدفعين بأن ينسحب حالاً إلى الخط الثاني الذي هو في آخر سهل الديماس، فقال: «وإذا لم أجد أحداً في الخط الثاني ما أفعل؟» فقلت له: «تتابع عندها الانسحاب إلى دمشق». وعدتُ إلى التل المشرف على المعركة لأشرف على الانسحاب، ووصل آنئذٍ أركان حرب المقدم الركن محي الدين بك الحيان، ومعه علم الفرقة المثلث، وأربعة خيالة، وأعلمني أنه بقي إلى اليوم في دمشق لإنجاز أمور الفرقة، وأن خيالة العدوّ كادت تقضي عليه في الطريق، وأن الرجوع عن طريق خان ميسلون أصبح مستحيلاً.

فبعد أن اطمأننتُ على بدء الانسحاب واستمراره، تراجعنا فعلاً من الجبال لنصل للخط الثاني لإيقاف واستقبال المنسحبين إليه، فلحقتنا طائرات العدوّ، فرميناها فابتعدت عنا. وعند وصولنا إلى قرية الديماس رأيت نايف الشعلان، وكان قد حَضَرَ مع بدوه لمساعدتنا، يرابط على الطريق ويأخذ بنادق الجند العائدين ويقتل كل من لا يسلّم بندقيته. ورأيتُ الطائرة الفرنسية التي أسقطها مدفع الطيارة بمعرفة الملازم حمزة المدفعي أمام الصبورة في مزرعة السادة آل الحسيبي.

خـطّ الدفاع الثاني

ومن ثم توجهنا تواً إلى جديدة الهامة، ومنها إلى آخر سهل الديماس، حيث كان مقرّراً تأسيس الخط الثاني، فلم نجد فيه أحداً، لا تحكيمات ولا ما يحزنون، غير محفار متروك بسترة محفورة بعمق نصف متر، وبطول عشرة أمتار فقط، رغم أنّ قائد دمشق، السيد ياسين باشا الهاشمي، كان تعهّد بتأسيس الخطّ الثاني وإشغاله بالمدفعية والمشاة التي بقيت تحت إمرة الوزارة بدمشق. وكان فخامة الهاشمي قد عهد بتحضيره وحفره إلى العقيد الركن لطفي بك الرفاعي الذي صرّح لي أخيراً بأنه لم تعطَ له الوسائط ولا العدد ولا القوة اللازمة لذلك، وكان هذا لنا خيبة أمل عظيمة، ورأينا بجوار الموضع سلّماً منصوباً على عامود التلغراف والهاتف، وقد قُطّعت كافة أسلاكه. وفهمتُ أخيراً أنّ الذي فعل ذلك هو الجاسوس الخائن هاشم القباني، والذي أتى من لبنان مع عشرين آخرين من أعوانه باسم متطوع، واشتبهنا بأمره وأرسلناه مخفوراً إلى دمشق حيث أطلق سراحه، ومن ثمّ فعل خيانته هذه تحقيقاً لرغبة أسياده الفرنسيين، فاستحقّ لعنة الله والعرب إلى يوم الدين.

ومن ثمّ تابعنا سيرنا إلى الهامة، حيث وجدنا سيارتين كان فيهما ياسين باشا الهاشمي، ونوري باشا السعيد، وبعض رجال البلاط، فهنأني الهاشمي بالسلامة، وسألني مستوضحاً عن حقيقة استشهاد يوسف، وقال: «إني أراك تعباً منهوك القوى»، فأخبرته بتعبي وتأثري الدائم طيلة العشرة أيام الأخيرة، فقال: أعطنا

المعلومات اللازمة عن المعركة لنقدمها لجلالة الملك في الكسوة، وأنت اذهب لتنال قسطك من الراحة والمعالجة الضرورية في دمشق، فسألته: «هل أحضرتم لنا قطاراً لننسحب إلى درعا مع بقية قواتنا؟»، فضحك وأجابني: «لا لزوم للقطار، بل حاولوا أن تنسحبوا إلى جبهة القنيطرة حيث الأمير الفاعور»، فأجبته بأنّ ما بقي لدينا من الجند لا يعادل أكثر من جندي لكلّ مدفع وهذا لا يكفي، ولا بدّ من قطار ينقلنا، وأحسن الوجهات هي درعا.

فكرة التفاهم لا تزال

ومن الغريب المؤسف أنّ فكرة إمكان التفاهم مع الفرنسيين كانت لا تزال لديهم بعد هذه السلسلة الطويلة من الخيانات والغَدر؛ حيث أجابني بأنهم سيرسلون وفداً للتفاهم مع الفرنسيين والتصالح معهم، ومن ثمّ ذهب إلى الكسوة وتابعنا نحن مسيرنا نحو دمشق، فصادفنا بعد قليل العقيد أمين بك مدور، رئيس إدارة الفرقة الأولى، قادماً من دمشق، ووجهته ميسلون، ومعه بضع عجلات محمّلة بالأرزاق، فأعلمته بما حدث وقفل راجِعاً معنا. ولدى وصولنا إلى الشادروان رأينا تبادل الرصاص بشدّة بين المتطوعين العائدين وفصيل من الفوج الثاني المتروك في دمشق لأمر الوزارة، وكانت هنالك أيضاً رشاشة موضوعة قرب مقص القطار في البناء، فدخلتُ بين الفريقين وطلبتُ إليهم قطع النار، فقطعوها، وطلبتُ قائد الفصيل، فإذا هو الملازم لطفي، فسألته: «لماذا فعل ذلك؟ وبأمر من؟» فأجاب بأنّ نوري باشا السعيد أمره ألّا يسمح لأحد بالعودة، فأجبته بأن الواجب الحربي كان يقضي بتوقيف الجند والمتطوعين العائدين عند الخطّ الثاني، وبعد أن يكون قد أعد وحفر من قبل، لا هنا في الوادي، وأمرته بأن يسحب فصيلة مع المتطوعين إلى الثكنة الحميدية، وينتظر هناك الأوامر الجديدة.

المضحك المبكي

وآنئذ شاهدتُ قطاراً قادماً من دمشق، وعليه فريق من المتطوعين، فأوقفته عند المقص، وسألت مأمور السوق عن عدد القوة المرسلة معه على القطار، فأجاب

خمسمائة متطوّع عُزّل من دون سلاح، بينهم خمسة عشر جندياً مسلحين، وكانت وجهتهم التكية. ومن الطريف المضحك المبكي أن بعضهم كان يحمل نراجيل أو عصي وسلل، والبعض القليل سيوفاً، ولو تابع هذا الجمع سيره بالقطار إلى التكية لكانت كارثة أكيدة لأن العدوّ كان قد تجاوز المحطة المذكورة واحتلّها، فأمرت القطار بالعودة حالاً إلى دمشق.

هل ندافع في درعا؟

وتابعتُ سيري حتى وصلت إلى مفرق كيوان، حيث بدأتْ تنتابني حمى ورعشة شديدة، فطلبت من رئيس أركان الفرقة (وكانت عودته من دمشق حديثة، إذ أنه لم يشترك في المعركة، وكان بمركز القيادة بدمشق) أن يعدّ لنا قطاراً ينقلنا مع جميع من بقي لدينا من جنود ومتطوعة ومدافع ومعدات إلى درعا، حيث فكّرتُ بإعادة تنظيم قواتنا ودفاعنا فيها، وإعادة الكرّة على العدوّ إذا وفق الله، وأخبرته بأنني ذاهب من مفرق كيوان إلى منزلي في حيّ عرنوس لأتناول مسهلاً وبعض ما يمكن تداركه من علاج لمرضي، ولأنال ولو قسطاً زهيداً من الراحة والنوم، وطلبتُ إلى مُرافقي ومُلحقي أن يستريحا كذلك حتى الغروب في منزليهما، وكانا مرهقين تعبين يشاركاني في كلّ حركاتي وأعمالي، وطلبت منهما أن يوافياني مساءً إلى المَحطة، وأمرت الرئيس طه المدفعي والملازم المدفعي عبد القادر العراقي اللذين وجدتهما في الشادروان أن يجمعوا المدافع أمام ثكنة المدفعية (في الجنجانة)، وينتظروا أوامر رئيس الفرقة الذي كلّفته بتحضير القطار ليؤمّن نقلهم مع مدافعهم ومهماتهم بالقطار معنا إلى درعا. وعند وصولي إلى داري أمرتُ مراسلي بأخذ الخيل إلى الشاغور لعند والدي لتستريح ويعطى لها العلف، ويذهب بعدها للمحطة وينتظر إعداد القطار، ومتى أُعدّ حالاً يأتيني بالخيل إلى منزلي لأركب وأذهب إلى المحطة، ونذهب إلى درعا بالقطار، واستلقيت بمنزلي ساعتين بعد تناولي المسهل وبضع حبات من الكينين.

ميسلون: نهاية عهد
مذكرات صبحي العمري
لندن 1991

ويبدو أنّ تسريح الجيش لم يُقنعْ غورو بالعدول عن قراره باحتلال دمشق والقضاء على الحكم العربي الفيصلي في داخل سورية، فكان يبحث عن المبررات ليجدها تارةً في التأخر بالإجابة على قبول الإنذار في المدة المحددة، وتارة أخرى في عدم إمكان إيقاف زحف الجيش بعد أن باشر به، أو بعدم صلاح المواقع التي وصل إليها الجيش لتأمين إعاشته. وهكذا استمرّ الجيش الفرنسي بالزحف على دمشق.

كنا ذكرنا بأنّ الأحوال بين فرنسا والحكومة العربية قد بدأت بالتوتر منذ أوائل شهر آذار 1920، عندما أبلغ رئيس وزراء فرنسا المسيو ملران الملك فيصل أنّ مجلس الحلفاء قد قرّر وضع سورية تحت الانتداب الفرنسي، مما سبّب قيام مظاهرات عنيفة تنادي بسقوط الانتداب وبالحرب. استقالت بعدها وزارة الركابي وتشكّلت وزارة جديدة برئاسة هاشم الأتاسي، وتشكّلت معها لجان شعبية باسم «لجنة الدفاع» في جميع المدن، هدفها جمع الأسلحة والمتطوعين والأموال من أجل الدفاع. وأثناء هذه الأحوال المتوترة والصيحات المنادية بالحرب، وعدم الاستسلام لمطالب الفرنسيين، كانت وزارة الدفاع تتخذ الترتيبات وتهيئ الخطط التي تراها ملائمة للدفاع. وكان الجيش العربي يتشكّل من ثلاث فرق كلّ فرقة من لواء وخيالة يضمّ ثلاث سرايا فرسان وسرية هندسة وسرية مخابرة (إشارة) وسرية نقل وسرية مقر، ولواء المشاة يضمّ ثلاثة أفواج ويضمّ الفوج ثلاث سرايا مشاة وسرية رشاش وفصيلي مخابرة ونقل، وتشكل كلّ سرية من ثلاثة فصائل مشاة ومقرّ، ويتشكل الفصيل من ثلاث جماعات كلّ جماعة من ثمانية جنود

وضابط صف يقودهم ضابط برتبة ملازم. أما لواء المدفعية فيضم كتيبتين تتألف من بطاريتين ما عدا كتيبتي الفرقة الأولى، فكانت تتألف الواحدة منها من ثلاث بطاريات، والبطارية تتألف من مدفعين من عيار 5, 7 أو 5, 10 مم.

وكانت القيادة العامة للجيش ممثلة قبل إعلان الاستقلال (برئيس ديوان الشورى الحربي) وبعد ذلك وعندما تشكلت هيئة الحكومة باسم وزراء أصبح القائد العام هو وزير الحربية، تعاونه هيئة أركان يرأسها العقيد أحمد اللحّام تتألف من شعب: الحركات (العمليات)، الاستخبارات (المخابرات)، التسليح، التموين والإدارة.

وكان الجيش موزعاً على ثلاث مناطق على الوجه الآتي:

الفرقة الأولى

مقرّها دمشق تتبعها من الشمال حمص وتنتشر جنوباً حتى شيخ مسكين. ويرأس هذه الفرقة العقيد تحسين الفقير.

الفرقة الثانية

وهي الفرقة التي تشكلت من بقايا جيش الثورة العربية الذي جرى إلغاؤه. مقرّها درعا، وتشمل حدودها من شيخ مسكين شمالاً حتى معان جنوباً وغرباً فلسطين، قائدها العقيد اسماعيل الصفار (عراقي).

الفرقة الثالثة

مقرّها حلب، وقد تشكلت عقب دخول جيش الثورة العربي إلى حلب في أعقاب الجيش التركي المنسحب. تشكّلت في حينها من بعض أفواج مشاة مضافة إلى لواء الهجانة من جيش الثورة الذي تحوّل إلى لواء خيالة باسم لواء الفتح، وتشمل حدودها شرقاً العراق، وشمالاً طرابلس، وغرباً الأراضي الساحلية التي تحت الاحتلال الفرنسي، ومن الجنوب حماه، وكانت بقيادة العقيد محمد اسماعيل الطباخ.

إذا حسبنا موجود هذه الفرق الثلاث حسب الملاك الذي مرّ ذكره، فيجب أن لا يقلّ تعدادها عن خمسة وعشرين ألف جندي. بينما لم يكن ذلك موجوداً في الجيش برمّته أكثر من ثمانمائة ضابط وستمائة وتسعة وثمانين ضابط صفّ وأربعة آلاف وسبعمائة وأربعة وثلاثين جندياً. ونلاحظ أنّ هذا العدد الضئيل الذي كان معبئاً بثوب واسع فضفاض كان موزعاً في منطقة واسعة جداً لا تتناسب أبداً مع عدده، من دير الزور حتى معان.

ولمّا أصبحت الحرب بحكم الواقعة، قامت وزارة الدفاع ببعض الترتيبات؛ فجعلتْ من حمص وحماة قيادة خاصة أسندتها إلى المقدم يحيى حياتي، وجلبتْ من الفرقة الثانية بواقي لواء الخيالة (ستون خيالاً)، وبطارية من أربعة مدافع ووضعتهم بإمرة قائد الفرقة الأولى، كما شكّلتْ مراكز في المواقع الآتية:

يحفوفة: للدفاع عن وادي بردى إذا ما أراد الفرنسيون اجتيازه والتعاون عند اللزوم مع قوة مجدل عنجر

حاصبيا: قوتها فوج من اللواء الثالث مع مدفعين لستر الجناح الأيسر للقوة المدافعة في مجدل عنجر وتأمين قطنا.

القنيطرة: قوتها فوج من اللواء الثالث مع مدفعين لتنسيق قوة المتطوعين في هذه المنطقة وإعدادها للنجدة.

وبهذه الترتيبات مزّقت قوات الفرقة الأولى التي كان منوطاً بها أمر الدفاع عن العاصمة مخالفين بذلك أهم قاعدتين من قواعد الحرب في كلّ خطة حربية وهما: التجمع والاقتصاد بالقوة.

القوات العربية التي اشتركت في المعركة

ذكرنا الملاك النظري لقوات الجيش العربي ثم ذكرنا العدد الحقيقي كما كان عليه في تموز؛ أي قبل المعركة وهو (ستة آلاف ومائتان وثلاثة وعشرون) ضابطاً وجندياً، ولكن هذا العدد المأخوذ من وثيقة رسمية عرضها المقدم الركن شريف الحجار (رئيس شعب الإدارة) لم يكن العدد الحقيقي الذي اشترك في الموقعة،

فهذا العدد كان موزّعاً، كما ذكرنا، من دير الزور (وكان فيها سرية خيالة من فرقة حلب) حتى معان.

وكانت قطعات الفرقة الأولى في دمشق موزعة على مواقع: يحفوفة، الزبداني، القنيطرة، وحاصبيا. ولم يبقَ من هذه الفرقة لمواجهة القوة الفرنسية المتقدمة سوى فوجين من اللواء الأول. ولمّا صدر أمر التسريح ذاب هذان الفوجان، ولم يبقَ منهما سوى ثلاثة وخمسين جندياً. وهكذا لم يبقَ في ميسلون للوقوف بوجه العدوّ الزاحف سوى القوات الآتية:

فرقة خيالة بإمرتي، المسمّاة فوج الدرك الاحتياطي (مائة وخمسون خيالاً).

بواقي لواء الخيالة التابع للفرقة الأولى، وبواقي لواء الهاشمي.

الخيال التابع للفرقة الثانية بقيادة النقيب عزت الساطي: نحو مائة خيال ورشاشين.

لواء الهجانة الحجازي، وهو الحرس الخاص للملك فيصل بقيادة الشيخ مرزوق التخيمي (مقدم فخري) ثلاثمائة هجان.

سرية الحرس الملكي النظامية بقيادة النقيب محمد علي العجلوني ستون جندياً.

بواقي الفوجين الأول والثالث من اللواء الأول بقيادة المقدم حسن الهندي. كلّ فوج تتبعه سرية رشاش من ستة رشاشات مجموعهم ستة عشر ضابطاً ومائة وسبعة وثلاثون جندياً، ومائتان وتسعة وثلاثون متطوعاً منهم خمسة عشر دون سلاح.

الباقي من الفوج الأول من اللواء الثاني الذي ألحق باللواء الأول وأرسل إلى الزبداني للتعرض لجناح العدو الأيسر ستة عشر ضابطاً، ومائة وستون جندياً، ومائتان وستون متطوعاً منهم مائة وخمسون دون سلاح.

سرية الهندسة بقيادة النقيب تحسين العنبري.

مدفعية الفرقة بقيادة العقيد أحمد صدقي الكيلاني:

بطارية صحراء أربعة مدافع

بطارية ونصف مدافع جبلية عيار 7, 5 سم، ستة مدافع.

بطارية صحراء التحقت من فرقة درعا أربعة مدافع.

نصف بطارية أوبوس مدفعين.

وكان من الصعب معرفة حقيقة موجودات القطعات بعد صدور أوامر التسريح وبعد أن ترك عدد كبير من الضباط والجنود قطعاتهم، وتوجّهوا إلى دمشق بالرغم من الأمر اللاحق الذي صدر بالدفاع عن ميسلون. ولولا جدولان وجدناهما في مذكرات قائد اللواء الأول حسن الهندي يذكر فيهما موجود لوائه، والفوج الأول من اللواء الثاني الذي ألحق به مع من التحق فيهم من المتطوعين، لولا ذلك لما أمكن الحصول على مصدر يطمئن إليه في معرفة عدد المحاربين في يوم 24 تموز. أمّا عن قوة الخيالة والهجانة التي كانت تقاتل في الجناح الأيسر، فإنها كانت معروفة. فالهجانة والخيالة الذين كانوا بقيادتي، والذين لم يشملهم التسريح، فإنني كنت متأكداً من عددهم. أمّا الخيالة النظاميون من كلال اللواءين الأول والهاشمي مع رشاشين، فقد تأكدت من عددهم من النقيب عزت الساطي الذي كان يقودهم ومن الملازم عبد الله عطفة (وزير دفاع فيما بعد)، أمّا الخيالة الأهلية المتطوعة من دمشق وحواليها، فإنّ تعدادها غير معروف على الضبط، وقد ألحقوا به قبل المعركة بالقرب من خان ميسلون، فقدّرتهم بمئة خيال بعضهم يركب خيلاً، وبعضهم يركب الكدش والبعض يركب البغال.

قوة الجيش الفرنسي وتوزيعه

كانت الجيوش الفرنسية مشتبكة بقتال شديد على ثلاث جبهات: مع الأتراك في كليكيا، ومع صالح العلي في جبل العلوييّن، ومع ثورة ابراهيم هنانو التي كانت في بدايتها؛ فقرّرتْ أولاً، في سبيل الاحتفاظ بسورية، التنازل عن كليكيا للأتراك، وقامت ثانياً بالتظاهر باستعدادها لإعطاء صالح العلي جميع مطالبه، والتوصّل عن طريق ذلك إلى هدنة تتيح الاستفادة من قوتهم هناك. وكان الجيش الفرنسي في سورية قد أصبح مع القطعات التي سحبت من كليكيا، والتي أرسلت من فرنسا

ثلاث فرق. فبدأ الجنرال غورو بحشد قواته حسب الخطّة التي وضعها في باريس قبل مجيئه سورية؛ وهي أن يزحف على داخل سورية بثلاثة أرتال في آنٍ واحد على الوجه الآتي:

الرتل الأول

فرقة المشاة الثانية (ستة أفواج) ينطلق هذا الرتل من مركز تجمعه في موقع قطمه في الوقت المحدد للاستيلاء على مدينة حلب.

الرتل الثاني

فرقة المشاة الرابعة (سبعة أفواج) ينطلق هذا الرتل من مكان تجمعه في طرابلس الشام وتلّ كلخ في الوقت المحدد للاستيلاء على مدينة حمص.

الرتل الثالث

فرقة المشاة الثالثة بإمرة الجنرال غوابيه، تضمّ (اثني عشر فوجاً) وستّة كواكب خيالة وسبع بطاريات مدفعية (اثنان وأربعون مدفعاً) وسرية دبابات وأربعة أسراب طيران. يستولي ببعض قواته على موقعي المعلقة ومحطة رياق كخطوة أولى، ثم يزحف في الوقت المحدّد نحو العاصمة دمشق للاستيلاء عليها. ولأنّ هذه الفرقة (الثالثة) هي التي قامت بالزحف على دمشق، وقامت بمعركة ميسلون، فإننا نبين تفصيل عدد قواتها كما يلي:

1- اللواء السنغالي بإمرة الجنرال (بوردو) يتشكل من كتيبتين كلّ كتيبة من فوجين.

2- اللواء الثاني بإمرة الكولونيل (سوسلبيه) يتشكل من كتيبتين كل كتيبة من فوجين.

3- الكتيبة الصباحية الأولى بقيادة الليوتنان كلونيل (ماسيه) تضمّ أربع كوكبات (سرايا) خيالة وسرية رشاش.

4- كتيبة الخيالة المختلطة تضمّ الكوكبتين الأولى والثانية.

5- المدفعية بقيادة الكولونيل (ديكرين) وتضم:

بطارية ثقيلة عيار 155 مم ستة مدافع.

أربع بطاريات عيار 75 مم أربعة وعشرون مدفعاً.

بطاريتان ونصف عيار 65 مم أربعة عشر مدفعاً.

سرية دبابات: خمس عشرة دبابة.

رعيل رشاش محمل على سيارات أربع رشاشات.

6- سرية هندسة.

7- أربعة أسراب طائرات. (ثلاثة) أسراب قصف وسرب استطلاع، مجموعها (ثماني عشرة) طائرة.

8- كتيبة سيارات نقل تتشكّل من مائة سيارة.

وعدد هذه الفرقة لا يقلّ عن خمسة عشر ألفاً.

خطّة الجيش الفرنسي وتحركاته

كانت الخطة العامة للجيش الفرنسي، كما ذكرنا، مقرّرة منذ شهر حزيران 1920، واتفاقهم مع الإنكليز على انسحابهم من داخل سورية وحلول الجيش الفرنسي مكانهم. وما المفاوضات التي أجراها الجنرال غورو سوى مناورات سياسية لكسب الوقت وإكمال الوسائل. بدليل أنّ التحشيدات والتمارين على الحروب الجبلية التي ستجري على الأراضي المزمع إجراء الحركات عليها كانت تجري منذ أوائل شهر تموز، وأنّ حشد الأرتال الثلاثة، التي ذكرنا، أمر حشدها في قطمه وطرابلس وتل كلخ قد جرى قبل ذلك التاريخ.

وحديثنا الآن يقتصر على خطّة الرتل الثالث (الفرقة الثالثة) الموكل إليه الاستيلاء على العاصمة دمشق، والتي اشتبكت مع الجيش العربي في موقع ميسلون.

لقد كان أمام قائد الفرقة الجنرال غوابيه طريقان للاستيلاء على هدفه مدينة دمشق؛ الأول الذي يواكب الخط الحديدي من محطة رياق إلى دمشق، والثاني الطريق العام الذي يربط بيروت بدمشق. فالأول يساعده على سهولة تأمين احتياجات قطعاته ولكنه أطول ويمرّ في مناطق جبلية وعرة غير صالحة لعمل الدبابات ولا لتأثير الطائرات وإمكانات المناورة بينما تفسح في المجال أمام الخصم للقيام بمناوراته في كلا الجناحين ويبقى له مجال العمل على طريق دمشق – شتورة.

أمّا الطريق الثاني، فبالرغم من مروره بأربعة مضايق جبلية على جانب كبير من الخطورة، وهي مضايق وادي الحرير، وداي القرن، وادي ميسلون ووادي بردى؛ فإنه يصلح لمناورات جبهوية وجانبية من قبل الخيالة، كما أنّه يصلح في بعض أقسامه لسير الدبابات، وصالح لمسير سيارات النقل ذهاباً وإياباً في جميع أقسامه. كما أنّه يسيطر على الطريق الأول اعتباراً من نقطة اقترابه من محطة التكية حتى دمشق. وحينما يصل إلى مدخل سهل الديماس لا يعود هناك كبير أهمية لوادي بردى، ولا ضرورة لاجتيازه لدخول دمشق، حيث يصبح من السهل الاستيلاء على هضاب المزة المشرفة على دمشق التي تصبح حتى قبل الاستيلاء على تلك الهضاب تحت متناول المدفعية. مع ذلك فإن الجنرال غوابيه ما كان بإمكانه الاعتماد على قوته في اجتياز هذه المواقع القوية لو لم يكن يعتمد على ما كانوا قد هيّؤوه من عملاء ومخربين في المؤخرة، وعلى المناورات السياسية التي تسهّل له اجتياز المضيقين، وادي الحرير ووادي القرن سلماً دون قتال (كما وقع فعلاً). ولذلك قرر السير على الطريق الثاني.

وبدأ الجيش الفرنسي تمهيداته للزحف على دمشق؛ ففي 12 تموز احتل المعلقة ومحطة رياق، وقد أصبح القسم الأكبر من قطعاته في المريجات ومقدمته في شتورة واحتياطه في صوفر. وفي 14 تموز أرسل الجنرال غورو إنذاره إلى الملك فيصل. وفي الساعة الأولى من يوم 21 تموز شرع الجيش باجتياز سهل البقاع، واحتلّ موقع مجدل عنجر. كل ذلك وقع بسلام ودون أن يطلق رصاصة واحدة، لأن الحكومة العربية كانت قد قرّرت قبول شروط الإنذار وسرّحت الجيش وأمرت القطعات بالانسحاب إلى دمشق. ولم يجد الجيش الفرنسي أثناء زحفه سوى قطعة صغيرة

من الجنود في مجدل عنجر تحمي أثقال ومهمات القطعات المنسحبة إلى أن ترسل وسائط لنقلها، فجرّدتها من سلاحها وتركتها طليقة، وكانت الطائرات على اتصال مستمرّ بقائد الفرقة تخبره عن انسحاب الجيش العربي وإخلائه للمواقع، وصلت مقدمة الجيش إلى عين الجديدة بعد أن اجتازت وادي الحرير، كما وصلت الخيالة إلى منطقة ينطه المشرفة على ميسلون من الغرب، وفي الساعة الخامسة من بعد ظهر 21 تموز 1920 وصلت الفرقة بكاملها إلى المرتفعات التي تحدّ سهل الجديدة من الشرق وتسيطر على وادي القرن ووادي الزرزور، وبذلك وصلت الفرقة إلى هدفها الأول، فعسكر القسم الأكبر منها في عين الجديدة بعد أن اجتازت مقدمتها وادي القرن، وأشغلت المرتفعات المطلّة على وادي الزرزور وعقبة الطين، وأشغلت ميمنتها مرتفعات ينطه المطلة على عقبة الطين ووادي ميسلون.

وفي الساعة السادسة مساءً حاول رعيل الدبابات المرافق للمقدمة الخروج من وادي القرن، والدخول في وادي الزرزور، فقابلتها المدفعية العربية وأجبرتها على العودة بعد أن أصيب بعضها. وفي تلك الليلة وصل إلى مقرّ الفرقة وفد عربي يتمثل بوزير المعارف ساطع الحصري يرافقه المعتمد الفرنسي في دمشق الكولونيل نولا بطريقه إلى الجنرال غورو[12]. وتمكّن من إقناع الجنرال غوابيه بتوقيف الزحف لمدة أربع وعشرين ساعة بشرط أن تمنح الحكومة العربية الحقّ للقوات الفرنسية باستعمال الخطّ الحديد بين محطتي رياق والتكية من أجل التموين، فوافق المندوب العربي على ذلك واستمرّ بطريقه نحو بيروت.

موقف الجيش العربي وتحركاته

كانت القوات العربية المشكّلة من ثلاث فرق على الشكل الذي بينّاه آنفاً، ترابط كل فرقة منها في منطقتها. فالفرقة الأولى في دمشق، والثانية في درعا، والثالثة

12- ساطع الحصري (1879-1968)، مؤرّخ ومنظر قومي عربي أصله من حلب، أسّس وزارة المعارف السورية في عهد الملك فيصل، أولاً في سورية ومن ثم في العراق، وهو أحد مؤسّسي جامعة بغداد.

في حلب. ولم يشترك منها في معركة ميسلون سوى الفرقة الأولى، علاوة على بطارية من أربعة مدافع، ونحو ستين خيالاً نظامياً ألحقوا بها من الفرقة الثانية. ولذلك سيكون كلامنا عن حركات القطعات التي اشتركت في معركة ميسلون من هذه الفرقة.

لم يكن للجيش العربي خطة عسكرية مسبقة لمقابلة الجيش الفرنسي سوى الترتيبات المتخذة في بعض المواقع التي مرّ ذكرها. ولأنّ موقف الجيش العربي من الفرنسيين كان في الأصل موقفاً دفاعياً، وبما أنّ المُدافع يقوم عادة بتنظيم خططه بالنسبة لخطط خصمه المهاجم، فإنّه لم يكن كما ذكرنا للجيش العربي خطة، ولذلك كان قائد اللواء يحاول تبديل أوضاعه بالنسبة لحركات الفرنسيين ضمن فكرة دفاعية ضيّقة.

في شهر حزيران، وعندما أصبح الموقف متوتراً مع الفرنسيين، أمرت وزارة الدفاع بإرسال الفوج الأول من اللواء الأول إلى منطقة بعلبك وسهل البقاع. وفي أوائل تموز تلقى آمر اللواء الأول، المقدم حسن الهندي، أمراً من قيادة الرقة بأن يشغل بالفوج الثالث موقع مجدل عنجر (منطقة الجمرك اللبناني اليوم) ليؤسّس خطاً دفاعياً في مدخل وادي الحرير المشرف على سهل البقاع، وخيّم الفوج المذكور في تلك المنطقة، وبدأ بإنشاء خطّ دفاعي في مدخل وادي الحرير.

بعد ظهر يوم 20 تموز 1920، تلقّى آمر اللواء المذكور من قيادة الفرقة البرقية التلفونية الآتية: «المسألة حلّت صلحاً مع الفرنسيين، غداً صباحاً تحركوا إلى دمشق».

وحين وصل اللواء إلى جديدة يابوس مرّت من فوقهم طائرات فرنسية متجهة نحو الشرق تقوم باستطلاع الطريق نحو دمشق، ولمّا وصل الرتل إلى نهاية وادي القرن وصل أمر نقطة ميسلون وبُلّغ آمر اللواء أمراً وصله من وزارة الحربية مضمونه: «أنّ الفرنسيين حنثوا بوعدهم، وأنّ قواتهم تزحف خلفهم، وأنّه يجب وقف القطعات لتمنع تقدم الجيش الفرنسي». وبكلّ سرعة قام قائد اللواء

باستطلاع الأراضي من أعلى قمة تشرف على عقبة الطين، وقرّر الدفاع في الهضاب الشرقية المشرفة على الوادي وعلى مدخل وادي القرن، وأصدر أمراً أولياً مستعجلاً بلّغه إلى القطعات وهذا نصّه:

إلى قواد القطعات العائدة إلى دمشق

1- على القطعات المتوجّهة نحو دمشق أن تتوقف في عقبة الطية (غربي خان ميسلون) وتدخل تحت قيادتي.

2- لا يحوز لأحد قطعاً تجاوز خان ميسلون لجهة دمشق، ومن يتخطّى ذلك يطلق عليه الرصاص.

3- تنظيم القطعات حالاً وانتظار الأوامر.

قائد اللواء الأول

حسن الهندي

وبعد ذلك ذهب لاستطلاع الأرض تفصيلاً مستصحباً معه أمراء الوحدات. وعبّأ اللواء بأن جعل الفوج الأول يشغل المرتفعات المشرفة على مدخل واديي القرن والزرزور، وجعل الفوج الثالث مع سرية الاستحكام في الاحتياط. وفي الساعة الواحدة والنصف وصل من دمشق لواء المدفعية فوضع بطارية منه في وضع تمكّن منه من رمي وادي القرن وباقي البطاريات في مواضع مستورة ومناسبة خلف الخط الأول.

خطة انطلاق الجيش الفرنسي

وضع قائد الفرقة الثالثة الجنرال غوابيه المكلف بالاستيلاء على دمشق خطته على أساس المعلومات المتيسرة لديه عن وضع الجيش العربي المرابط في سهل البقاع. وحشد قطعاته في المواقع التي نوّهنا عنها منتظراً من القائد العام الجنرال غورو أمر الانطلاق وكانت خطته كما يلي: الاستيلاء على دمشق والقضاء على الحكومة العربية وذلك بالقضاء على مقاومة الجيش العربي.

الخطّـة

أ- التقدم عن طريق شتورة – مجدل عنجر – جديدة يابوس – ميسلون – دمشق، وطرد القوات العربية من المواقع التي تدافع عنها.

ب- الالتفاف على جناح العدو الأيسر.

التقدم

يجري التقدم من الجبهة برتلين، رتل أيمن ورتل أيسر:

أ- الرتل الأيسر: بقيادة الجنرال بورو، يتألف من:

- فوجي مشاة مغاربة.
- فوجي مشاة سنغال.
- نصف كوكبة فرسان.
- فصيل دبابات.
- بطاريتين عيار 75 مم وبطارية عيار 65 مم. المجموع ثمانية عشر مدفعاً.

يتقدّم هذا الرتل بقسمين على يمين ويسار طريق شتورة – دمشق.

القسم الأول

يسار الطريق: بإمرة الكولونيل أزراق، يتقدم من شتورة – برّ الياس – دير سمعان – كفر يابوس – ويفرز قطعة أمامية إلى مرتفعات قرمة البطرون.

القسم الثاني

يمين الطريق: يتقدم من المرج – مجدل عنجر – جديدة يابوس، ويفرز وحدة أمامية إلى مرتفعات قرية حلوة.

الرتل الأيمن: بقيادة الكولونيل تيري، ويتألف من:

- فوج مشاة مغاربة.
- فوج مشاة فرنسي.
- نصف بطارية 7, 5 مم.

يتقدّم هذا الرتل من : الخبارة – روكسي – مرتفعات أدوات، ويفرز وحدة أمامية إلى مرتفعات الكنيسة.

حركة الالتفاف: بقيادة الكولونيل ماسيب، وتتألف من اللواء الخيال السباهي المراكشي، يتحرك من منخفضات برّ الياس باتجاه جبّ جنين، يحمي الجناح الأيمن للأرتال المتقدمة ويبقى على اتصال برتل الكولونيل تيري، يتسلق مرتفعات يحفا ويراقب منها جب جنين وراشيا وميسلون.

رتل البقاع: بقيادة الكولونيل ربوكرو، ويتألف من:

- فوج مشاة سنغال.
- نصف بطارية مدافع.
- فصيل مصفحات.
- رعيل خيالة.

مهمته مراقبة خطي: رياق – حلب ورياق – دمشق.

الاحتياط: يحتفظ قائد الفرقة بقوة احتياطية تحت إمرته مباشرة تتألف من:

- فوج مشاة فرنسي.
- ثلاثة رعايل فرسان.
- نصف سرية هندسية.
- فصيل دبابات.

- بطارية مدفعية ثقيلة عيار 155 مم.
- الطيران.

كما وضع سرية مشاة واحدة في كل من محطات: عين صوفر، المريجات، سعد نايل ورياق.

التحركات

في صباح يوم 21 تموز 1920، تلقّت القطعات أمر الانطلاق والمباشرة بالحركة حسب الأوامر المسبقة التي صدرت إليهم. ولمّا وصلت المقدمة إلى جسر الليطاني، أخبرت القائد أنها وجدته سليماً وعلى ضفته قطعة صغيرة من الجيش العربي لم تقاومهم فأسروها واجتازوه. وهكذا استمرّ التقدّم وكانت باقي الجسور سليمة أيضاً. وبعد اجتياز مقرّ الفرقة لجسر الليطاني وصلت من القطعات الأمامية تقارير تفيد أنّ الجيش العربي المرابط في منطقة مجدل عنجر ينسحب نحو دمشق دون أن يطلق طلقة واحدة، وأنه لا توجد علائم تدلّ على المقاومة.

وعندما وصلت القطعات إلى موقع مجدل عنجر، وجدت به أثقال الجيش العربي، وعليها مفرزة صغيرة لحراستها، فجرّدتها من السلاح وتركت أفرادها طلقاء. وهكذا أصبح أول وأهمّ مانع أمام خطّ تقدم الجيش الفرنسي هو وادي الحرير مفتوحاً وأميناً دون صعوبة ودون أيّة مقاومة. فاجتمعت قطعات الجيش التي كانت منتشرة أفقاً وعمقاً بنظام المسير، واستمرّت بتقدمها على الطريق العام، ولم يبقَ منها منتشراً سوى الخيالة ورتل الكولونيل تيري، حيث حافظت على تقدّمها منتشرة حتى وصلتْ إلى الأهداف المعيّنة لها يوم 21 تموز، وتكامل وصول القطعات إلى موقع جديدة يابوس، وأرسلت قطعات حماية لوادي القرن الذي اجتازته قطعات الجيش العربي، وأصبح هذا المانع الثاني المهمّ جداً أيضاً مفتوحاً ومأموناً أمام زحف الجيش الفرنسي.

وفي المساء وصل إلى مقرّ الفرقة المعتمد الفرنسي في دمشق الكولونيل كوسي، وبلّغ الجنرال غوابيه قبول فيصل لشروط الإنذار وأنه أبرق بالقبول إلى الجنرال

غورو، وأنه لم يبقَ سبب لتقدم الجيش الفرنسي. فأجابه الجنرال أنه أُمر بالمسير إلى دمشق، وسيتابع سيره، وله أن يتابع سيره إلى بيروت لمقابلة الجنرال غورو.

وبعد عصر هذا اليوم، وصل إلى مقرّ الفرقة في جديدة يابوس ضابط عربي مُرسل من قبل قائد اللواء الأول المرابط في ميسلون (هو الملازم جميل البرهاني) لإبلاغ الجنرال عزم الجيش العربي على الدفاع فيما إذا تقدم الجيش الفرنسي من جديد نحو دمشق. فلم يقبل الجنرال مقابلته، وبلّغه أنه سوف يستمرّ في التقدم بصورة سلمية، وإذا مونع فسيستمرّ في تقدّمه بالقوة.

ويعود الكولونيل كوسي، الذي كان قد وعد الملك بالذهاب لمقابلة قائد الجيش من أجل توقيف زحفه، يعود ليخبره بعدم قبوله، ويقترح عليه إرسال أحد رجال الحكومة للتفاهم مع غورو في هذا الأمر، فيجمع مجلس الوزراء الذي كان منعقداً برئاسة الملك على إيفاد وزير المعارف ساطع الحصري للقيام بهذه المهمة، ويوافق الملك على هذا الاقتراح ويتوجّه ساطع الحصري مستصحباً معه مرافق الملك، المقدم جميل الألشي، يرافقهم المعتمد الفرنسي الكولونيل تولا، وأثناء ذلك يخبره وزير الدفاع يوسف العظمة أنه ذاهب إلى الجبهة ويرجوه أن يسعى لاكتسابه أكثر ما يمكن من الوقت من أجل إكمال تنظيم الجبهة. ويصل الحصري إلى جديدة يابوس، ويواجه قائد الفرقة الجنرال غوابيه، وكان معه رئيس أركان غورو، الكولونيل بتلا، وطلب إليه إيقاف الجيش إلى أن يتيسّر له مقابلة الجنرال غورو، فأجابه أنهم جنود لا يعلمون شيئاً من أمر السياسة، وقد تلقّوا أمراً بالزحف فزحفوا ولا يسعهم أن يتوقفوا عن مواصلة الزحف إلى أن قال: «ومع هذا إذ كنا مسؤولين عن الحركات، فإنه بوسعنا أن نعقد معكم هدنة لمدة أربع وعشرين ساعة على أساس قبول بعض الشروط:

أولاً- أن يعتبر الوادي الذي يمرّ من تحت سفوح ميسلون حداً فاصلاً بين الجيشين تنسحب الجيوش العربية إلى ما وراء هذا الوادي وتكتسب القطعات الفرنسية حرية الحركة في هذه الجبهة.

ثانياً- تنتقل المؤن التي تحتاج إليها الجيوش الفرنسية بواسطة سكة حديد رياق التكية».

فقبل الحصري ذلك وعاد إلى ميسلون ليجد فيها الأمير زيد ويوسف العظمة، وأبلغهما ما اتفق عليه فسُرّا لذلك سروراً كثيراً. وعاد الحصري إلى الجديدة ومنها واصل سيره نحو عاليه التي بلغها في 21 تموز، وقابل الجنرال غورو في مكتبه، وبعد أخذ وردّ، وإصرار غورو على استمرار زحف الجيش، قَبِلَ بهدنة الأربع والعشرين ساعة التي أعطاها الجنرال غوابيه، ولكنّه تقدّم بشروط جديدة قاسية مدّعياً أنها توضيح لشروط الإنذار، ولكن الحصري لم يرَ لنفسه صلاحية قبولها، وطلب مهلة جديدة تتيح له إيصالها إلى الملك، وحصل على مهلة أربع وعشرين ساعة أخرى تنتهي في منتصف ليل 23 تموز 1920. وعاد الحصري إلى دمشق بعد تأخير متعمّد من قبل الفرنسيين، وعرض على الملك جوّ المفاوضة التي أجراها مع غورو بحضور مجلس الوزراء، وبيّن لهم انطباعاته عن أن غورو مقرّر دخول دمشق، وأنه يتحرّى الحجج والوسائل التي تمكّنه من ذلك، وأن قبول شروطه الجديدة سوف لا يمنعه من إيجاد حجة جديدة. وأثناء ذلك وصل من غورو إلى الكولونيل كوسي برقية يطلب منه فيها إعلام الملك أنّ وضع الجيش الفرنسي يتطلّب منهم تعديل شروط الهدنة الأولى بالسماح للجيش الفرنسي بالانتقال من معسكره في الجديدة إلى خان ميسلون نفسه لإمكان تأمين حاجاته من المياه التي فيها، ومن الأرزاق عن طريق ميسلون – التكية، وكانت هذه البرقية نهاية التردّد الذي كان يسود المسؤولين ملكاً ووزراء، فقرّروا بالإجماع عدم القبول بالشروط الجديدة، وبذلك قرّروا الحرب، وعُمّم ذلك على قطعات الجيش وعلى الشعب، كما تقرّر أن تكتب برقيات استغاثة جديدة إلى جميع الدول، وأن يُدعى جميع قناصل الدول إلى اجتماع بغية إطلاعهم على تفاصيل الوضع. وعند الأصيل جاء المعتمد الفرنسي إلى كوسي يطلب الإجابة على الشروط، فسلّم له الجواب الذي جاء فيه ما يلي: «إننا نأبى الحرب، ولكن قبول الشروط الواردة في مذكرتكم الأخيرة يعرّضنا لا محالة إلى حرب أهلية، إننا مستعدّون لتنفيذ الإنذار المؤرّخ في 14 تموز بحذافيره. وقد نفّذنا إلى الآن أربعة من شروطه. إننا نتعهّد بشرفنا بتنفيذه بإخلاص، على أن ينسحب الجيش الفرنسي من الأماكن التي احتلها مؤخراً».

خطة المعركة

في مساء يوم 20 تموز 1920 كان القسم الأكبر من الجيش الفرنسي الزاحف خلف قطعات الجيش العربي قد اجتاز وادي الحرير، ووصل إلى موقع جديدة يابوس

وعسكر فيها، كما وصلت قطعاته الراكبة إلى مرتفعات ينطه ومقدمته اجتازت وادي القرن، ورابطت في مدخله الشرقي بعد أن اصطدمت دباباتها بقطعات الجيش العربي التي منعتها من الخروج منه. ومرّت ليلة 20 – 21 بمفاوضات سياسية تذهب وتعود خلالها الوفود بين الطريقين، حيث تمكنت أثناء ذلك من الحصول على هدنة أربع وعشرين ساعة يتوقف خلالها الجيش الفرنسي عن الزحف. وفي يوم 22 منه تمدّدت هذه الهدنة لأربع وعشرين ساعة أخرى، بحيث تنتهي في منتصف ليل 23 منه كما مرّ ذكره، وكانت القطعات العربية خلال ذلك مستمرّة في حفر الخنادق، وقد جاءها قطار مملوء بالمتطوعين المدنيين من أهالي دمشق وأطرافها، ومعهم سريّة الحرس الملكي بقيادة النقيب محمد علي العجلوني، وبرفقتهم بعض الجنود النظاميين الذين جرى تسريحهم ثمّ جمع بعضهم وجرى سوقهم إلى قطعاتهم، كما جرى من جهة ثانية تسلّل بعض الضباط والجنود وانسحابهم متوجّهين إلى دمشق.

وفي 23 منه أصبح الموقف واضحاً لكلا الطرفين؛ فالحكومة العربية رفضت شروط الفرنسيين الأخيرة وقرّرت الدفاع، والفرنسيون مقرّرون الزحف، إذا لم تقبل شروطهم، وهدنة الأربع والعشرين ساعة الأخيرة ستنتهي في منتصف هذه الليلة. إذاً فالمعركة ستنشب في صباح الغد الموافق 24 تموز. وكان كلّ طرف واقفاً على وضع الطرف الآخر؛ فالفرنسيون على علم بالخطوط التي يعمل الجيش العربي على تحكيمها في غربي عين ميسلون، والعرب على علم بالمواقع التي وصل إليها الجيش الفرنسي بقسمه الأكبر وقطعاته المتقدمة. ولذلك قام كل فريق منهما بتقرير خطته التي سيقابل بها خصمه في صباح يوم 24 منه.

- الخطّة الفرنسية

1- الاستيلاء على الخطّ الدفاعي الذي أقامه الجيش العربي على المرتفعات الغربية لعين ميسلون كهدف أول وبفتح الطريق أمام الجيش الفرنسي الزاحف نحو دمشق.

2- الهجوم على خطّ الدفاع في مرتفعات عقبة الطين المشرفة على وادي الزرزور ومخرج وادي القرن.

3- الالتفاف على جناح العدوّ الأيسر بقوسين الأول بواسطة المشاة المعززة بالمدفعية والثاني بواسطة الخيالة.

- **الواجبات**

1- سريتا مشاة وفصيل دبابات ونصف سرية هندسية يمين الطريق (مخرج وادي القرن – ميسلون).

2- فوج مشاة مغاربة مع بطارية 75 على يسار الطريق المذكور، على المرتفع يسار وادي الزرزور.

3- فوج سنغال مع نصف بطارية 65 على مرتفعات حلوة.

4- فوج مشاة مع بطارية يمين ويسار الطريق في مخرج الوادي.

5- فوج مشاة مع نصف بطارية 65 على مرتفعات الكنيسة.

6- بطارية 75 على شرق مخرج وادي القرن.

7- بطارية 155 غربي وادي القرن (أي في مدخله من جهة الجديدة).

8- لواء الخيالة المراكشي في منطقة الكنيسة.

9- سرية مشاة وسرية رشاش على مرتفعات قرية بطرونه.

10- فوج سنغال للمحافظة على الأثقال في الجديدة.

11- الاحتياط بقيادة الجنرال يورود من كوكبة فرسان، فوج مشاة فرنسي، فوج مشاة سنغالي، بطاريتين 75 في عين جديدة.

12- مركز القيادة المتقدم على مرتفعات البطرونة.

- **الطيـران**

1- يقوم باستكشاف عمليات الدفاع وحركات الجيش العربي.

2- يدعم المدفعية في مهماتها ويساعدها على تحرّي الأهداف غير المرئية لها.

3- قصف تجمعات العدوّ.

وبموجب ذلك توزّعت الأهداف والواجبات.

- الانطلاق

تقرّرت ساعة الانطلاق في الساعة الخامسة من صباح يوم 24 تموز 1920.

- خطّة الجيش العربي

لم تقرّر خطّة الجيش العربي بطريقتها الأصولية من قبل قائد القطعات المسؤول عن سير المعركة بعد أخذ رأي المختصين من أركان قيادته وقادة قطعاته، بل جرى تقريرها بصورة مرتبكة وشبه ارتجالية وبعيدة عن اعتبارات مبادئ الحرب الأساسية التي يجب على كلّ قائد مراعاتها عند تقريره الخطة، أكانت المعركة كبيرة أو صغيرة.

فأوّل ما صدر من أوامر الدفاع عن ميسلون هو الأمر السريع الذي صدر إلى آمر اللواء الأول المقدم حسن الهندي أثناء خروجه من وادي القرن متّجهاً إلى دمشق بأن بلّغه قائد نقطة ميسلون أمراً تلفونياً من وزارة الدفاع (وليس من قبل قائد فرقته الذي كان مفروضاً أن يكون في ميسلون لا بشوارع دمشق منهمكاً بتحميس الناس للحرب كما شاهدته بنفسي)، فعندما تلقّى آمر اللواء أمر التوقف عن التوجّه إلى دمشق والدفاع في ميسلون قام بواجبه على أحسن وجه، فاستطلع المنطقة، وقرّر خطوط الدفاع الأمامية والاحتياطية ومراكز المدفعية والترصّد، وكان موفقاً في قراره كل التوفيق بدليل أن تلك المواضع ساعدت على الصمود بعدد ضئيل جداً أمام قوات متفوقة تفوقاً كبيراً، وبدليل تحبيذ هذا الخطّ من قبل وزير الدفاع وقائد الفرقة الذي كان برفقته. وهكذا وجد وزير الدفاع وقائد الفرقة عند وصولهما إلى الجبهة أنّ القسم الأساسي من خطة الدفاع قد قررها قائد اللواء، ولم يبقَ ما يضاف إليها. وكانت في هذه الآونة تتوارد قوات أخرى من هندسة ومدفعية إضافية ومتطوعة غير التي كانت بإمرة قائد اللواء، فألحقت به أيضاً فتكاملت بذلك جبهة الدفاع. والتحق أيضاً بميسلون قطعات راكبة من خيالة نظامية وغير نظامية وهجانة اقتضى اشتراكهم في خطة الدفاع، بما يتلاءم مع خواصها كقوات متحركة. وفي هذه الآونة أخبر قائم مقام الزبداني بأن فيها ألوف المتطوعة المسلحين المتحمّسين الذين يودون

الاشتراك في المعركة، وأنّ هناك أيضاً ألوفاً أخرى من أهالي سرغايا وعصابات ملحم قاسم الذين يريدون الاشتراك في القتال. فتقرّر إرسال فوج ومدفعين إلى الزبداني وفيها يتجمع أولئك المجاهدون ليشتركوا معه في المعركة من جهات مرتفعات الزبداني لمهاجمة الجناح الأيسر للقطعات الفرنسية المهاجمة. وهكذا نرى أن خطة الدفاع في ميسلون كانت مرتجلة أملتها الأحوال التي كانت تتلاحق، ولا بأس بالخطط الارتجالية السريعة. فمثل هذه الخطط كثيرة الوقوع ولكن يجب ألّا تكون متفككة وغير منسجمة ومرتبطة ببعضها، وأن تكون الواجبات موزعة توزيعاً منطقياً قابلاً للتطبيق. وأن تكون المسؤوليات واضحة ومركزة لا التباس فيها ولا تشويش. وسيتبين لنا مما سنشرحه من الخطة أن ذلك لم يحصل.

- **الخطّـة**

1- الوقوف بوجه تقدم الجيش الفرنسي الزاحف على دمشق.

وذلك بالدفاع في المواضع التي أقيمت بسرعة في مرتفعات عقبة الطين غرب عين ميسلون، والمتحكمة بمخرج وادي القرن ووادي الزرزور.

2- الالتفاف على الجناح الأيمن للقوات المهاجمة ومنع القوات الراكبة من إجراء التفاف على جناحنا الأيسر.

3- الحركة على جناح العدو الأيسر، وتهديده في عين الجديدة ووادي القرن.

- **التوزيع**

1- اللواء الأول من الفرقة الأولى والقطعات الملحقة به يدافع في المواضع التي أقامها في عقبة الطين.

1) الفوج الأول من اللواء الأول بقيادة محي الدين البغدادي يمين طريق وادي القرن – ميسلون.

2) الفوج الثالث بقيادة الرائد أبو الخير الجابي في يسار الطريق المذكور.

3) في الجناح الأيمن الفوج الأول من اللواء الثاني مع مدفعين 65 مع المتطوعين بقيادة المقدم توفيق العاقل يتحرك من الزبداني نحو جناح العدو الأيسر.

4) الهجانة والخيالة النظامية والمتطوعة تتحرك باستقامة ينطه لستر جناح الدفاع الأيسر.

5) المدفعية توزّع بحيث تصبّ نيرانها على خطوط تقدم العدوّ ومدفعيته ولسدّ الطريق.

6) لم نعتمد فيما حقّقناه على أيّ واجب أُعطي إلى سرية الحرس الملكي التي كانت تتشكل بمجموعها من اليمانيين، وهي أتمّ تنظيماً وضبطاً من جميع القطعات التي كانت في ميسلون. وقد شاهدتها خلال انفراط عقد الدفاع وهي الجماعة الوحيدة التي كانت محافظة على نظام وتسير في المؤخرة بقيادة آمرها.

المعركة

- في الجبهة

منذ الفجر الأول من صباح يوم 24 تموز 1920 كان جميع من في جبهة ميسلون من قادة ومحاربين متيقّظين ومتهيّئين ينتظرون نشوب المعركة، وفي الساعة الرابعة والنصف أمر الوزير آمر اللواء الذي كان بالقرب منه أن يفتش الجبهة، فذهب إلى الفوج الأول الذي على يمين الطريق، وأرسل مرافقه إلى الفوج الثالث على الجناح الأيسر لتنبيه قائده عن قرب نشوب المعركة. ولمّا لاح ضوء النهار تبيّن أن الفرنسيين قد وضعوا منذ الليل بطارية مدفعية في فم وادي القرن. وفي هذه اللحظة مرّت طائرة فرنسية من فوق الجبهة، فرمتها المدفعية وبعض الرشّاشات والمتطوعة، كما أطلقت المدفعية نيرانها على مدفعية العدوّ التي ذكرت أنها كانت في مخرج الوادي. وهكذا نشبت المعركة بتراشق مدفعية الطرفين، وكانت قنابل المدفعية الفرنسية الثقيلة الموضوعة في الجديدة تصبّ نيرانها على الخطوط الأمامية والخلفية. وفي الساعة السادسة اجتاز أحد أفواج المشاة الفرنسية وادي القرن، وتخطّى المواقع التي أقيمت على الطريق لعرقلة تقدم الدبابات، وبدأت

الخيالة الفرنسية تتقدم من جناحهم الأيمن على مرتفعات وادي الزرزور الغربية. وفي الجناح الأيمن اجتاز فوجان من مشاتهم وادي الزرزور، وبدؤوا بتسلق منحدراته الشرقية بحماية كثيفة من المدفعية والرشاشات، ومن الوسط على جانبي الطريق المُزفّت كانت الدبابات مع سرية من المشاة قد اجتازت الوادي المذكور والجسر وأزالت الموانع الموضوعة على الطريق الواحد بعد الآخر. وكانت معنويات جنودنا مرتفعة، وأملهم بالنصر يزداد كلّما شاهدوا تباطؤ تقدّم الفرنسيين بالرغم من نار مدفعيتهم ورشاشاتهم الكثيفة. وفي هذه الآونة أصابت الحصن، الذي وضع فيه بأمر من الوزير رشاشين، قنبلة مباشرة فهدمته على رؤوس الجنود فانسحبوا منه تاركين الرشاشات، ولكن الفرنسيين لم يجسروا على إشغاله، حيث بقي نحو الساعة خالياً حتى أعيد إشغاله بعدد قليل من المتطوعين. وكانت الطائرات الفرنسية ناشطة تحوم فوق ميدان المعركة، تلقي قنابلها وصليات رشاشاتها على ساحة المعركة والخطوط الخلفية. وكان ثقل المعركة موجهاً إلى الجناح الأيمن نحو الفوج الأول.

وفي الساعة الثامنة والنصف شوهد على الجناح الأيسر في مرتفعات قرية ينطه الاشتباك بين قطعاتنا الراكبة (خيالة وهجانة) والقوات الفرنسية، فأمر قائد الفرقة بإرسال عدد من المتطوعة الموضوعين في خلف الفوج الثالث لإسنادهم. ولما اشتدّ قصف المدفعية والطائرات انسحب أكثر المتطوعة الذين لم يكن لهم سابق معرفة لا بالحرب ولا بالطائرات ولم يبقَ من المتطوعين الذين كانوا في احتياط الفوج الأول أكثر من مائة وخمسين، وقد حصل شيء من ذلك في الفوج الثالث أيضاً. هذا عدا من كان منسحباً من الضباط والجنود. ويؤكد جميل البرهاني مرافق قائد اللواء أنّ مجموع من كان باقياً من الجنود النظاميين في الجبهة عند نشوب المعركة لم يكن ليتجاوز مائتين وخمسين محارباً.

استشهاد الوزير

في حوالي الساعة الثامنة والنصف وكانت المعركة على أشدّها، ووضع الجيش العربي لا يزال سليماً، ومعنويات الباقين منه جيدة، كان الوزير في نقطة الترصّد

يراقب جريان المعركة، وبالقرب منه قائد الفرقة، وآمر اللواء ومرافقه ياسين الجابي، ظهرت دبابات العدوّ وهي تتقدم صعداً على الطريق حتى اجتازت نصف المسافة التي بين أسفل الوادي ومركز الترصّد، ولمّا أصبحت في زاوية غير مرئية لمدفعيتنا توقفت قليلاً ثم تقدمت الدبابة الأمامية وبدأت تصعد الطريق نحو مركز الترصد. وكان الوزير قد وضع، كما ذكرنا، مدفعاً في أعلى منعطف الطريق من خطّ دفاعنا يسيطر على جميع المنعطفات من أول الطريق حتى أسفل الوادي. فلمّا شاهد الوزير تقدم الدبابة والمدفع صامت، التفت إلى آمر اللواء الذي كان بقربه وسأله غاضباً: «ما بال المدفع صامتاً لا يرمي الدبابة؟ أنا ذاهب إليه، وأنت اذهب إلى اليمين، وثبت الجنود». ولمّا عاد آمر اللواء إلى محل الترصّد، وكان ينتظر أن يكون الوزير قد عاد قبله من موضع المدفع لم يجده. وفي هذه اللحظة سمع آمر اللواء من خلفه صوتاً ينادي يوسف بك قتل، فالتفت ليرى ضابطاً برتبة وكيل من سرية الرشاش، مكشوف الرأس يركب حصاناً أشهب، وهو لا يزال يصيح يوسف بك قتل، فأمره بالسكوت مهدداً إياه بالمسدس، ثم أمر بحجزه في الخلف. وبعد قليل شوهدت دبابة تتقدم على بعد مائتين وخمسين متراً، فرمتها بعض الرشاشات والجنود، فتراجعت مع من كان يحميها من مشاة، وغابت عن الأنظار. واستمرّ ضغط العدو على الجناح الأيمن، وكان الجناح الأيسر يتمتع بهدوء نسبي.

يقول جميل البرهاني الذي كان واقفاً قرب آمر اللواء في مذكراته أنه بعد حادثة الضابط، التي ذكرناها، وصل مرافق الوزير النقيب ياسين الجابي، وهو بحالة ارتباك، وسرد لآمر اللواء كيفية استشهاد الوزير. عندما شاهد الوزير تقدّم الفرنسيين داخل الوادي، ورفعهم الحواجز وعدم انفجار الألغام وعدم رمي المدفع على الدبابات المتقدمة، وسقوط حصن عقبة الطين، وانسحاب حاميته، واستمرار تقدّم الدبابات على الطريق بحيث قاربت مقرّ القيادة، أخذه الغضب، وذهب، كما ذكرنا، إلى موضع المدفع، وطلب إلى الرامي أن يرمي الدبابة المتقدمة، وفي هذه اللحظة رمته تلك الدبابة بطلقة من مدفعها عيار (37) فأردته شهيداً. يتبيّن مما ذكره البرهاني أن ياسين الجابي كان مع الوزير عندما ذهب إلى المدفع، وشاهده وهو يستشهد، ولكنه لم يكن بقربه بدليل أنه لم يستشهد معه، بل تركه هو وعاد إلى مركز الترصّد ليخبر آمر اللواء.

وقد ذاع خبر استشهاد الوزير بين خطوط المقاتلين، فبدأ تسربهم إلى الخلف ضباطاً وجنوداً، ولم يبقَ (حسب قول البرهاني) من القادة سوى المقدم حسن الهندي يقوم بقيادة الجبهة، والأفواج الأمامية لم يبقَ منها سوى عدد ضئيل، منهم ثمانية جنود مع آمر اللواء يرابط بهم في مكانه. ونحو عشرة جنود من الفوج الثالث يستخدمون رشاشاتهم. أما المدفعية، فبعد مقتل الوزير ونفاد ذخيرتها تمكنت من سحب سنة مدافع صحراوية ومدفعين أوبس بعد أن تركت في ميدان المعركة الباقي، وعددها تسعة عشر مدفعاً، وأما قائد الفرقة فعقب استشهاد الوزير أدرك النتيجة فاستحضر ركوبة وقال لآمر اللواء أنه ذاهب لتأسيس خط دفاع ثانٍ في مرتفعات الهامة وعاد إلى دمشق.

وفي نحو الساعة الحادية عشرة كان الفرنسيون قد استولوا على جميع الخطوط الأمامية، ولم يبقَ أحد من الأفواج. كما لم يبقَ في نقطة الترصّد مع آمر اللواء سوى مرافقه ومعهم سبعة جنود، ولم يعد أمامهم سوى الانسحاب، فأمر مرافقه بالانسحاب قبله مع نصف هؤلاء الجنود ليحمي هو والنصف الآخر انسحابهم، وأن يحموا انسحابهم بعد وصولهم إلى الهضبة التي خلفهم. وهكذا كان هذا آخر انسحاب من خطوط القتال في ميسلون.

تسجيلاً لبطولة هذا القائد، وكنموذج للقيادة المخلصة، أنقل فيما يلي نصّ العبارات التي كتبها مرافقه جميل البرهاني في مذكراته عن هذه اللحظات الأخيرة من المعركة:

من ذكريات ميسلون: ما أعظم هذا القائد. لم يقبلْ أن يترك الجبهة قبلي. بل. رجّح أن يبقى لوحده منعزلاً في الفضاء مع ثلاثة جنود. أمرني أن أذهب قبله من مركز القيادة لأحمي تقهقره. ما أنبله. ما أنبل هذا البطل العظيم. عمل عظيم يجب أن يخلّده التاريخ.

وعلى هذه الصورة انتهت موقعة ميسلون في الجبهة، ونحو الساعة الثانية عشرة، كان يمرّ من عين ميسلون آخر المنسحبين.

الجناح الأيمن

في صباح يوم 22 تموز، توجّه قائد اللواء الثاني، المقدم توفيق العاقل، من دمشق إلى جديدة يابوس لتلقّي الأوامر من قائد الفرقة، وقد أمر قبل مبارحته دمشق أن يجتمع لواؤه في الفسحة التي مقابل التكية السليمانية. وكانت الأوامر التي تلقّاها من قائد الفرقة تقضي أن يتوجّه مع أحد أفواج لوائه مدفعين جبليين إلى مدينة الزبداني، وهناك سيلتحق به متطوعة هذا القضاء وعصابات ملحم قاسم، وأخبره أن قائم مقام الزبداني، السيد عز الدين الحلبي، قدّر عدد هؤلاء بـ ألف وخمسمائة مقاتل بين فارس وراجل. وكان الواجب المعطى له يتلخّص أن يتحرك من القوة التي في عهدته مع سيلتحق به من المتطوعة في ليلة 23 تموز من الزبداني إلى قرية كفر يابوس، ومنها يتسلّقون الجروف المطلّة على جديدة يابوس والطريق العام المتجهة إلى وادي القرن فيهاجمون مقرّ القوة الفرنسية في الجديدة، ويسيطرون على مرتفعات وادي القرن الشمالية، فيقطعون خطّ الرجعة على القوات الفرنسية التي ستهاجم مواقعنا في مرتفعات عقبة الطين، وبذلك يصبح الجيش الفرنسي مطوّقاً ومحصوراً في وادي الزرزور ووادي القرن.

وفي الساعة الخامسة من مساء 23 تموز، بلغت هذه القوة الزبداني وكان موجودها كما يلي: ستة عشر ضابطاً، مائة وستون جندياً نظامياً، مائتان وخمسون متطوعاً دمشقياً (منهم مائة وخمسين دون سلاح)، ستّة رشاشات، مدفعين جبليين. ولمّا قابل قائد القوة قائم مقام الزبداني للاستعلام عن المتطوعة علم منه أنّ رجال ملحم قاسم لم يصلوا، وأنّ متطوعة الزبداني توجّهوا للمرتفعات بانتظار قدوم القوة للالتحاق بها. عندئذ تحرّكت القوة دون دليل ومعهم القائم مقام على الطريق الذي يمرّ من جنوب مدينة الزبداني إلى كفر يابوس، ومنها بدأت تتسلّق المرتفعات نحو الجروف التي تطلّ على الجديدة والطريق العام. قضت هذه القوة ليلتها تتعثّر بين منحدرات ومرتفعات هذه الجبال ولم تبلغ التلال المطلّة على طريق بيروت – دمشق، إلا في صباح يوم 24 وبخمسين جندياً فقط، دون أن يلتحق بهم أحد من متطوّعة الزبداني.

وأما المدفعان، فلم يتمكّنوا من حملهما معهم، وبقيا بين التلال. وأخذ هذا العدد القليل الذي وصل موضعاً على المنحدرات ينتظر وصول المدفعين. وفي هذه الآونة كانت المعركة محتدمة بين القوات الفرنسية والعربية في مرتفعات ميسلون. وفي الساعة الواحدة والنصف وصل أحد المدافع، ووصل المدفع الآخر في الساعة الثانية والنصف، وكان ذلك بعد انتهاء المعركة في ميسلون، وانسحاب الجيش العربي منها.

وفي هذه الأثناء وردت من ضباط نقطة الزبداني رسالة إلى قائد اللواء تنبئه أن قوة فرنسية وصلت بالقطار إلى الزبداني، وأن المتطوعة سوف لا يبارحون مدينتهم، وأن مسلحين من قرية سرغايا هاجمت بعض الجنود وجرّدتهم من سلاحهم. وبقي هذا العدد القليل مع المدفعين متخفياً بين الصخور طيلة النهار لا يتمكن من أيّ عمل. فالفرنسيون من أمامه استولوا على ميسلون، ومن خلفه أشغلوا الزبداني، فلم يبقَ أمامه سوى الانسحاب ليلاً مستفيداً من الظلام. وما كاد الظلام يُرخي سدوله حتى بدأ يظهر لهم من بين الصخور بعض رجال من عصابة الشمّاط محاولين اغتصاب أسلحة الجند المتفرّقين بين الصخور، مما سبّب الفوضى وبعض التشويش. وكان قد سبق ذلك أثناء النهار أن رئيس هذه العصابة ((حسين الشماط))، قد فاوض قائد المفرزة طالباً إليه إعطاءه الرشاشات، فصرفه بالتي هي أحسن. وهكذا أتى هذا الوغد مع رجاله ليغتصب أو يسرق ما لم يتمكن من أخذه نهاراً. وشرعت القوّة بانسحابها وطلع عليهم فجر 25 تموز، وهم في سهل مضايا فاستمرّوا بمسيرهم على طريق وادي حلبون دون أن يتمكّنوا من استصحاب المدفعين، وقد كانت عصابة الشماط تتعقّبهم وتقوم بمهاجمتهم طيلة الطريق.

وقبيل بزوغ فجر 26 تموز، وصل قائد اللواء، ومن تبقى معه من عدد قليل إلى قرية معرية، حيث علموا بأن الفرنسيين دخلوا دمشق، فأودعوا في هذه القرية ما لديهم من سلاح وعتاد وتفرقوا حيث ذهب كلّ منهم إلى بيته. وهكذا كانت الأعمال التي قام بها الجناح الأيمن والنتائج التي وصل إليها.

لواء الخيالة

وهي القوات الراكبة التي مرّ بنا ذكر تعدادها والتي تتشكل من بقايا لواء الخيالة الأول الذي وصل إلى ميسلون، وما تبقى منهم بعد التسريح نحو ستين جندياً ورشّاشين، وثلاث ضباط (النقيب عزت الساطي، والملازمان عبد الله عطفة وعرب أوغلي) وبقايا لواء الهاشمي الخيال الذي لم يصلْ منه إلى ميسلون سوى قائده المقدم اسماعيل نامق، وبعض الجنود فألحقت الجنود باللواء الأول، والتحق قائده بمركز تموين ميسلون فأصبح موجود الخيالة النظامية نحو مائة خيال وضعوا بقيادة النقيب عزت الساطي.

- الخيالة المتطوّعة، وهم ممن اجتمع من أحياء دمشق ودوماً وغيرها وعدد الذين وصل منهم إلى ميسلون نحو مائة وخمسين خيالاً. كانوا يسيرون ويترجلون ويستريحون بصورة متفرّقة ودون نظام، كلّ حي أو أقارب أو أصدقاء مع بعضهم. فلمّا وصلوا إلى نقطة ميسلون استقبلهم آمرها، وطلب إليهم أن يتجمّعوا بالقرب من خان ميسلون وينتظروا توجيهات القيادة.
- خيالة فوج الدرك الاحتياطي: (الذين بقيادي) وعددهم مائة وخمسون خيالاً هم العصابات التي مرّ ذكرها وكانت تعمل منذ أكثر من سنة بقيادة فؤاد سليم في المنطقة التي تمتدّ من بعلبك حتى الجولان، وهي تتشكل في الأصل من رجال تسجّلوا لهذه الغاية من دروز الشوف، وشراكسة من القنيطرة وأكراد من الصالحية وعدد من بيروت وجبل عامل، وقد انتدبتُ من الجيش بأمر من الأمير زيد لأقومَ بتدريبهم وتنظيم شؤونهم الانضباطية، يعاونني في ذلك أربعة ضباط ملازمين اخترتهم من الجيش ممن يصلحون لهذا الواجب، لأنّ باقي ضباط هذه القوة لم يكونوا ضباطاً. وكان رجالها نخبة من الرجال الأشدّاء الأقوياء. ولأجل تأمين احتياجات هذه القوّة، وضعت في ملاك الدرك وسميت بفوج الدرك – الاحتياطي وكانت تعمل تحت إشراف الأمير زيد، وبتوجيهاته.

وعندما صدر قرار الحرب أرسل الأمير قائد هذه القوة فؤاد سليم إلى جهات بعلبك للاتصال بملحم قاسم، الذي كان يتعاون معنا من أجل إجراء الترتيبات معه

حلّ ما يجب عليه القيام به في حالة وقوع الحرب. وهكذا بقيت القوة بقيادتي، وكان الأمير يودّ أن نبقى قريبين منه إلى آخر لحظة، ولمّا تقرّر القتال نهائياً أمرني بالتوجه إلى ميسلون وترك لي حرية تقرير العمل الذي ارتأيته. وبعد ظهر يوم 23 تموز تحركت بالقطار من محطة البرامكة ومعي أمر إحدى السرايا الملازم الأول سعيد عمون وكان القطار يعجّ بالمتطوعين الذاهبين إلى ميسلون، وكانوا طلية الطريق ينشدون الأناشيد الدينية والوطنية، وكانوا من مختلف الأعمار فيهم الغلام والشاب والشيخ. وكانوا دون نظام؛ لا رئيس ولا مرؤوس ولا قائد لا يعرف الواحد منهم إلى أية جهة هو ذاهب أو ماذا سيعمل وكلّ ما في علمه أنه ذاهب للجهاد في سبيل الله، وأنه سيقاتل للدفاع عن بلاده... وكان منظرهم يوحي للمرء الخشوع والاحترام الممزوج بالإكبار. وكلّما وصل القطار إلى إحدى المحطات كانوا ينتشرون بجانبيه ليأكلوا ويشربوا ويدخنوا وينشدوا الأناشيد.

وعندما يصلون إلى محطة الحسينية أو التكية كانوا يتركون القطار مستأنفين السير نحو ميسلون على الأقدام، وكانوا يسيرون جماعات وأفراداً؛ كل أفراد حي أو أقرباء أو أصدقاء مع بعضهم منتشرين من المحطة حتى ميسلون. ونزلنا في محطة الحسينية وفيها وجدنا خيلنا بانتظارنا فركبناها وتوجهنا إلى الديماس حيث كان رجالنا وقد أرسلتهم قبل يومين لانتظاري فيها. وبعد أن فتشت الخيل والجنود توجهنا إلى ميسلون، وكانت الخطة التي قررتُ العمل بها هي أن أسير بعد الظلام إلى خلف القطعات الفرنسية، وعندما تبدأ المعركة، نقوم بمهاجمة مؤخرتهم. وكان عليّ أن أخبر قائد الجبهة بخطتي هذه قبل الشروع بها ليكون على بيّنة وليضع لها حساباً في خطته. ولمّا وصلتُ إلى بناء (الدليل جنص) القديم الذي على يمين الطريق قبل الوصول إلى المقبرة بنحو مائتي متر، شاهدتُ هناك بعض الضباط فقدّرتُ أنّه مقرّ القيادة، فأمرت الجنود بالاستمرار بمسيرهم إلى الخان لينتظروني، وتقدّمت من المقدم الركن، شريف الحجار آمر نقطة ميسلون، الذي كان ينتظرني أمام البناء فحييته، وأعلمته بمقدار القوّة التي معي، وعن الخطّة التي وضعتُها، فشكرني وقال: «نحن بحاجة أن تشترك مع القوة التي في ميسلون، وهناك مشكلة بيننا وبين قائد قوة الهجانة فبإمكانك أنت أن تحلّها؛ وهي أننا أردنا أن نعين لقيادتهم ضابطاً لأنهم، كما تعلم، بدو لا يحسنون القتال مع القوات

النظامية، فرفض ذلك، وهم الآن متجمعون قرب الخان عساك تقنعه بذلك وأنت ذو معرفة بهم، وأنا سأحضر لعندكم بعد قليل لأبلغكم خطة العمل عسى أن نوفّق بإقناعه». ولمّا وصلتُ إلى قرب الخان شاهدت في الساحة التي تحيط به خيالة الأهلين والهجانة مبعثرين هنا وهناك، وشاهدتُ بجانب جدول الماء قائد الهجّانة مرزوق التخيمي مع أمراء سراياه جالسين على سجّادة، وقربهم دلال القهوة، وبعد أن عيّنت المكان لنزول جنودي عدت إلى قائد الهجانة، فرحب بي وبدأ يشكو من الإهانة التي وجهت إليه عندما أرادوا أن ينصبوا عليه قائداً.

وكانت تربطني بمرزوق التخيمي صداقة منذ أيام الثورة العربية، وقد كان «مضايفي» للأمير فيصل (والمضايفي عند أمراء الجزيرة العربية بمثابة قائد مقر ورئيس تشريفات ومدير أعمال).

بعد وصول الأمير لدمشق، جمع كلّ من كان بمعية الأشراف من هجّانة، وأضافهم إلى من كان منهم بمعيته، وجعلهم حرساً خاصّاً له، وكنت في وقتها مرافقاً للشريف ناصر على ملاك البلاط، فكلفني الأمير زيد أن أعاون مرزوق الذي عُيّن قائداً عليهم بعد أن أعطيت له رتبة مقدم فخري واعتبر من عداد المرافقين. أقول كُلّفتُ أن أساعده في تنظيم أمورهم العسكرية ببعض التمارين وبعض التنظيمات الداخلية فيما يتعلق بالضبط والواجبات وغيرها، وبقيت معهم إلى أن كُلّفتُ بالعمل مع العصابات التي مرّ ذكرها.

وبعد أن هدأ مرزوق، قلت له إنّه عليه القبول بكلّ شيء في مثل هذا الوقت الذي نحن فيه وإلّا حمّلوه مغبّة كلّ ضرر يحصل لأيّ سبب من الأسباب. وفي هذه الآونة شاهدنا القائد شريف الحجار آتياً فرحّبنا به، وما كاد يجلس حتى بدأ مرزوق بالكلام معاتباً، ثم قال أتريدون أن تعيّنوا علينا ضابطاً يعلّمنا القتال؟ أليس هذا ضابط؟، وأشار إليّ، فعينوه وأنا أقبل به فأجابه المقدم شريف حسناً أنا جئت من أجل ذلك. وهكذا انحلّت هذه المشكلة على هذه الصورة وتقرّر أن أبقى مع قوة الهجانة، وقال لي بأن خيالة المتطوعة ستكون مرتبطة بنا.

وبدأ المقدم الحجار بتبليغنا أمر الحركات الشفهي ليوم الغد الذي جاء فيه ما يلي:

1- سيبدأ القتال مع الفرنسيين في صباح يوم الغد الباكر.

2- قوّات العدوّ: لواء خيالة، ولواء مشاة، ولواء مدفعية، وسرية دبابات، وسرب طائرات.

3- خيالته وصلت إلى مرتفعات الكنيسة، ومقدمته في مخرج وادي القرن الشرقي.

4- قوّاتنا لواء مشاة من فوجين وسرية الحرس الملكي، ونحو ألف متطوع سيدافعون في المواضع التي أقاموها في المرتفعات التي بغرب نبع ميسلون (عقبة الطين) للسيطرة على وادي الزرزور ومخرج وادي القرن الشرقي.

5- الفوج الأول من اللواء الثاني مع مدفعين جبليين سيتحرّكون هذه الليلة من الزبداني، ويقوم في صباح الغد بحركة على جناح العدوّ الأيسر يقصف خلالها مقرّ قيادته في جديدة يابوس، ويتقدّم من المرتفعات الشمالية لوادي القرن للسيطرة عليه وقطع خط الرجعة على قطعاته المهاجمة.

6- ستقوم القوات الراكبة: خيالة الدرك، والهجانة، والخيالة المتطوعة المتجمعة بقرب الخان، والخيالة النظامية المعسكرة بقرب النبع بحركة التفاف على جناح العدوّ الأيمن، فتباغته في مرتفعات الكنيسة قبل حركته منها صباح الغد، لحماية جناحنا الأيسر، ومنعه من الالتفاف عليه. يتحرّك هذا الرتل في الساعة الثانية من صباح الغد للوصول إلى هدفه المذكور في الوقت المناسب.

وانتهى أمر الحركات على هذه الصورة. لم تكن لدينا خريطة لنستدلّ بها على الطريق، ولمّا طلبنا من المقدم دليلاً أجابنا أنه ليس عنده أحد ممن يعرفون الطريق، كما أنه لم يذكر لنا شيئاً عن قوة الخيالة النظامية التي سترافقنا، ولا عمّا إذا كانت مرتبطة بنا أم مستقلة عنا. وبعد مغادرته المكان، أرسلتُ بطلب قائد أو كبير المتطوعة فلم نجد لهم قائداً أو زعيماً معيناً، فكانوا، كما ذكرنا، جماعات متعدّدة. فجمعتُ بعض رؤوسهم وبلّغتهم موضوع الأمر الذي تلقيناه، وطلبتُ منهم

أن يكونوا في الوقت المعين متهيئين للحركة معنا. ووجدتُ من بين رجالنا اثنين يعرفون الطريق الذي يوصلنا إلى الهدف الذي سنقصده.

في الساعة الثانية تحرّكنا من مكاننا، خيالتنا في الأمام تليها خيالة المتطوعة ثم الهجانة، وكانت الخيالة النظامية مع الرشاشين قد التحقت بالرتل خلف الهجانة.

وأخرجتُ من خيالتنا خمسة وعشرين خيالاً، ومعهم الدليل كمقدمة، وكان مسيرنا في هذه الأراضي الجبلية الوعرة على هذا الطريق غير المعبّد بطيئاً لم يُحسب حسابه في توقيت ساعة الحركة. وطلع الفجر ونحن لا نزال بعيدين عن هدفنا، وظهر أمامنا وادٍ نجهل طوله، ولكن الطريق يمرّ منه، فأمرت القسم الأكبر بالوقوف لانتظار اجتيازه من قبل المقدمة أولاً، وما كادت تمرّ عشر دقائق حتى وصل من المقدمة جنديان يجران غلاماً في نحو العاشرة، يقولان أنه جاسوس، والغلام يبكي ويقول والله أن العسكر السود يتسلّقون مرتفعات الوادي من الجهة الثانية. فالتفتّ إلى مرزوق التخيمي الذي كان بجانبي، وقلت له أن الأمر خطير ولا يقبل التردّد والأخذ والردّ، فيجب على الهجانة أن تعقل هجنها وتتسلق جانبي الوادي قبل أن يصل إليه العسكر، وإذا كان هذا الغلام غير صادق، فلا ضرر من حركتنا. أما إذا كان صادقاً ولم نسبقهم إلى المرتفعات، فسوف يقضون علينا جميعاً. ونادى مرزوق رجاله أن يعقلوا[13] إبلهم ويتسلّقوا، وبسرعة غريبة كانوا يقفزون نحو القمة كالأرانب. فالبدوي عندما يعقل ناقته من أجل الدخول في المعركة، فإنه يترك فوقها عباءته، ولربما كوفيته أيضاً، بحيث يبقى خفيفاً متحرّراً من كلّ ما يعيق حركته أو يتعبه، بعكس الجندي الذي يحمل على ظهره حقيبته المملوءة بجميع لوازمه من بساط وغطاء ومعطف ولوازم الطعام والملابس وغيرها مما لا يقلّ عن ثلاثين كيلو. وما كادت خمس دقائق تمرّ على بداية تسلّق الهجانة، حتى وصل أسرعهم الذروة، وبدأ الرمي لأنه بمجرّد وصوله وجد أوائل جند

13- عقل ناقته أي ربط بالعقال الصوف قائمة ناقته اليمنى، وهي مطوية، بحيث إذا وقفت الناقة تبقى هذه القائمة مطوية، والناقة واقفة على ثلاث قوائم. وبهذه الحالة لا تتمكن من سرعة السير، فتبقى في محلّها أو قريبة منها.

السنغال قد وصلوا إلى عشرة أمتار من القمة، والطلقة من عشرة أمتار أو خمسين أو مائة متر من بندقية البدوي لا يمكن أن تخطئ هدفها، فكان قتلى جنود السنغال يتدحرجون من أعلى المرتفعات التي وصلوا إليها إلى الأسفل كالحجارة. وكنت قبل ذلك قد أرسلت عشرين خيالاً إلى الميمنة ومثلهم إلى الميسرة، وفي هذه الآونة بدأنا نسمع دويّ المدافع وأصوات الطلقات في جبهة ميسلون، وأثناء ذلك وصلني تقرير من الملازم ذهني الدهني، الذي كان على الميسرة، أنه شاهد رتلاً طويلاً من الخيالة يسير ملتفاً على جناحنا الأيسر، فذهبتُ سريعاً إلى الميسرة وصعدتُ بحصاني إلى تلّ صغير، فشاهدتُ رتل العدوّ الخيال، فطلبتُ إلى قائد الخيالة النظامية عزّت الساطي، الذي كان قد وصل مع رشاشين وخمسة وعشرين خيالاً، أن يرمي برشاشاته الرتل، فرماه وأجبره على الاختفاء بين المنخفضات، وعلمتُ أن خيالة الأهلين قد فرّوا جميعهم منذ الطلقة الأولى، ولم يبقَ منهم أحد. وعدتُ إلى المرتفعات التي تقاتل فيها الهجانة، وفي نحو الساعة الثامنة جاءني تقرير ثانٍ من الميسرة يعلمني أن خيالة العدوّ عادت للظهور مرة ثانية، ولكن على مسافة أبعد. فعدتُ إلى الميسرة لأرى أنّ قسماً من خيالة العدوّ متجه نحو استقامة قرية دير العشائر، فقدّرتُ أنهم يقصدون قطع خطّ الرجعة علينا وعلى قطعاتنا في ميسلون. ولعلمي أنه لم يكن في مدخل وادي ميسلون في جبهة دير العشائر قوة لحمايته، أمرتُ الملازم سعيد عمون أن يأخذ نصف عدد خيالتنا نحو (خمسة وسبعين) ويعود إلى خان ميسلون، في غرب النبع، ويشغل المرتفعات على مدخل ذلك الوادي. وفي هذه الآونة ازداد تأثير قنابل المدافع والطائرات الموجّهة إلينا. وفي الساعة التاسعة والنصف وصلني تقرير من سعيد عمون أنّ القوّات الراكبة تدعمها المشاة تقترب منهم من مرتفعات دير العشائر، فقدّرت أن الخمسة والسبعين بندقية التي مع سعيد عمون سوف لا تتمكن من منعهم من قطع خطّ رجعتنا، فاقترحت على مرزوق التخيمي أن ينسحب مع هجانته ليأخذ موضعاً على يسار المرتفعات التي يشغلها سعيد عمون ليسدّ عليهم الوادي، على أنني سألتحق بهم مع من تبقى معي بعد وصولهم إليها، على أن ينسحب في البداية نصف قوته، وبعد نصف ساعة القسم الآخر. فأمر معاونه أن ينسحب مع ثلاثة سرايا، كلّ سرية خمسة وسبعون هجاناً تقريباً، إلى الموضع الذي عينته، على أن يبقى مرزوق

مع القسم الثاني. ولكن الذي حصل أنه ما كاد يصدر لهم الأمر بالانسحاب حتى قاموا جميعاً وانسحبوا مرة واحدة، وفقدت السيطرة عليهم بسبب أنّ طائرتين كانتا قد اكتشفتا مكان الهجن، فوجّهتا قنابلهما عليهم، فاختلطت ببعضها، وعلا صراخ أصحابها، وأصبح أمرهم فوضى، وجرفوا معهم الخمسة والعشرين خيالاً نظامياً مع رشاشاتهم. وبقيت مع الخيالة الذين معي (خمسة وسبعين تقريباً) فأخذنا مواضع على تلول تبعد قليلاً عن مدخل الوادي الذي كانت عليه. وأثناء انسحاب الهجانة كنا نشاهد أهالي قرية حلوة وهم يرمون جنودنا المنسحبين من فوق التلال التي في أسفل قريتهم.

وفي هذا الموقف قدّرت أنّ الهجانة قد خرجوا عن سيطرة قائدهم، وهجنهم التي أصبحت تشكّل هدفاً كبيراً للطائرات المستمرة بمطاردتها لا يمكن ضبطها، وسوف يستمرّون بالانسحاب، وأنه لم يبقَ فائدة من بقائنا في هذا الموقع، ومن الضروري أن ننسحب إلى الموقع الذي أرسلت إليه عمون لمحاولة سدّ الوادي بوجه الفرنسيين. ولكن قرية حلوة المسيطرة على طريقنا أصبحت تشكل خطراً علينا، فقرّرت معالجة أمرها أولاً. وفي الساعة العاشرة جمعتُ الجنود وتقدمنا راكبين من خلال منعرجات التلول ومخابئها حتى إذا أصبحنا على مسافة قريبة من قرية حلوة ترجّلنا بعد أن تركنا خيلنا مع ماسكيها وتوجّهنا إلى القرية المذكورة، فقابلونا بالرصاص، ولكننا تغلبنا عليهم فانهزموا، ووصلنا القرية فاستقبلنا من كان فيها من شيوخ ونساء. وأما الشبان المسلّحون فقد كانوا مختفين، ولأجل جلب عطفنا عرضوا أمامنا قتيلين وقعا من طلقاتنا فقبضنا على رجلين منهم فكبّلناهما بالحبال وسُقناهما أمامنا بعد أن أنذرت أهالي القرية بأننا سنقتلهما إن سمعنا طلقة واحدة تطلق علينا من قريتهم أو من جوارها.

وفي حوالي الساعة الحادية عشرة وصلنا إلى المرتفعات التي كان عليها الملازم سعيد، وكانوا صامدين في مواقعهم، وعلمت أنّ الهجانة استمروا بانسحابهم، ولم يبقَ لهم أثر، وكانت المعركة في عقبة الطين قد ضعفت، ومدفعيتنا لم يعد يُسمع لها صوت، وطلقات مدافع الفرنسيين تقع على عين ميسلون وخلفها، وأصبح واضحاً أن المعركة انتهت، وأن قطعاتنا بحالة انسحاب. فقدّرتُ أنه لم

يعد بإمكاننا أن نمنع استيلاء العدوّ على ميسلون، وتبدل موقفنا، وأصبح واجبنا حماية انسحاب قطعاتنا المتراجعة في داخل وادي ميسلون، لأن العدوّ استولى على أكثر مرتفعات عقبة الطين. وبعد قليل سوف يصل إلى المرتفعات المطلّة على العين والمسيطرة على الوادي، فقرّرت أن أتسلق القمة الشهيرة للوادي، هي القمة التي فوق مقبرة الشهداء، والسيطرة من فوقها على جميع الوادي وما يسيطر عليه من تلال. فأمرتُ سعيد عمون أن يبقى مع من كان معه في المواضع التي هو فيها بعد أن أخبرته بالعمل الذي سأقوم به، وأنني سوف أستمرّ بمتابعة حماية ما تبقى من الجنود المنسحبين من أعلى القمة، وسوف أواكب تراجعهم على طول امتداد الوادي، وبعد ذلك أصبح كمؤخرة لهم، وطلبتُ إلى سعيد أن يبقى في مكانه ليمنع تقدم الفرنسيين كما يفعل الآن، ومتى وجد منهم ضيقاً عليه أن ينسحب من خلف القمة التي سنرتقيها نحن، ويلتقي معنا في ملتقى سهل الديماس في المرتفعات. وعندما وصلنا إلى رأس القمة شاهدنا الفرنسيين وقد وصلوا إلى مرتفعات عقبة الطين، وقطعاتنا لم يبقَ منها في الوادي سوى سرية الحرس الملكي التي كانت قد اجتازت الوادي، وأصبحت بالقرب من قرية الديماس. وكان الفرنسيون بطيئين ومتحرّزين في تقدمهم، وكانت طلقاتنا يمتدّ تأثيرها على طول امتداد الوادي والتلال المشرفة عليه. وانقطعت نيران المدفعية عنها، ولم يبقَ سوى الطائرات الحائمة التي كانت تلقي بعض القنابل الصغيرة وبعض الصليات من رشاشاتها، ولكن دون تأثير ودون أن نحسب لها حساباً. وبقينا ننسحب على طول الهضاب الممتدّة إلى غرب طريق دمشق – بيروت إلى أن وصلنا في نحو الساعة الثانية إلى الهضبة التي تشرف على الصحراء، فاجتمعنا وجلسنا لنأخذ قسطاً من الراحة منتظرين وصول باقي إخواننا مع سعيد عمون. لقد أصبح الطريق إلى دمشق خالياً، وكان آخر من مرّ منه سرية الحرس الملكي مع قائدها النقيب محمد علي العجلوني، وبقيت هذه السرية محافظة على نظامها وضبطها، علماً أنّ جميع أفرادها من اليمانيين، وقد كانوا في جيش الثورة مجموعين أيضاً في سرية واحدة تسمى «سرية اليمانيين»، وهم من أشجع وأطوع ما رأيت من الجنود.

وبعد نصف ساعة من الانتظار، قرّرت الاستمرار في المسير ظناً مني أن عمون ربما يكون قد سبقنا. كما قرّرت ألّا أتبع الطريق العام وخجلتُ أن أدخل منه إلى

دمشق بهذه الصورة، فقرّرت أن أتوجّه من داخل الصحراء نحو تلول المزة، ومنها إلى دمشق. وفي منتصف الصحراء شاهدنا عن بعد طائرة جاثمة على الأرض، فلمّا وصلنا إليها وجدناها فرنسية خالية من طياريها، فحاولنا إحراقها، فلم تمكنا الريح التي كانت تطفئ أعواد الثقاب، فتركناها ونحن نشاهد على بعد نحو كيلومترين إلى يسارنا رتل خيالة العدو يتقدم نحو استقامة قطنا.

ووصلنا إلى المرتفع المشرف على قرية المزة، وهناك جمعتُ كلّ من معي من ضباط وجنود، وقلت لهم إننا نجهل الآن ما سوف يكون عليه مصير البلاد، ولذلك يجب أن نأخذ أمرنا بالتأنّي، فلا نتحرك بسرعة قبل أن نتحقّق من الموقف، وأرى أن ننقسم إلى فئتين؛ الأولى الدروز ومن يريد أن يرافقهم يذهبون إلى قرية جرمانا في الغوطة، والقسم الآخر الأكراد ومن يريد أن يرافقهم يذهبون إلى حيّ الأكراد في حيّ الصالحية، وهناك تنتظرون منا خبراً، إما أن تعود حكومتنا فندبر أمورنا معها، وإما أن تزول الحكومة ويكون هناك عمل مقاومة فنعمل به، أو خلاف ذلك مما لا نعلم. وهكذا توجه كل قسم في اتجاهه، وبقي معي فقط الملازم ذهني الدهني. ونزلنا من القمة التي كنا فيها، ومررنا من قرية المزة، ولمّا وصلنا إلى قرب الدار التي كان يسكنها الأمير زيد، شاهدنا من بعد أمام الدار جمعاً كبيراً، وكلما اقتربنا كانت تتضح لنا وجوه الأشخاص؛ إنهم الملك فيصل، الأمير زيد، الشريف ناصر، الشريف جميل، الدكتور أحمد قدري، جعفر العسكري، تحسين قدري، راسم سردست، الأمير عادل أرسلان، رستم حيدر، عبد الله الدليمي، صبحي الخضرة، فؤاد سليم، علي جودت الأيوبي، وغيرهم نحو خمسين رجلاً وخيل وعدة سيارات ركوب.

وكان الجميع مسلّطين أنظارهم إلينا. ولمّا اقتربنا أكثر، سمعتُ الأمير زيد يقول للملك هذا صبحي ولمّا وصلت ترجّلت وربطت حصاني في حديد شباك الغرفة التي على الطريق وتقدمت من الملك، حيّيته بالتحية العسكرية، فردّ التحية بإشارة خفيفة وكان واجماً فسألني الأمير زيد: «من أين أنت آت؟» قلت: «من ميسلون»، ويظهر من سؤاله أنهم كانوا متعجبين من مجيئي من هذا الطريق، فسألني: «ما هي آخر الأخبار؟» أجبته أننا كنّا آخر المنسحبين فلم يبقَ هناك أحد فجميعهم

انسحبوا. وكان جميع الواقفين يصغون إلى كلامي باهتمام، وما كدتُ أنتهي حتى التفت فيصل إلى سائق سيارته الذي كان قريباً منه، وأشار إليه فشغّل السيارة، وتقدّم بها إليه واقترب مرافقه تحسين قدري ففتح له الباب فدخل فيها، واستدار تحسين، وركب بجانب السائق دون أن ينبث بكلمة لا هو ولا أحد من الحاضرين. وسارت السيارة نحو الغرب، فالتفت إليّ الأمير زيد، وقال لي: «هيّا أسرع وسِرْ خلف السيارة لبينما نلحق بكم».

ولكنني أشرت له إلى حصاني المربوط وقد تباعدت قوائمه وخفض رأسه يكاد أن يهوي إلى الأرض، فلاحظ أنه لا يمكن ركوبه (وكان قد مرّ عليه مثلي أربع وعشرون ساعة دون راحة ودون طعام) فأومأ الأمير إلى أحد رجاله، وكان يمسك بفرس من جنس (إنكلو عرب) كان قد استقدمها الأمير من الهند، فقدمها إليّ فامتطيتها بسرعة وسرتُ بها نحو الاستقامة التي سار بها الملك، وعندما أصبحتُ خارج القرية شاهدتُ السيارة بجانب طريق حواكير الصبارة المتجهة إلى قرية داريا، ولمّا رآني الملك هكذا مسرعاً أمر بتخفيف سرعة سير السيارة، وهكذا كنت أسير خلفها، وبعد قليل شاهدنا خيالاً شاهراً بندقيته يتوسط الطريق، وهو ينظر إلى السيارة فوقفت السيارة ونظر إليّ الملك من الشباك الخلفي، فتقدمت من الرجل وسألته لماذا أنت واقف هكذا، فسألني بدوره بغضب: وأنت مالك ومالي، فأسرع من لمح البصر وجهت إليه بندقيتي وقلت له اخفض بندقيتك ولا تتلفظ بكلمة فستكون آخر كلماتك، وكانت كلماتي وأنا في هذا الوضع اليائس شديدة وحازمة لا تقبل التردّد. فخاف الرجل فخفض بندقيته واستدار وساق حصانه، فقلت له وهو سائر إياك أن تلتفت، فإن لفتتك وموتك سيكونان واحداً، وهكذا ابتعد فأشرتُ إلى السيارة فاستمرت بسيرها، ولمّا مرت من أمامي رأيتُ فيصل قد ارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة لا تريد كثيراً من الذكاء حتى يستشفّ منها الإنسان إنها ابتسامة فيها خيط رفيع من الرّضا والكثير من الألم. واستدارت السيارة إلى اليسار على طريق قرية داريا، وما كدنا نقطع مائتي متر حتى شاهدت السيارات مقبلة نحونا، وكنا وصلنا إلى تحت مجموعة من أشجار الجوز، فوقفنا تحتها. ووصلت السيارات متلاحقة فأول ما وصلت سيارة الأمير زيد، ثم الشريف ناصر، والشريف جميل وغيرها، وكانت كلّ واحدة منها ملآنة بالرجال بأكثر من

حمولتها، وترجّل من في السيارات ملتفّين حول الملك. ولم أعدْ أعلم ماذا جرى بعد ذلك، إلا أنني وعيت على نفسي وأنا في مدخل محطة الكسوة، فشاهدت بجانب الطريق سيارة كميون تشتعل فيها صفائح بنزين، وعلمتُ فيما بعد أنه بعد وصولنا إلى شجرات الجوز والتحاق السيارات لم يبقَ بي قدرة على التحمّل بعد ذلك الجهد الطويل، وسيري خلف السيارة هذه المسافة الطويلة فسقطت من على الفرس مغمياً عليّ فوضعوني بإحدى السيارات حتى وصلنا إلى محطة الكسوة.

وهكذا الدهر دخل فيصل دمشق، وبرفقته جيش كبير وخمسة آلاف فارس، تستقبله البلد بالأزهار والرياحين وزغاريد النساء ودموع الفرح، وهكذا خرج من دمشق، وليس معه سوى مرافقه تحسين قدري وكاتب هذه الأسطر.

وكان الملك قبل مبارحته دمشق إلى الكسوة قد أخبر مجلس الوزراء بقراره، وطلب إليهم بموافاته إليها. وتوجهوا إليها بقطار خاص، يرافقهم عدد كبير من العاملين في القضية الوطنية، مدنيين وعسكريين أكثرهم ممن كان يتحسب من انتقام الفرنسيين. ولم يتخلف من أعضاء الوزارة سوى وزير المالية فارس الخوري، ورئيس الشورى علاء الدين الدروبي. وكان جلالته قد ترك في العاصمة رئيس أمنائه إحسان الجابري، وكبير مرافقيه نوري السعيد، ليبقى الأول على اتصال بما يجري من أمور داخلية وسياسية، وليقوم الثاني بالاتصال بالجيش الفرنسي، وليوافيه الاثنان بما يستجدّ من الأمور.

وفي اليوم التالي لوصولنا إلى الكسوة، أي في 25 تموز 1920، دخل الجيش الفرنسي دمشق، وبعد أن استعرضه الجنرال غوابيه في شارع النصر، ومرّ من شوارعها الرئيسية، توزّع على ثكناتها العسكرية، ويظهر أن الأخبار التي كان يرسلها الجابري ونوري السعيد كانت أخباراً مطمئنة، وفي برقية أرسلها نوري السعيد إلى رئيس الوزراء يشير إلى حصول اتفاق مؤقت بينه وبين الفرنسيين على بقاء الحكومة الحاضرة إن هي أذاعت أن ما حصل كان دون رغبتها السلمية، وأن يقيم الفرنسيون في المزة لمدة مؤقتة، ولا يتدخلوا بغير الأمور التي تتعلق بتنفيذ مواد الإنذار، أما جنود الجيش العربي القدماء، أي من كانوا قبل التجنيد

الإلزامي، فيبقون في الخدمة بعد أن يجري تحويلهم إلى درك، وتبقى الشرطة داخل المدينة لحفظ الأمن. إلى أن يقول: إنّ وجود جلالة الملك قريباً من دمشق ضروري، وأنه ينتظر توكيلاً تحريراً للمفاوضات السياسية، وأن البلدة هادئة تماماً.

وحضر إحسان الجابري إلى الكسوة ليخبر الملك أنه اجتمع بالقنصل الإيطالي (المركيز دوبارزنو)، وعلم منه أن الفرنسيين سيعلنون انتهاء العهد الوطني وملكية فيصل، وقد كلفوا القائمين بالتعاون معهم بتقديم عريضة يدعمون بها قرارهم، وأنّ بعض هؤلاء العملاء أعلن أن بيعة الملك فيصل قد سقطت بعد أن ترك عاصمة ملكه. وأوصى ممثل إيطاليا السيد الجابري أن يعود الملك إلى دمشق ليحبط هذه المؤامرة، وليكون إخراجه من قبل الفرنسيين بالقوة.

وتجاه هذه الأخبار، بدأ الملك باستشاراته للحاضرين يسألهم رأيهم بالحلّ المناسب. فانقسم الرأي إلى قسمين؛ منهم من كان يشير بالعودة إلى العاصمة وأن يسعى لحلّ المسألة حلاً سياسياً بداعي أنّ جلالته قبل شروط الفرنسيين ولم يعلن عليهم حرباً، وأنه ملك البلاد الشرعي، وليس يخشى أن تُساء معاملته. وكان القائلون بهذا الرأي أكثرهم مدنيين ومن سورية الداخلية. أمّا العراقيون والفلسطينيون ورجالات المنطقة القريبة من مدنيين وضباط فكانوا يرون أن يظل جلالته مرابطاً في الكسوة وأن يعيد عهد الثورة العربية بأن يرهق الفرنسيين بحرب عصابات ينوؤون بعبئها. وكان جلالته في البداية يميل إلى الرأي الثاني، خصوصاً وقد وافاه قطار من شرقي الأردن فيه عدد كبير من مشايخ العشائر والوجوه حضروا كمقدمة للنجدة التي كانت ستأتي للاشتراك بحرب الفرنسيين، وقد وصلوا متأخرين. وقد أعرب عن رأيه هذا بقوله أنه يفضل أن يموت جندياً شريفاً على أن يعيش ملكاً ذليلاً. وفي هذه الأثناء وصل الكسوة نوري السعيد، وأعلن انضمامه إلى القائلين بالرأي الثاني في إثارة حرب عصابات يكون مسرحها حوران وجبل الدروز لأنه أصبح يعتقد أن التوسّط السلمي والطرق السياسية لا تجدي نفعاً مع الفرنسيين.

ومع أنّ الرأي الثاني كان هو رأي الأكثرية، ومع أن جلالته كان أميل إليه، فيظهر أن الأخبار التي جاء بها إحسان الجابري من القنصل الإيطالي أثّرت به، فارتأى اللجوء إلى الوسائل السلمية في معالجة الأمور. ورأى أنّ أول ما يجب عمله في الحلّ السياسي هو تأليف وزارة تنال رضى الفرنسيين. ولمّا كان يعرف أنهم يعتمدون على علاء الدين الدروبي، فقد أرسل إليهم مرسوماً بتأليف وزارة جديدة، مرفقاً بقائمة تحتوي أسماء الوزارات موقّعة على بياض ليقوم بإملائها هو بالأشخاص الذين يختارهم.

وهكذا قرر الملك العودة إلى دمشق بالقطار نفسه الذي جاءت به الوزارة، وقبل الحركة استدعى الأمير زيد فؤاد سليم وصبحي الخضرة وكاتب هذه الأسطر، وأبلغنا قرار العودة وطلب إلينا أن نقوم بمجرد دخولنا دمشق بالاختفاء في مكان أمين لأننا كنا مطلوبين من قبل الفرنسيين بسبب اشتغالنا بالعصابات على أن نخبره بالأمكنة التي سنختبئ فيها ليتصل بنا عند الحاجة، وأن هذا الترتيب مؤقت إلى أن يتضح الموقف. فشرحتُ لسموّه وضع رجالنا الذين أرسلتهم إلى قرية جرمانا، وحيّ الأكراد، وبأنهم ينتظرون أوامري هناك، ورجوته أن يعفيني من العودة إلى دمشق، ويسمح لي أن ألتحق بهم، فإذا لم تسر الأمور كما يجب، فيبقى أمامنا مجال للمقاومة على طريقة من الطرق، ورجاه صبحي وفؤاد سليم أن يسمح لهما بالذهاب إلى فلسطين حتى يتبلور الوضع (لأن صبحي الخضرة من فلسطين وفؤاد نسيبه) فاستشار سموه جلالة الملك، فوافق على ذهابهما إلى فلسطين على أن يلتحقا به إذا علموا بوصوله إلى حوران[14]، وأبى إلّا أن أرافقهم بالعودة إلى دمشق فانصعتُ للأمر.

وبعد ظهر ذلك اليوم، 27 تموز، عدنا بالقطار، وبوصولنا لمحطة القنوات ذهبت تواً لبيت شقيقتي، حيث اختبأت وجاءني أخي عمر، فأخبرته عن ضياع

14- يظهر أن جلالته كان ينتظر أن يخرجه الفرنسيون من دمشق، ولكنّه قَبِلَ العمل بنصيحة القنصل الإيطالي؛ أن يخرج بالقوة بدل أن يخرج كَفارّ من ميدان المعركة.

سعيد عمون، وطلبتُ إليه التحرّي عنه. ولم يطلّ غيابه حتى عاد ومعه سعيد فتعانقنا، وكان فرحي به عظيماً جداً. وكنا نسكن مع سعيد في دار واحدة في حي عرنوس، فلمّا تخلص من الأسر، وتوجه للبيت وجد أخي بقربه.

وحدثنا سعيد عن الذي وقع له، فقال: «بعد أن تركتمونا في المواضع التي ندافع فيها، تقدّم الفرنسيون واحتلوا الهضاب التي على يسارنا، والتي انسحبت منها الهجانة، فأصبحنا تحت خطر التطويق، فأمرتُ الجنود بالانسحاب إلى الهضاب التي خلفنا والتي أمرتنا بالانسحاب إليها للالتحاق بكم، وما كدنا نخطو الخطوة الأولى، وقبل أن نترك المواضع التي نحن فيها، حتى أسرعت كوكبة من خيالة العدوّ فدخلت بيننا وبينكم وأصبحنا مطوّقين. ولما امتطيت حصاني جفل بي فوقعت على الأرض، وأغمي عليّ، فما شعرت بنفسي إلا وأنا بين الجند السنغالي وبعض الفرنسيين وهم يقومون بقتل من وقعوا بأسرهم من الجند والمتطوعين وقد قتلوا جميع من وجدوهم بألبسة مدنية، وأجهزوا على الجرحى، وقد حاولوا قتلي ولكن شعري الأشقر، ولون بشرتي البيضاء وتلكمي معهم بالفرنسية جعلهم يظنّون أنني من أعوانهم كما يبدو. ولما هدأت هذه الفورة، جمعوا من تبقى من الجنود، وأنا معهم، وساقونا خلف الجيش إلى دمشق، وسلّمونا إلى قيادة المواقع في شارع النصر، وكان معاون قائد الموقع المجاهد الشهيد شوكت العائدي. فبعد أن استلمنا صَرَفنا على مسؤوليته فذهب كلّ منا في حال سبيله، فلمّا جئت إلى البيت ولم أجد فيه أحداً صرتُ أتجوّل بأطرافه، فشاهدتُ عمر وهو يفتش عني».

وفي مساء يوم 27 تموز، أي في اليوم نفسه الذي عدنا فيه إلى دمشق، سلّم الكولونيل تولا إلى جلالة الملك الكتاب التالي:

أتشرّف بإبلاغ سموكم قرار حكومة الجمهورية الفرنسية بأنها ترجو منكم أن تغادروا دمشق بأسرع ما يستطاع بسكة حديد الحجاز مع عائلتكم وحاشيتكم وسيكون تحت تصرّف سموكم والذين معكم قطار خاص يتحرك من محطة الحجاز غداً في 28 تموز في الساعة الخامسة صباحاً.

فردّ جلالة الملك على هذا الكتاب ببرقية احتجاج مطوّلة للجنرال غورو، جاء فيها أنه لا يعترف للحكومة الفرنسية بحقّ نزع اختصاص منحه له مؤتمر الصلح رسمياً لإدارة المنطقة الشرقية، ولا نزع اللقب الذي منحه إياه الشعب، وأنّ هذا الإجراء يخالف جميع المعاهدات والاتفاقات والقرارات التي سبقته. وسلم نص هذا الاحتجاج إلى جميع قناصل الدول في دمشق، إلّا أنه لم يكن بدّ من تنفيذ هذا الحكم ولو كان جائراً.

وفي مساء 28 منه، أرسل سمو الأمير يطلبني فذهبت وبرفقتي سعيد عمون، فكان سروره وسرور جلالته به عظيماً بعدما كنا نظنّ باستشهاده. فأمرنا أن نتهيأ للسفر في القطار في الساعة الخامسة من صباح الغد، وفي تلك الليلة أرسلتُ خبراً لرفاقي في حيّ الأكراد بسفرنا وبأنهم أحرار بتصرفاتهم، وبأنني سأتصل بهم إذا حصل ما يوجب ذلك، وطلبتُ إليهم أن يرسلوا بذلك علماً لإخواننا الذين في قرية جرمانا.

وفي الساعة المعينة كنّا، سعيد وأنا، في المحطة، وكانت تعجّ بحاشية الملك وبعض المودّعين ومن تبقى من جنود الهجانة الذين نفقت إبلهم في المعركة. أما من بقيت إبلهم سليمة فقد أرسلوها إلى درعا على الطريق. وكان بصحبة الملك، عدا أخيه الأمير زيد وحاشيته، جعفر العسكري ونوري السعيد وسكرتيره الخاص عوني عبد الهادي ورئيس أمنائه إحسان الجابري ومرافقه الخاص تحسين قدري وطبيبه الخاص أحمد قدري، والأمير عادل أرسلان وسعيد عمون، وكاتب هذه الأسطر. ولم يصطحب من وزرائه سوى ساطع الحصري وكان في وداعه في المحطة عدد قليل من المواطنين.

أمّا ما حصل في حمص وحلب: فالفرنسيون كانوا قد خصصوا قوات للاستيلاء على كلّ منهما كما ذكرنا وأثناء عمليات قواتهم الرئيسية في التقدم إلى دمشق، كانت كلّ من هاتين القوتين تتقدم للاستيلاء على هدفها.

في حمص

كانت القوة التي في حمص نحو فوج مشاة وبطارية مدفعية بقيادة الزعيم زكي العظمة، وقد وصله أمر التسريح متأخراً حيث أعقبه أمر عدم التسريح والاستعداد

لمجابهة الفرنسيين إذا ما تقدّموا نحو حمص. وعندما علم القائد بتقدم القوة الفرنسية المحتشدة في منطقة تل كلخ، جمع قواته لمقابلتهم وتقدّم على الطريق المتجه إلى تلّ كلخ ولحق به عدد من الأهالي المسلحين الذين دفعتهم الغيرة الوطنية وعدد من خيالة الدنادشة، وعدد كبير من العشائر البدوية برئاسة الشيخ ابن مجلاد. وخرجت هذه القوة من حمص وعلى رأسها قائد موقع حمص الزعيم العظمة: المشاة ثم المدفعية ثم الأهالي المتطوعة، وفي المؤخرة البدو بقيادة ابن مجلاد. أما خيالة الدنادشة، فكانوا في مقدمة الجيش. وفي المساء بات الجند في موقع متوسط بين حمص وتل كلخ، دون أن تكون لدى القائد فكرة تهيئة موضع دفاع. وفي صباح اليوم التالي تقدّموا على الطريق باستقامة تلّ كلخ، ولم يمرّ وقت كبير حتى شاهدوا طليعة الجيش الفرنسي تتقدّم، ففتحت المدفعية نيرانها عليهم دون أن تكون هناك خطة معينة، كأن القصد هو إطلاق مدافع. ونفدت القذائف القليلة وبنفادها انتهت واجبات جميع الجيش وبدأ التراجع غير المنتظم، وبطبيعة الحال جرف معه المتطوعة من أهالي حمص والدنادشة. وهكذا انقلب هذا التراجع إلى هزيمة. وهنا بدأت واجبات البدو. إنّ عقوبة الهزيمة بعرف البدو، في كل وقت وزمان وظروف ومكان، هي السلب، يجب عليهم أن يسلبوا جميع المنهزمين، فلم يَدَعوا أحداً يفلت من أيديهم.

وعند العصر وصلت سرية خيالة فرنسية بقيادة كابتن وهي السرية التي كانت في مقدمة الجيش الفرنسي، وقد شاهدوها وهي تتقدم في الشارع الرئيسي، وفي مقدمتها قائدها الكابتن شاهراً سيفه، ويسير بجانب حصانه على قدميه قائد موقع حمص الزعيم العظمة. إن هذا الكابتن لم يطلب قائد الموقع ولا فتش عنه، وكان بإمكانه أن يغرب عن الأنظار أو ينسحب إلى خارج البلدة، ولكنه حضر حسب تفكيره لأجل أن يسلمه ما في عهدته من أمكنة ومهمات كي لا يكون مسؤولاً عنها في المستقبل.

وبهذه الصورة المخزية دخل الفرنسيون حمص دون قتال.

في حلب

فقد حدثني عمّا وقع فيها مساعد لواء الفتح، وهو الملازم الأول شمس الدين علي (وفيما بعد الزعيم قائد المخابرات العسكرية في الجيش العراقي). ولواء

الفتح هذا هو من الهجانة والذي قاتل الجيش التركي في حوران، واشترك في هزيمته فدخل دمشق في أعقابه، ثم قام بمطاردته حتى وقوع الهدنة في شمال حلب. وبعد الهدنة تحوّل إلى لواء خيالة، وسُمّي بلواء الفتح، وكان قائده العقيد تحسين علي (وزير دفاع في الجيش العراقي فيما بعد)، وكان معاونه الرائد الركن بكر صدقي (الفريق قائد الفرقة، ثم وزير الدفاع وهو صاحب الانقلاب العسكري الأول في العراق سنة 1936).

يقول محدّثي أنه عندما وصلت أوامر تسريح الجيش، وجرى التسريح تلكّأ قائد اللواء بذلك، ولم ينفذ الأمر. ولمّا صدر أمر إلغائه والتهيؤ للحرب، كان أمر التسريح في قطعات الفرقة قد نُفّذ، ولم يبقَ سوى هذا اللواء وبطارية المدفعية الملحقة به قبل أمر التسريح. وكان اللواء معسكراً خارج المدينة. واتصل قائده برؤساء عشائر البدو التي كانت تتجمع، وبدأ بتهيئة الخطّة الدفاعية تجاه القطعات الفرنسية التي كانت تتقدم نحو حلب. وفي هذا الوقت الذي لم يبقَ فيه قطعة من وحدات الفرقة النظامية سالماً، قام العملاء الخونة الذين باعوا أنفسهم إلى الأعداء بما عهد به إليهم، فنشطوا في إذاعة البلبلة وروح الهزيمة بين الضباط والجنود، وأشاعوا أن قائد اللواء ومعاونه وباقي الضباط العراقيين لا يهمهم أمر سوريا، وأنهم سيسبّبون بقتالهم الفرنسيين الضرر للبلاد التي لا يهمهم أمرها، وينسحبون إلى بلادهم. وفعلت هذه الدعاية فعلتها في ضعاف النفوس، فخارت عزائمهم وبدؤوا بمغادرة المعسكر حتى وصل الأمر ببعض الضباط من هؤلاء أن أعلن رأيه وتمرّده، وذكر لي محدثي أسماء اثنين منهم قائم سرية الرشاش سعد الله الذي كان معاوني قبل أن أنتقل إلى دمشق، وهو الضابط الذي اعترف لي بخيانته بعد سنوات كما مرّ. والضابط الثاني اسمه الملازم ملك. وهكذا بقي الضباط العراقيون وحدهم في اللواء فاصطحبوا عائلاتهم وتوجّهوا إلى دير الزور ومنها إلى الموصل فبغداد، وتفرّقت العشائر ودخل الجيش الفرنسي حلب بلا قتال.

غورو

يوسف العظمة

ساطع الحصري

صبحي العمري

معركة ميسلون
للمؤرخ إحسان هندي
دمشق 1967

صحّ لفرنسا ما سعت إليه طويلاً؛ حيث أصدر مجلس الحلفاء الأعلى المنعقد في سان ريمو بين 19 و26 نيسان 1920 قراره «بإسناد مهمة الانتداب على سورية ولبنان إليها»، ولذا بدأت بالتحضير لهذه المهمة بكل قواها. والحقيقة أنّ الحكومة الفرنسية أخذت تستعدّ لتنفيذ الانتداب وكأنه عملية احتلال عسكرية كاملة، فعقدت هدنة مع تركيا في آخر يوم من شهر أيار عام 1920 وأرسلت نجدات عديدة إلى الشرق خلال الشهر التالي، وفوّضت الجنرال غورو مفوّضها السامي في الشرق بأن يرسل إنذاراً نهائياً إلى فيصل لوضع النقاط على الحروف فيما يتعلّق بتنفيذ الانتداب على سورية، فوضع غورو الخطوط العريضة للإنذار وبدأ يستعدّ لإرسالها إلى الملك فيصل في دمشق.

وفي أوائل تموز 1920 عاد الملك فيصل يفكر بالتعجيل بالسفر إلى أوروبا لعلّه يتوصل إلى تلطيف الجو بعض الشيء مع فرنسا، ولو أدى الأمر إلى بعض التنازلات، وذلك أملاً باعتراف هذه الدولة بنظام الحكم الجديد في سورية والتوصّل إلى تسوية نهائية بين الدولتين. ولذا فقد قام بإرسال السيد نوري السعيد إلى بيروت يوم 9 تموز 1920 لكي يطلب من غورو إعداد وسائل سفر الملك إلى أوروبا لعرض القضية السورية مجدّداً على مؤتمر الصلح لبحثها مع الحكومة الفرنسية هناك، فكان جواب غورو للسعيد أنه أعدّ إنذاراً رسمياً سيرسله إلى دمشق بعد بضعة أيام، وأنّ سفر الملك فيصل متوقف على شروط الإنذار، وأنّ الحكومة الفرنسية سوف تسحب اعترافها بأيّة صفة يمثلها فيصل فيما لو قام بالسفر إلى أوروبا عن غير طريق ميناء بيروت.

وقد رافق هذا الإنذار الشفهي قيام الفرنسيين باحتلال المعلقة ومحطة رياق، التابعين للمنطقة العربية، بقوة فرنسية ضخمة كان يقودها الكابيتين «هاك» حاكم زحلة العسكري، كما تقدّمت قوّة أخرى من جرابلس حتى شمال حلب وعسكرت على نهر الساجور في موقع المسلمية الذي يقع ضمن أراضي المنطقة العربية أيضاً.

وحمل نوري السعيد الإنذار الشفهي المذكور صباح 11 تموز إلى الملك فيصل الذي جمع حالاً حكومته لدراسة الوضع، وتم في هذا الاجتماع تطيير البرقية التالية إلى الجنرال غورو في مساء اليوم نفسه:

نقل إليّ اللواء نوري السعيد ما دار بينكم وبينه من حديث بشأن الإنذار الذي ستوجهونه إليّ بواسطة الكولونيل كوس ولم يصل حتى الآن. إنّ احتلال سكّة حديد حلب - رياق الواقعة ضمن المنطقة الشرقية مخالف على خطّ مستقيم لمذكرة 15 أيلول 1919 الخاصّة بجلاء الجيش البريطاني عن البقاع، وللاتفاقات التي عقدت بعد ذلك بين المسيو كليمنصو وبيني مدة إقامتي في باريس.

وكانت ردّة الفعل العربية العسكرية على احتلال المعلقة ورياق هي إرسال قوة عسكرية رابطت في قرية مجدل عنجر التي تقع على طرف سهل البقاع ، وأما ردّة الفعل السياسية فكانت حين أرسل سكرتير الملك إلى قنصل إيطاليا العام في دمشق المركيز باتيرنودي مانكي، بصفته عميد القناصل في المدينة ، مذكرة وذلك كي يبلّغها إلى زملائه من جهة، وإلى حكومته وجمعية الأمم من جهة ثانية ، وكانت هذه المذكرة تقول:

لقد احتلت رياق قوة فرنسية بقيادة الكابتن هاك، حاكم زحلة العسكري، ووصلت قوة أخرى إلى نهر الساجور، وقد حدثت هذه الحوادث فجأة من دون إطلاعنا عليها قبل وقوعها، وهي لا تتفق مطلقاً مع التأكيدات التي نلناها بالمحافظة على الحالة الحاضرة. ورغبة منّا في إنقاذ السلام وفي المحافظة

على روابط الصداقة والود بيننا وبينهم، نأسف بإبلاغكم بأننا نعتبر الحركة الجديدة للجيش الفرنسي في داخل منطقتنا عملاً عدائياً تقع تبعته على عاتق مسببه.

وأشفع سكرتير الملك هذه المذكرة بإعلان يؤكد أنّ الحكومة العربية مستعدّة بعرض الأمر على لجنة تحكيم دولية لحسم هذه المشكلة حقناً للدماء ودفعاً لخراب البلاد. وفي اليوم التالي (12 تموز) تلقّى الملك الردّ التالي من معتمدة فرنسا في دمشق:

طلبتم بتاريخ 10 تموز معلومات عن ماهية الحركات العسكرية التي اقتضت وصول قطارات مشحونة بالجنود الفرنسية إلى المسلمية، فليَ الشرف أن أبلغكم، كما بسطتُ لمرافقكم من قبل، أن الجنرال غورو أعلن أنّ ما جري كان عبارة عن إبدال جنود المخافر الأمامية أمام جرابلس بجنود غيرها. وأن الجنرال أبلغني إعلام سموكم الملكي أنه بسبب احتلال قوة من الجنود السورية لمجدل عنجر فإنه اضطر لاحتلال المعلقة ورياق الواقعتين في البقاع أيضاً.

ورغبة من فيصل بسدّ الطريق أمام تذرّع الفرنسيين باحتلال القوات العربية لمجدل عنجر، مما سبّب احتلالهم المعلقة ورياق، لذا وجّه الجواب التالي للجنرال غورو عن طريق معتمده في دمشق:

لقد اتخذت مجدل عنجر، الواقعة بين وادي الحرير وبين صحراء الديماس ودمشق من جهة وبين البقاع من جهة أخرى، وبحكم وضعها الجغرافي كمركز مهم من مراكز اجتماع الجيوش منذ احتلال الحلفاء للمحافظة على الأمن في المقاطعة كلها، وهي في الوقت نفسه الممرّ الطبيعي للقبائل في غدوها ورواحها بين الشرق والغرب، الأمر الذي يبعث السلطات السورية على التمسّك بها والمحافظة عليها. ولقد عزّزت القوات المرابطة فيها على أثر الأخبار المزعجة الواردة في الأيام الأخيرة عن حشد الجيوش على حدود منطقة الاحتلال الفرنسي، ولذلك لا يمكن اعتبار ما جرى سوى تدبير دفاعي رأت الحكومة

السورية أنّ الواجب يقتضي عليها باتخاذه من باب الاحتياط فقط. فاجتناباً لكلّ سوء تفاهم، ولمّا كنتم تسوّغون احتلال المعلقة والرياق وصول القوّة إلى مجدل عنجر أبلّغكم بأنني مستعدّ لتخفيض قواتنا وإعادتها إلى ما كانت عليه من قبل إذا كنتم تدلّلون على شعوركم الودي بالجلاء عن الملعقة والرياق المحتلة من قبل جيوشكم.

ولكنّ هذا العرض المسالم بقي بدون جواب من الجنرال غورو. وقد وصل خبر الإنذار الشفهي واحتلال الرياق والملعقة إلى أعضاء المؤتمر السوري فالتأم جمعه يوم 13 تموز 1920، حيث قام وزير الحربية يوسف العظمة وبحضور رئيس الوزراء هاشم الأتاسي ووزير الخارجية الدكتور عبد الرحمن الشهبندر بإلقاء بيان الحكومة عن الموقف وانتهى هذا البيان كما يلي:

فحكومتنا التي احتجّت على معاملة الجنرال غورو التي لا تتلاءم مع التّحالف وطلبت إحالة القضية إلى التحكيم الدولي تعلم للأمة من هذا المنبر ما يأتي:

1- نحن لا نريد إلا السّلم والمحافظة على شرفنا واستقلالنا الذي لا نرضى ولا نحتمل أن تشوبه شائبة.

2- نحن براء من كلّ تهمة نوصم بها ويراد بها الإيهام بأننا نريد العبث بصِلاتنا الودّية مع حليفتنا أو حلفائنا.

3- نحن لا نرفض المفاوضة ونحن مستعدون للدخول فيها، وها أن الوفد برئاسة جلالة الملك مستعدّ للسفر إلى أوروبا، ونحن نقبل كلّ حلّ لا يمسّ استقلالنا وشرفنا ويكون مبنياً على أساس الحقّ والاستقلال.

4- إننا مستعدّون كلّ الاستعداد ومصمّمون كلّ التصميم على الدفاع عن شرفنا ووحدتنا بكلّ ما أعطانا الله من قوة.

هذا هو الموقف الحاضر أيها السادة وقد بسطناه لحضراتكم والله معنا إذ نحن لا نريد سوى حقّنا بالحياة والدفاع عن كياننا.

وبالإضافة إلى هذا البيان الحكومي في المؤتمر فإنّ الوزارة أقرّت بعد جلسة غير عادية عقدتها في اليوم نفسه إعلان الإدارة العرفية في جميع أنحاء البلاد. وفي يوم 14 تموز – عيد الحرية في فرنسا – قدّم الكولونيل نيجر من بيروت إلى دمشق، حيث قام بعد ظهر ذلك اليوم بصحبة الكولونيل كوس، بمقابلة الملك فيصل وقدّم له إنذاراً خطياً موجهاً من الجنرال غورو، وهو الإنذار الذي كان السيد نوري السعيد قد أنبأه بقرب وصوله، وقد حوى هذا الإنذار في مقدمته سيلاً من الاتهامات التي تأخذها فرنسا على حكومة دمشق: من مناصبة قواتها العداء وتغذية العصابات الثورية وإساءة معاملة أنصار الانتداب الفرنسي، إلى تشجيع الصحافة السورية على شنّ الحملات ضدّ فرنسا ، وعدم السماح للسلطات الفرنسية باستعمال خطّ رياق – حلب، ومنع وصول الحبوب من المنطقة الشرقية إلى المنطقة الغربية. ثم يتعرض الإنذار لشرعية ملكية فيصل بقوله:

بمقتضى هذه الحقوق يترتّب على قائد جيش الحجاز (أي فيصل) المحتلّ للقطر السوري الذي لابدّ له أن يظلّ عثمانياً إلى أن يقضي مؤتمر الصلح بخلاف ذلك، ألّا يعمل بغير هذه الصفة وأن يحافظ على الحالة الراهنة وهو حارسها، ولكنّه تصرّف عكس ذلك متخذاً صفة السيادة العليا. وقد تقرّر التجنيد الإجباري ونفذ منذ كانون الأول 1919 مع أن البلاد ماتزال بلاداً أجنبية، وهذا العبء الثقيل الذي لا يُجدي نفعاً قد أُكره عليه الشعب، حتّى في المناطق التي لها شكل خاص كالبقاع، ونفذ في أناس مستثنين منه كاللبنانيين والمغاربة المقيمين في المنطقة الشرقية.

ثمّ إنّ المجلس الملقب بالمؤتمر الوطني السوري الذي تألّف واجتمع بصورة غير قانونية يسنّ القوانين، بل ويحكم باسم حكومة ودولة لم يعترف أحد بوجودها، وفضلاً عن ذلك فقد قُدّم اللقب لسموكم بلا حق ولا وكالة مما جعلكم في موقف المتمرد على مؤتمر الصلح.

ثم يطلب الإنذار تنفيذ الشروط الخمسة التالية:

1- وضع سكة حديد (رياق – بعلبك – حمص – حماه – حلب) تحت تصرّف الموظفين العسكريين الفرنسيين بشكل مطلق والسماح لمفارز عسكرية فرنسية باحتلال هذه المحطات لإقرار الأمن فيها، واحتلال مدينة حلب التي تشكّل عقدة مواصلات رئيسية لا يصحّ تركها تقع في أيدي الترك.

2- إلغاء التجنيد الإجباري والعودة بالجيش إلى التشكيل والعدد الذين كانا له في أول كانون الأول المنصرم.

3- قبول الانتداب الفرنسي الذي سيحترم استقلال الشعوب السورية. ولا يشمل الانتداب الفرنسي إلا مساعدة ومشورة ولن يأخذ مطلقاً شكل الاستعمار والإدارة المباشرة.

4- قبول التعامل بالنّقد السوري واعتباره النّقد الوطني للبلاد، وإلغاء جميع القيود التي وضعت في وجه بنك سورية.

5- معاقبة المسيئين الذين قاموا بأعمال عداء تجاه فرنسا.

وبالنهاية يختم غورو إنذاره على الشكل التالي:

إنّ هذه الشروط تقدّم جملة وينبغي قبولها جملة أيضاً دون أية تجزئة، وخلال أربعة أيام تبتدئ من منتصف ليلة 15 تموز وتنتهي في 19 منه الساعة 24. فإذا جاءني من سموكم قبل انقضاء هذا الموعد إعلان يشعر بقبول هذه الشروط فينبغي أن تكون أوامركم قد صدرت في الوقت نفسه إلى السلطات المختصة بعدم معارضة جنودي الزاحفة لاحتلال المواقع المشار إليها سالفاً.

وإن لم يشعرني سموكم في الوقت المحدد بقبول هذه الشروط فإني أتشرف بإبلاغكم بأن الحكومة الفرنسية ستكون مطلقة اليد في العمل، وفي هذه الحالة لا أستطيع أن أؤكد بأن الحكومة الفرنسية ستكتفي بالضمانات المعتدلة المشار إليها أعلاه

وقد كان وقع الإنذار شديداً على نفوس السوريين؛ فهم وإن كانوا لا يجهلون النوايا السيئة التي تحملها فرنسا، فإنهم لم يكونوا يتوقعون مثل هذه الشروط

القاسية التي تجعل من استقلال سورية أثراً بعد عين. وكان الرأي السائد لدى المعتدلين والساسة المحنّكين هو قبول الإنذار الفرنسي ولذا أشاروا على الملك بقبوله. أمّا المؤتمر السوري فكان أغلب أعضائه ينادون بالدفاع عن شرف البلاد مهما كلّف ذلك، وقد أيّدهم الرأي العام في مواقفهم كلّ التأييد؛ إذ كانت الهتافات والنداءات بسقوط المتساهلين تملأ الشوارع.

وراجت الإشاعات في أوساط دمشق السياسية والوطنية عن اتجاه الحكومة لقبول الإنذار، وهذا ما دعا المؤتمر السوري لعقد جلسة صاخبة في 15 تموز، وقد حمل الخطباء في هذه الجلسة على الحكومة بشدّة، ونادوا بضرورة التمسّك بقرار المؤتمر القاضي بالدفاع عن الاستقلال التامّ مهما كان الثمن، خاصّة وأنّ الحكومة كانت قد نالت ثقة المجلس لها على هذا الأساس . وختم المؤتمر جلسته هذه بقرار يطلب فيه من الحكومة إقرار اقتراحاته الآتية ونشرها على الأمة:

1- الاستقلال التام والوحدة السورية ورفض الهجرة الصهيونية.

2- ملكية الملك فيصل على الأساس النيابي الدستوري.

3- إبقاء المؤتمر منعقداً يراقب أعمال الحكومة المسؤولة أمامه إلى أن يجتمع مجلس النواب بموجب القانون الأساسي (أي الدستور) الذي كان المجلس قد فرغ من صياغته، وانتهى القرار إلى التأكيد أنّ المؤتمر السوري المجتمع باسم الأمة السورية لا يعترف بأيّة معاهدة أو اتفاقية تتعلق بمصير البلاد مالم تصادق عليها.

وقد اتخذ المؤتمر هذا القرار أو بالأحرى هذا التأكيد لقراره التاريخي، وأذاعه في السابع عشر من شهر تموز 1920، فما كان من الملك وقد رأى هذا القرار – وفي اكفهرار الجو السياسي ما لا يتفق مع سياسته السلمية – إلا أن دعا أعضاء المؤتمر إلى الاجتماع في حديقة قصره، وهناك أخذ يشرح العوامل السّياسية والعسكرية التي أهابت به إلى الجنوح لخطته السلمية، فاستنكروا ذلك وعدّوه خروجاً عن إرادة الأمة، وعبثاً حاول إقناعهم أو زحزحتهم عن الموقف الذي اتفقوا جميعاً على المضيّ فيه حتى النهاية. وانفضّ الاجتماع دون أن يسفر عن نتيجة ما.

ورغماً عن قرار المؤتمر هذا وعن موقف الشعب بجميع طبقاته من الإنذار، فقد انصاع الملك والحكومة لقبوله في 15 تموز 1920 لسببين مهمين:

الأول: أرادت الحكومة العربية أن تقف بجدّ وصراحة على رأي اللورد أللنبي قبل البتّ في الأمر، فانتدبت اللواء نوري السعيد والأمير عادل أرسلان للقيام بهذه المهمة. فسافرا إلى حيفا وقابلا هناك اللورد أللنبي الذي كان يزور فلسطين بمهمة رسمية واستشاراه، فأشار عليهما بسرعة قبول الإنذار بلا تردّد، وزاد على ذلك بأن حرّر إلى الملك كتاباً خاصّاً يصرّ عليه فيه بضرورة النزول عند حكم الإنذار، وذلك تفويتاً للغاية التي يسعى إليها غورو وهي دخول دمشق دخول الغزاة الفاتحين. وفي الوقت نفسه أرسل اللورد أللتبي إلى المعتمد الإنكليزي في دمشق، الكولونيل إيستون، برقية لكي يقوم بدور الوسيط ما بين الفرنسيين والملك فيصل لقبول الإنذار.

الثاني: حين وصل الإنذار الشفهي يوم 11 تموز 1920 بدأت حكومة دمشق باتخاذ التدابير العسكرية الدفاعية؛ فأعلنت الإدارة العرفية في البلاد، كما سبق وقلنا، وعيّنت الأمير زيداً قائداً عاماً للجيش السوري، فقام هذا بتقسيم البلاد إلى جهات وتعيين قادة لهذه الجهات، وعيّن ياسين الهاشمي قائداً لجهة مجدل عنجر وحامية دمشق، ويحيى حياتي قائداً لمنطقة حمص وحماه، وثبّت محمد إسماعيل الطباخ في قيادة فرقة حلب، وإسماعيل الصفار في قيادة فرقة درعا. إلا أنّ الهاشمي اعتذر عن القبول، ولمّا سُئل عن السبب، أجاب بأنّ البلاد لا تستطيع الوقوف أمام الجيش الفرنسي الزاحف لأن مستودعات الجيش ليس فيها أسلحة وذخائر كافية. وكان لهذا الجواب وقع الصّاعقة على الملك ورجال الحكومة لمّا نقله إليهم الأمير زيد، فاستُدعي الهاشمي يوم 15 تموز 1920 لمقابلة الملك، حيث أعاد عليه ما قاله لأخيه الأمير زيد، ودعم قوله بالاستشهاد بأنّ ما في مستودعات الذخيرة العامّة لا يزيد عن مائة وخمس وعشرين طلقة لكل بارودة وثمانين قنبلة لكل مدفع، وأنّ أغلب هذه الذخيرة من فئات متضاربة الأنواع والعيارات ممّا يجعل قسماً كبيراً منها غير صالح للاستعمال، ولمّا سأله الملك عن سبب قلة الذخيرة أجابه:

ومن أين نأتي بالذخيرة؟ إنّ القوات الفرنسية تحتلّ الموانئ الشمالية، والقوات الإنكليزية تحتلّ الموانئ الجنوبية، والأردن والعراق يحتلان من قبل إنكلترا، وتركيا بحالة حرب مع الحلفاء؛ فمن الصعب أن تصلنا أيّة ذخيرة حتى لو وجدنا من يبيعنا إياها في الخارج.

وهنا سأل فيصل وزير حربيته يوسف العظمة عن رأيه في الموضوع فأجاب بعصبية:

إنّ ما قاله الهاشمي غير صحيح، وإنّ الجيش بوسعه الدفاع، وإنه سيقود الدفاع بنفسه، ولم يقل إنّ الجيش قادر على ذلك أو غير قادر، أو أنّ السلاح موجود أو مفقود.

وإزاء هذا التضارب في الرأي قام الملك بعقد مجلس حربي يوم 16 تموز 1920 وحضره الوزراء (ماعدا العظمة) وضباط القيادة العامة. ولمّا سأل الملك هؤلاء الضباط عن مدى استعداد الجيش للمعركة اختلفت أجوبتهم، وعندها طلب الملك منهم رأياً خطياً يكون باتاً في الموضوع، فاختلوا لمدة ربع ساعة ثمّ قدّموا للملك جوابهم الجماعي، وفي مضمونه أنّ بإمكان الجيش أن يقاوم بضع ساعات إذا كانت المعركة غير جدّية، أما إذا كان القتال حامياً فليس باستطاعة الجيش أن يصمد حتى ساعة واحدة.

هذه إذاً هي الحقيقة! هذه هي الحقيقة المرّة المؤلمة التي أجبرت الملك وأعضاء حكومته على قبول الإنذار، ولم يكن هناك أيّ تساهل أو أيّة خيانة كما حلا لبعض الكتاب أن يقولوا، وحتى يوسف العظمة، الذي كان من رأيه دوماً أنّ الجيش وجد ليقاتل ولو كانت نتيجة المعركة ستكون ضدّه اضطرّ لمجاراة رفاقه في الحكومة ورضخ أخيراً للموافقة على قبول الإنذار، وكان هو من قرأ مرسوم حلّ مجلس (المؤتمر السوري) بعد يومين، كما سيمرّ معنا في حينه.

وسطّر الملك وأعضاء حكومته كتاب قبول الإنذار مساء 17 تموز وسلّمه في صباح اليوم التالي إلى الكولونيل تولا رئيس البعثة الفرنسية في دمشق، فأجابه غورو يوم 19 منه بالبرقية التالية:

لي الشرف أن أتسلّم كتابكم المرسل بواسطة الكولونيل تولا، والمنبئ بقبولكم شروطي مبدئياً وشخصياً فأذكر سموكم الملكي أنّ المقصود من مذكرة 14 تموز ليس قبولها فحسب، بل هو تنفيذ أحكامها بإجراءات رسمية تتخذ قبل 18 منه، على أن ينفذ ما ورد فيها من الأحكام قبل المدّة المحدّدة عند منتصف الليل. ولمّا كنت قد مددت المهلة 24 ساعة إجابة لطلب سموكم الملكي، فقد أكون محقاً إذا لم أمدّدها مرة أخرى قبل ان أتلقّى نبأ القبول رسمياً وفعلياً من جانب سموكم بالإجراءات المشار إليها في الفقرة الرابعة من مذكرة 14 تموز. ولكي أدع لكم وقتاً كافياً لقبول المطالب الرسمية وتنفيذها فعلاً، فقد قرّرت ألّا تتحرك جيوشي قبل تموز عند منتصف الليل.

ولم يكن هناك مبرّر لكي يبعث غورو بهذه البرقية لأنّ الحكومة العربية كانت قد بدأت فعلاً بتنفيذ بعض أحكام الإنذار؛ إذ أمرت بتسريح الجيش يوم الإنذار. لقد أمرتْ بتسريح الجيش يوم 18 تموز، وأخلتْ مجدل عنجر وأخذتْ بتنفيذ برقية الشروط. ولكنّ المؤتمر السوري وقف للحكومة بالمرصاد؛ إذ أنه عقد جلسة غير عادية في يوم الاثنين 19 تموز وكانت الجلسة في البداية سرّية ثم تقرّر أن تكون علنية. وقال رئيس المؤتمر ردّاً على سؤال بعض النواب إن الحكومة قد استدعيت من جديد إلى المؤتمر فلم تلبّ الطلب؛ إذ أجاب رئيسها بأنها تنتظر عودة الرسول الذي انتدبته إلى بيروت لمفاوضة الجنرال غورو في شأن الشروط الواردة في إنذاره، ولذلك لا فائدة من مثولها أمام المجلس إلّا بعد عودة الرسول. وتكلم بهذه الجلسة كثير من الخطباء، ثمّ وافق المؤتمر على اقتراح لأحد النواب، وقرّر طبعه وتوزيعه على الأمة. ويبدأ هذا الاقتراح بتذكير الحكومة بأنّها لم تنلْ ثقة المجلس إلّا بعد أن أكدت بأنها حكومة دفاعية، ثم ينتهي بهذه العبارات:

فالحكومة الحاضرة إذا خالفت بيانها الرسميّ ولم تقم بواجبها تجاه البلاد وأرادت أن توقّع على صكّ يخالف قرار المؤتمر، فالمؤتمر يعتبرها بتوقيعها هذا غير شرعية والصكّ غير صحيح، ويحمّل أشخاص الوزارة كلّ تبعية ومسؤولية تجاه الوطن ويعتبر أن البلاد مستقلّة استقلالاً تاماً كما جاء في قراره التاريخي واستند فيه على حقّها الطبيعي والشرعي وجهادها المديد، وأنّ كلّ مداخلة

أجنبية في البلاد هي غير مشروعة سواء وقعت بالقوة أو بموافقة أشخاص لا نيابة لهم عن الأمة تخوّلهم هذا الحقّ ويحقّ للأمة السورية أن ترفضها في كل وقت، وهو يشهد العالم المتمدّن على بيانه هذا ويرفعه لمعتمدي الدول.

وإثر هذه الخطوة من المجلس بسحب الثقة علنياً من الحكومة في حال قبولها الإنذار، قامت الحكومة في اليوم التالي (20 تموز) بإصدار مرسوم علّقت به جلسات المؤتمر لمدّة شهرين، وقد تلا هذا المرسوم وزير الحربية يوسف العظمة بنفسه بوجود رئيس الحكومة، ولمّا حاول بعض النواب اعتلاء منصّة الخطابة للاحتجاج على التعطيل صرخ العظمة مهدّداً وأشار لهم بالانصراف فانصرفوا.

وكان لقرار تعليق جلسات المؤتمر عواقب وخيمة تماماً من الناحية الداخلية، حيث أنّ النواب المخلصين لم يجدوا أمامهم حينذاك إلا الشارع؛ فذهب كلّ منهم إلى منطقته ليحمّس جماهير الشعب ويحضّها على الجهاد ضدّ الفرنسيين والمتساهلين معاً؛ بل ذهب بعض النواب المتطرّفين إلى حدّ المطالبة بإحالة الحكومة إلى «الديوان العالي» لمحاكمة أعضاءها بتهمة الخيانة. وكان فيصل قد تلقّى في صباح ذلك اليوم نفسه 20 تموز كتاباً من الكولونيل كوس يقول فيه:

طلب إليّ الجنرال غورو أن أُشعر باستلام ردّ سموكم الملكي المرسل أمس بواسطتي وأعرب عن ارتياحه للاعتبارات الحكيمة التي أملت هذا الردّ. وينتظر الجنرال الآن وصول تثبيت كتابي مفصّل يتضمّن جواباً ملائماً لما ورد في مذكرة 14 تموز ذاكراً الشروط المدرجة في تلك المذكرة ومعلناً قبولها.

فقام الملك، تنفيذاً لفقرات هذا الكتاب، بتدبيج مذكرة جديدة إلى غورو وتضمنت تعداداً لشروط الإنذار المعروفة واستعداد فيصل لتنفيذها، وقد أنهى المذكرة بالعبارات المسالمة التالية: «ولن يطول الوقت حتى تدرك الحكومة الفرنسية أنّ هذه الأزمة الشديدة التي اجتزناها لم تكن سوى نتيجة سوء تفاهم واسع النطاق بينها وبين الشعب السوري الذي قاتل جنباً إلى جنب مع الحلفاء وضحى في سبيلهم».

وسلّم الملك المذكرة المشار غليها في الساعة الخامسة وخمسين دقيقة من مساء يوم 20 تموز، أيّ قبل انتهاء المهلة الجديدة بأكثر من ست ساعات على الكولونيل كوس المعتمد الفرنسي في دمشق ليبلغها إلى الجنرال غورو. ولا نعلم لماذا أهمل كوس تبليغ هذه المذكرة مباشرة إلى غورو رغم ما يوجد من وسائل متعددة لإيصالها إلى بيروت التي لا تبعد عن دمشق أكثر من ساعتين بالسيارة، ولكن الذي نعلمه أنه احتفظ بهذه المذكرة واكتفى بإرسال برقية بمضمونها على غورو عن طريق مكتب البرق في دمشق، فتأخّر وصول هذه البرقية لعطل طارئ في الأسلاك ذلك اليوم.

وتفصيل ذلك أنه عندما استلم موظفو البرق في دمشق برقية الكولونيل كوس، رأوا أن الأسلاك البرقية متوترة بين دمشق وبيروت وذلك في الساعة الثامنة مساء بعد نصف ساعة من استلامها من مرسلها، فجنحوا حبّاً بإيصالها إلى مرجعها إلى طريق النبك – حمص – البقاع ؛ فاتصلوا مع مركز البقاع بعد عناء شديد قبيل منصف الليل وأطلعوا الموظف المناوب أن يستلمها فيبعث بها إلى صاحبها فاعتذر هذا عن قبولها بأن ضابطاً فرنسياً يبرق من الجنرال غورو على الكولونيل كوس برقية هامة ينتظر الجواب عليها سريعاً (.....) ولذلك فهو يمتنع عن أخذها.

وتذرّع الجنرال غورو بتأخّر البرقية ليبرّر إقدامه على إصدار الأمر لجيوشه بالزّحف إلى دمشق في الساعة صفر من يوم 21 تموز 1920 بحجّة عدم إجابة فيصل على إنذاره في المدّة المحددة.

والحقيقة أنّ غورو كان يصطنع كلّ يوم عذراً جديداً ليتقدم بشروط جديدة غيته منها أن ترفض الحكومة العربية قبولها ليسير جيوشه على دمشق. فلقد كانت القضية تتلخص بالنسبة إليه بطريقين لا ثالث لهما يؤديان على هدف واحد وهو احتلال دمشق سواء باتباع الطريق الأول السلمي أو باتباع الطريق الثاني بدخولها حرباً. بل بوسعنا أن نقول إنه كان يميل لاتباع الطريق الثاني ألا وهو احتلال دمشق حرباً، والأدلة على ذلك هي التالية:

أولاً: نفسية «الفاتح» التي جُبل عليها الجنرال غورو، كما هو معروف في ماضيه، خاصّة وأنه كان يعلم أن الجيش السوري الوليد لا يستطيع في ذلك الوقت وتلك الظروف الوقوف أمام قواته الجرارة.

ثانياً: قيامه منذ أوائل شهر نيسان 1920 بتجميع القوات الفرنسية في بيروت بهدف الزحف على دمشق.

ثالثاً: كان غورو يعلم فعلاً ورسمياً بأن حكومة دمشق بدأت بتنفيذ شروط الإنذار في صباح 18 تموز.

رابعاً: سلمت مذكرة القبول الجديدة على الكولونيل كوس، معتمد غورو في دمشق قبل انتهاء مدة الإنذار بوقت كاف؛ فمسؤولية إيصال البرقية من المعتمد إلى رئيسه تقع على عاتق القيادة الفرنسية وليس الحكومة العربية.

خامساً: لقد أعطى الجنرال غورو مهلة تنتهي في منتصف ليلة 21 تموز، والمفهوم العسكري لمنتصف ليلة معينة هو الساعة 24 منها وليس الساعة 0؛ أي أنّ مهلة الإنذار يجب أن تنتهي مبدئياً في منتصف ليلة 21/22 وليس في منتصف ليلة 20/21 كما حدث.

وقد كانت ليلة 20/21 ليلة حاسمة في مجرى الأحداث، ليس لأنّ القوات الفرنسية تحرّكت فيها باتجاه دمشق فحسب، بل لأنّ أحداثاً خطيرة وقعت في قلب دمشق نفسها في تلك الليلة أيضاً. وتفصيل ذلك أنّ الشعب سمع بأنباء قبول الإنذار وحلّ المجلس (المؤتمر السوري) من أفواه النواب المتحمّسين، فهاج هياجاً عظيماً لأنّه اعتقد بخيانة الملك وأعضاء الحكومة معاً، وقامت المظاهرات تملأ الشوارع الرئيسية في العاصمة، وكان بعض المتظاهرين يرسلون حناجرهم باتهام فيصل بالاشتراك مع حكومته بخيانة شائنة، واقتربوا من القصر الملكي فسمع فيصل هتافاتهم ضده فتأثّر تأثُراً عظيماً وقال مهتاجاً:

أهذه هي مكافأتي على جهودي التي طالما بذلتها في سبيل بلادي؟ فأهدّدُ بالقتل وأوصم بوصمات يعلم الله اني بريء منها؛ ألا ليت زعماء المتظاهرين

الآن كانوا قد أصغوا لنصائحي واتبعوها بإعداد المعدات للدفاع والكفاح إذاً لما تورّطنا في موقفنا الحرج، ولما انتهينا إلى هذه العاقبة الأليمة.

وهاجم المتظاهرون عند المساء بعد أن أغروا عدداً من أفراد الجيش المسلّح بالانضمام إليهم قلعة دمشق وكان في مقدّمتهم عثمان قاسم من جمعية الفتاة يطلق النار من مسدسه في الهواء مشجعاً، والأصوات تملأ الفضاء بسقوط الحكومة ووجوب الاستيلاء على الأسلحة والاضطلاع بمهمة الدفاع ، وقد انضمّ إلى المتظاهرين كثير من الرعاع الذين أطلقوا سراح المسجونين في القلعة، ونهبوا كلّ ما وصلت إليه أيديهم، ولم يمكن كبح جماحهم إلا بعد تدخّل الأمير زيد وياسين الهاشمي واللّجوء إلى القوّة، وبعد أن سقط من الجانبين (أي الثوار وجند الحكومة) مائة وعشرة قتلى وحوالي ثلاثمائة جريح.

وكان من المحزن حقاً أن تفاجأ البلاد بعد كلّ هذه التضحيات التي أقدم عليها الشعب والحكومة بخبر زحف لجيوش الفرنسية واحتلالها مجدل عنجر في صباح 21 تموز، ومتابعة سيرها باتجاه دمشق حيث أعطي الأمر لها بالوقوف في مكانها والتمركز دفاعياً هناك بانتظار ورود معلومات جديدة. وأبرق الملك إلى الجنرال غورو قائلاً:

على الرغم من المشكلات التي توقّعتها مقدماً فقد قبلتُ كتابة ورسمياً ما طلبتموه في إنذاركم، وسرّحتُ الجيش العامل طبقاً لأحكامه، وألغيتُ الخدمة العسكرية الإجبارية ممّا سبب استياء أبناء شعبي كما يشهد بذلك قناصل الدول في دمشق.

ولقد دهشتُ حينما علمتُ أنّ جيوشكم تزحف إلى دمشق، ورغم قبولي جميع الشروط الواردة في الإنذار بلا قيد ولا شرط، مما يعد انتهاكاً للعهود المقطوعة وخرقاً للحقوق الخاصة وللروح الأدبي العام، وكلّ تبعة تنجم عن هذا العمل الغريب تقع على عاتق مسبّبها. وأطلبُ منكم في الختام اتخاذ التدابير اللازمة لسحب جيوشكم بسرعة.

وقام سكرتير الملك بتسليم برقية بهذا المضمون إلى الكولونيل إيستون، المعتمد البريطاني في دمشق، وإلى قناصل الدول الأجنبية فيها كذلك، ورجاهم تبليغها إلى حكوماتهم بكلّ سرعة. وقد أبلغ الكولونيل كوس الملك جواب الجنرال هنري غورو في اليوم نفسه بعد الظهر وقد علّل غورو سبب الزحف بتأخير وصول البرقية التي أرسلها فيصل بقبول شروط الإنذار وعزا التأخير إلى قطع اسلاك البرق بين دمشق وبيروت، «وهو أمر تقع مسؤوليته على عاتق الحكومة السورية التي قطع أفرادها الأسلاك؛ فحكومة دمشق تجني ثمر ما زرعته سابقاً. وأما بالنسبة للجيش الفرنسي فسيستمر في تقدمه إلى أن يصل إلى مدخل دمشق، وسوف لن يدخل هذه المدينة إذا لم تعترض بقية القوات الفرنسية التي ستحتل المحطات الواقعة بين رياق وحلب لأية مقاومة وكذلك لمدينة حلب نفسها»

وأشار كوس على الملك بأن يرسل معتمداً من قبله لمقابلة غورو في عاليه، لكنه لم يتمكن من تدارك الأمر وإعادة المياه إلى مجاريها. وقام الملك فيصل بمحاولة أخيرة للتفاهم مع غورو فأبرق إليه بعد ظهر يوم 21 تموز قائلاً:

على الرغم من قبول الشروط الواردة في مذكرة 14 الجاري فقد زحف الجيش الفرنسي نحو دمشق ورغبةً مني في حقن دماء تسيل بلا طائل أرجو منكم في الدقيقة الأخيرة أن تصدروا أمركم إلى الجيش بإيقاف أعماله للدخول في محادثات تدور على القاعدة المبيّنة في برقيتكم الأخيرة يسافر اليوم إلى طرفكم أحد أعضاء الحكومة ومهمته التعاقد معكم باسمها.

واجتمع مجلس الوزراء عصر يوم 21 تموز بعد إرسال البرقية المذكورة واتفق أن يكون الموفد إلى غورو هو وزير المعارف ساطع الحصري وأن يصاحبه القائم مقام جميل الألشي كمستشار عسكري، فانطلق هذان الاثنان مساء ذلك اليوم مع الكولونيل تولا رئيس البعثة الفرنسية في دمشق.

وعند وصول السيارة إلى ذُرى ميسلون شاهد ركابها السيد يوسف العظمة، وزير الحربية السوري، يجمع فلول قواته التي كانت تتراجع من جهات البقاع نتيجة

لوصول أمر التسريح بالنسبة لبعضها أو خشية الوقوع فريسة سهلة في أيدي القوات الفرنسية المتقدمة بالنسبة لبعضها الآخر. وقد انتحى الوزير العظمة بالوزير الحصري جانباً ورجاه بذل كلّ ما بوسعه من جهد في سبيل الحصول على أطول هدنة ممكنة، وذلك كي يتمكّن هو في هذه الفرصة من حشد ما يمكن حشده من قوة وسلاح وعتاد في منطقة خان ميسلون. ثم تابعت السيارة تقدّمها على طريق بيروت باتجاه عاليه حتى صادفت معسكر الجيش الفرنسي بإمرة الجنرال غوابيه في منطقة عين جديدة وقد تقدّم الحصري نحو الجنرال غوابيه وابتدره قائلاً:

إنّ الحكومة السورية قد قبلت كلّ شروط الإنذار وسرّحت الجيش كما لاحظتم، والظاهر أنّ ما نشاهده من تقدم للجيش الفرنسي نتج عن سوء تفاهم يُؤسَف له، وإنني قاصد لمقابلة الجنرال غورو للتفاهم معه فأرجو أن تأمروا جيشكم حيث هو.

فأجابه الجنرال غوابيه:

إنّني رجل عسكري، ما عليّ إلا تنفيذ أوامر رؤسائي، ولقد تلقيت أمراُ من الجنرال غورو بأن أمشي باتجاه دمشق وها أنا أنفّذ هذه المهمة العسكرية بكلّ دقة، وبوسعك أن تراجع من هم خلفي بالنسبة للقضايا السياسية.

وعندما طلب الحصري إيقاف تقدّم الجيش لمدة محدودة ريثما يتمكّن من مقابلة غورو في عاليه ويبحث الموقف الجديد على ضوء تقدم الجيش الفرنسي باتجاه دمشق، فتدارس غوابيه مع الكولونيل تولا ومع الكولونيل بيتيلا، رئيس اركان جيش الشرق، هذا الطلب ثم انتهوا لقبول إيقاف الزّحف لمدة 24 ساعة في حال قبول الشرطين التاليين:

1- أن تقوم القوات العربية بوضع خط حديد: (الرياق – التكية) تحت تصرف الجيش الفرنسي.
2- أن تحتلّ القوات الفرنسية محطة التكية لكي تؤمّن منها تموينها، وذلك بدون مصادفة أيّة ممانعة من القوات العربية.

والحقيقة أنّ الطرفين كانا بحاجة إلى هدنة قصيرة؛ فالسوريون كانوا بحاجة إلى مهلة كافية كي يتمّوا تحصّنهم في ميسلون بعد أن تأكّدوا من أنّ المعركة مع الفرنسيين واقعة لامحالة، وخاصّة بعد أن أوصى يوسف العظمة الحصري وهو يركب السيارة باتجاه عليه بأن يكسب له ما يمكن له من الوقت، وأما الفرنسيون فكانوا بحاجة لهدنة قصيرة أيضاً للأسباب الخمسة التالية:

1- عرفوا أنّ بعض القوات السورية قد تحصّنت في مرتفعات ميسلون فأرادوا أن يبدلوا من ترتيباتهم.

2- منح الجنود استراحة ضرورية بعد ليلة شاقّة قضوها سيراً على الأقدام في جبال قاحلة.

3- تقوية الارتباط بين وحدات الفرقة القائمة بالزحف لأول مرة منذ 24 ساعة.

4- إظهار حسن النية أمام القناصل من الأجانب الذين يمثلون دولهم في دمشق.

5- قبول الشرطين السابقين بحدّ ذاته يشكّل ظفراً عسكرياً واستراتيجياً لا يمكن اكتسابه إلّا بخوض المعارك.

وقد وافق الحصري باسم الحكومة في دمشق على الشرطين السابقين، ثمّ انطلق بسيارته باتجاه عاليه، وفي عاليه حاول الحصري إقناع غورو بشتّى الوسائل بأنّ الحكومة السورية قد قبلت شروط الإنذار وبدأت بتنفيذه، لكن الجنرال تحجّج بتأخر وصول برقية الإعلام بالتنفيذ نتيجة لقطع الأسلاك، وهذا ما تقع مسؤوليته على عاتق الحكومة السورية حسبما يعتقد. ولمّا طلب الحصري إيقاف تقدم الجيش طالما أنّ الحكومة قبلت الإنذار بلا قيد ولا شرط أجابه غورو بأنّ الجيش الفرنسي لا يمكنه أن يقف بعد أن أُعطي الأوامر بالتقدّم. وطال الحوار ثم انتهى بأن سلّم غورو للحصري مذكّرة تحوي شروطاً جديدة أقسى من سابقتها لوقف الزحف إلى دمشق. وحاول غورو تأخير وصول الحصري وصديقه الألشي إلى دمشق وذلك بجعله يسافر بالقطار عن طريق رياق، ولكن الحصري فطن لهذه المناورة وأصرّ على السفر بالسيارة وبكلّ سرعة. ولمّا عاد الحصري إلى دمشق قصد لتوّه القصر الملكي حيث أطلع الملك على ما تمّ، وسلّمه

شروط الجنرال غورو الجديدة، ومع كتاب خاص بطلب فيه غورو من سموّ الأمير إبعاد المتطرّفين الوطنيين من حوله وخاصّة أعضاء الحكومة التي كانت على رأس السلطة في دمشق في ذلك الوقت.

وبعد أن اطلع الملك على الإنذار والرسالة، أمر أن يجتمع مجلس الوزراء في قصره صباح اليوم التالي 23 تموز حيث تولى السيد الحصري عرض المحادثات التي جرت في عاليه، وأكد للوزراء أنّ الجنرال غورو لن يتراجع عن احتلال دمشق حتى ولو قبلوا شروطه الجديدة. وكان من الظاهر أنّ بعض الوزراء لم يشاطروه رأيه، بل مالوا متفائلين إلى قبول هذه الشروط ، لكن تفاؤلهم لم يدم طويلاً؛ إذ أن الكولونيل كوس زار القصر الملكي، والمجلس يجتمع وقدّم برقية جديدة من الجنرال غورو يطالب زيادة على الشروط المرسلة مع ساطع الحصري السماح للجيش الفرنسي باحتلال ميسلون بحجة أن الجيش لا يستطيع التوقف إلّا في المكان المناسب الذي تتوفر فيه المياه والموقع الاستراتيجي. عندئذ أيقن المعتدلون من الوزراء أنّ ما يرمي إليه غورو هو احتلال دمشق، ولذا فهو يخرج بشروط جديدة كلّما أحسّ أن الحكومة السورية قبلت بالشروط التي سبقتها .

وهنا تغير موقف الحكومة؛ إذ لم يعد هناك مجال لقبول الشروط الجديدة ولذا طيرت بالحال برقيات الاستغاثة إلى جميع دول العالم ، كما واجتمع الحصري بقناصل الدول الأجنبية في مقرّ عميدهم قنصل إيطاليا، المركيز مانكي، وشرح لهم ما انتهت إليه الحال، واجتمع الملك بالشيخ كامل القصاب، رئيس اللجنة الوطنية العليا، التي كانت تنادي بالمحافظة على استقلال سورية بحدودها الطبيعية ورفض الاستسلام رفضاً باتاً، وخاطبه قائلاً: «لقد نزلتُ أنا وحكومتي عند الرغبة التي طالما ناديتم بها بمقابلة العدوان بالقوة، وقبلتُ قولكم بأنّ القوى الوطنية مستعدّة للقيام بهذه المهمة ؛ فهيّا أرنا همتك وعلى اللّه التوفيق».

فانطلق الشيخ كامل مع نفر من أصحابه يرافقه البكباشي شريف الحجّار، الذي كانت قد أسندت إليه حديثاً مهمة سوقيات الجيش، يحثّون الناس على الخروج إلى ميسلون لصدّ العدو المهاجم، فتراكض جمع غفير إلى محطة الحجاز

ليمتطوا القطر التي تنقلهم إلى مكان الدفاع وهم مسلّحون بالبنادق القديمة والمسدسات والسيوف، بل حتى بالمقاليع. وبما أن الهدنة بين الطرفين تنتهي في يوم 23 تموز لذا أتى الكولونيل إلى القصر الملكي مساء ذلك اليوم وقدّم مسودتي جواب إلى الملك فيصل، إحداهما بقبول الإنذار والأخرى برفضه، ولكن الملك وجد أن المسودتين غير مقبولتين لأن عباراتهما كانت جافة ولذلك رفضهما معاً وقام بدلاً من ذلك بتسليم الكولونيل الرد التالي:

نحن نأبى الحرب، بيد أن قبولنا لمذكرتكم الأخيرة يعرّضنا لحرب أهلية، ويجعلني أنا وكلّ عضو من أعضاء الحكومة العربية عرضة للتهلكة نحن على استعداد لتنفيذ إنذار 14 تموز بكامله، وقد نفذنا حتى الآن أربعة من بنوده ونتعهد بشرفنا بأن ننفذ الباقي بإخلاص إذا ما جلا الجيش عن الأماكن الجديدة التي احتلها.

ولم يردّ غورو على هذا الاقتراح المسالم المقدّم من فيصل لأنه كان مصمّماً على متابعة الزحف إلى دمشق لاحتلالها وذلك بعد أن احتلت قواته حلب، بقيادة الجنرال ده لا موت، بعد مناوشات بسيطة في يوم تلقي الاقتراح نفسه؛ أي يوم الجمعة 23 تموز 1920.

الأسباب الحقيقية لمعركة ميسلون

هل كانت أزمة الإنذار هي السبب الحقيقيّ لمعركة ميسلون الحاسمة كما يدّعي الفرنسيون من مؤرّخين وساسة؟ كلاّ بالطبع إذ أن هناك اسباباً بعيدة وغير مباشرة يمكن اعتبارها الأسباب الحقيقية التي جعلتْ الفرنسيين يخوضون هذه المعركة ويجبرون السوريين على خوضها ضدّهم، وهذه الأسباب وإن كان بعضها لازال خفياً يمكن أن نجملها في ثلاثة أنواع:

1- أسباب استراتيجية عسكرية.

2- أسباب سياسية.

3- أسباب اقتصادية.

الأسباب الاستراتيجية العسكرية:

من المعروف أنّ بلاد الشام تشكّل مركزاً استراتيجياً هامّاً قبل أن يشاركها فيه بلد آخر؛ فموقعها يشكّل همزة وصل القارات الثلاث، آسيا وأفريقيا وأوروبا، وهي أقرب جسر برّي باتجاه المستعمرات الفرنسية التي كانت توجد في آسيا وخاصة في منطقة الهند الصينية. ثمّ يجب ألّا ننسى أنّ بلاد الشام لا تبعد سوى بضعة كيلومترات عن قناة السويس أوّل ممرّ مائي في العالم من جهة، وعن آبار البترول العربية والإيرانية من جهة أخرى؛ وهذا ما يحسب له كل الحساب في الخطط الاستراتيجية. ولذا نجد أنّ الكولونيل بريمون، رئيس البعثة العسكرية الفرنسية، في الحجاز أثناء الحرب الأولى يقترح على حكومته سنة 1917 أن تقوم باحتلال سورية بعمل وحيد الطرف من قبل قوات فرنسية منفردة يتمّ جلبها من الهند الصينية، ولكن المسؤولين الفرنسيين في باريس لم يوافقوا بريمون على فكرته هذه خيفة من معارضة بريطانية.

ثمّ من الجهة العسكرية نجد أنّ احتلال سورية كان عملية ضرورية للحفاظ على الحاميات الفرنسية في كيليكية ؛ فالمعروف أنّ الأتراك الكماليين كانوا قد حاصروا الحاميات الفرنسية المرابطة في أورفة وكلس وعنتاب، وقد طلب الجنرال غورو من الحكومة العربية السّماح لقواته استخدام الخط الحديدي (رياق – حلب) لنقل الإمدادات إلى جبهة كيليكية، فرفضت السلطات العربية ذلك قائلة: «نحن أعلنا الاستقلال وأنتم لم تعترفوا بهذا الاستقلال إلى الآن، فنحن نرى أنّ من واجبنا أن نلتزم الحياد في النزاع القائم بينكم وبين الأتراك». وقد سبّب هذا الرفض لفرنسا متاعب جمّة في الشرق؛ إذ أنّ غورو وجد نفسه مجبراً على إرسال إمداداته بحراً إلى اسكندرونة ومنها إلى جبال كيليكية، وفي هذا الحلّ ما فيه من خسائر لفرنسا في مصاريف النقل وفي الوقت.

الأسباب السياسية

من المعلوم أنّ فرنسا احتلّت مصر سنة 1799، ثمّ حاولت أن تحتلّ بقيادة نابليون سورية لكنها انكسرت أمام أسوار عكا، واضطرّت أن تنسحب من مصر

نهائياً في أيلول عام 1801، ولكنها عادت إلى أطماعها التوسّعية في البلدان العربية بعد مرور ربع قرن حيث احتّلت الجزائر سنة 1830 وحاولت أن تحتلّ لبنان نهائياً عام 1860، ولكنّها أجبرت على الخروج منه بعد ستة أشهر من نزول قواتها فيه، ثمّ فرضت حمايتها على تونس سنة 1881، ومراكش سنة 1912. بل بوسعنا أن نقول أكثر من ذلك وهو أنّ فرنسا لم تعتبر احتلال سورية عملاً مكمّلاً لامبراطوريّتها فحسب، وإنما اعتبرت أن بقاءها في أراضي أفريقيا الشمالية بكاملها أمر مرهون باحتلال سورية والبقاء فيها. وقد جاء في كتاب المسيو جان فلوريه، أحد ساسة فرنسا في ذلك الوقت: «يجب أن نعلم أننا إذا فقدنا سورية نفقد بالتالي سمعتنا ونفوذنا في افريقية الشمالية».

هذا القول لا يحوي أيّ مبالغة؛ إذ أنّ دولة دمشق العربية كانت تشكّل خطراً أكيداً ليس على الاستعمار الفرنسي فقط بل على جميع أنواع الاستعمار في البلاد العربية الإسلامية بكاملها. وفي الحقيقة لم تكنْ فرنسا تخشى الدولة العربية العتيدة نفسها بقدر ما تخشى الروح التي تبعثها هذه الدولة في الشرق العربي وفي مستعمراتها أو ممتلكاتها العربية والإسلامية في أفريقيا. وذلك لأنّ هذه الدولة كانت تشعر بعروبتها شعوراً واضحاً وتعمل للقومية العربية عملاً متواصلاً (.....)، وقد تضافرت على تأسيسها جهود أحرار العرب ومفكّريهم، وتركزت حولها آمالهم وأمانيهم بعد أن مضى على عهود استقلال الأمة العربية ومجدها سلسلة طويلة من قرون الانحطاط والاستسلام.

وإذا أردنا ألّا نذهب بعيداً نجد أنّ الدولة العربية في دمشق كانت تمنع الفرنسيين حتى في المنطقة الغربية الساحلية التي أُعطيت لهم بموجب معاهدة سايكس بيكو المعروفة؛ إذ أنه مما لا يحتاج إلى برهان أن استقلال المنطقة الداخلية يحدث بطبيعته تأثيراً عميقاً في المنطقة الساحلية ويثير مشاكل كبيرة في إدارة تلك المنطقة (.....). زد على ذلك أنّ استقلال الداخل كان من شأنه أن يولّد في نفوس أهل الساحل نزوعاً إلى الاستقلال والمطالبة به وأن يحملهم على الثورة ضدّ من يتحكّم فيهم، فكان من مصلحة فرنسا أن تبسط سيطرتها على داخلية سورية ايضاً.

الأسباب الاقتصادية:

وكما كانت العوامل الاقتصادية أحد الأسباب التي دعت لشنّ الحروب الصليبية، فإنها أيضاً كانت أحد أسباب احتلال فرنسا لسورية سنة 1920 ، ولقد كان الكتّاب الفرنسيون يفيضون دوماً بالحديث عن غنى البلاد السورية بالثروات الطبيعية المتنوعة والمعادن الثمينة والمواشي، هذا بالإضافة إلى أهمّيتها كممرّ اقتصادي رئيسي، ولا أدلّ على ذلك من قول أحدهم وهو الكاتب جان فلوريه فيما بعد: «إذا تركنا سورية نكون قد نفضنا يدنا من هذا الطريق المستقيم المتّجه رأساً إلى الشرق الأقصى وهو ممرّ طرابلس – حمص الذي يتحسّن بسرعة يوماً بعد يوم. وهذا الطريق يميل إلى الإقلال من شأن قناة السويس التي تركها منذ خمسين سنة، بصورة لا تتفق والشرف، مواطنو فردیناند ده لسبس».

وفي الوقت نفسه تقريباً (أي أواخر 1920) نرى المسيو هنري ده جوفينيل، عضو مجلس الشيوخ الفرنسي، يصرّح: « يجب أن نعلم ويعلم كلّ الناس أن سورية ولبنان قطران متممان لفرنسا، وأنه إذا لم نكن بعد قد نظّمنا الشؤون المالية على ما يجب أن ننظمها فما ذلك إلا لأنه تعوزنا المواد الأولية لصناعة المنسوجات. وسيأتي اليوم الذي لا تكتفي فيه تلك الصناعة بالصوف والحرير الذين نجدهما في سورية، وعندها علينا أن نهيّئ أراض يصحّ أن نسميها أراضي قطن فرنسا؛ فتصبح ثروتنا وثروة اللبنانيين والسوريين مشتركة ويصبح الانتداب المعزّز بالقوة العسكرية معزّزاً بقوة أعظم وهي المصالح المشتركة».

وإذا لم نذهب بعيداً نجد أنّ الجنرال غوابيه نفسه، وهو قائد الجانب الفرنسي في معركة ميسلون، قد اعترف في مخطوطة مذكراته المسماة: «من ستراسبورغ إلى دمشق» ببعض هذه الأسباب الاقتصادية التي جعلت فرنسا تصمّم على احتلال سورية؛ حيث يقول في تعليل زحف قواته إلى دمشق:

قام الأمير في دمشق بأخذ التاج الملكي، وزاد عدد فرقه العسكرية وعبّأها، وعارض استخدام العملة السورية ومنع قمح حوران من الوصول إلى منطقتنا وعرقل بجميع الوسائل الممكنة التجارة بين لبنان والأراضي الشرقية ووضع كثيراً من العقبات في طريق الإمدادات التي نرسلها بالسكة الحديدية نحو الشمال.

ولعلّ أهمّ هذه الأسباب هنا، كما نعتقد، هي العملة السورية التي ورد شرط قبولها في نصّ الإنذار الذي وجهه الجنرال غورو إلى الملك فيصل في 14 تموز 1920 والذي كان مقدمة معركة ميسلون. والسّبب في هذه الأهمية التي كانت فرنسا تعلّقها على قبول العملة الورقية السورية، التي أنشئ مصرف سورية ولبنان خصيصاً في بيروت لإصدارها، هو أنها كانت تطمع بالسيطرة نهائياً على اقتصاديات البلاد وذلك بالسيطرة على نقدها وامتصاص كمية القطع النادر التي كانت توجد في سورية ولبنان في ذلك الحين وخاصّة من الليرات الذهبية. وبالإضافة إلى هذه الليرات الذهبية كان هناك كميات ضخمة من الجنيهات الورقية الإنكليزية والمصرية التي تدفّقت بعد احتلال القوات البريطانية والحليفة لبلاد الشام.

ولم تكد خمس سنوات تمضي على احتلال فرنسا لسورية حتى كانت كمية القطع النادر قد تدنّت إلى أقلّ من النصف بالنسبة للذهب وإلى أقل من العشر بالنسبة للعملات الأجنبية الورقية. أمّا أين ذهبت هذه العملات الذهبية والأجنبية الصعبة؟ فالجواب أنّها تسرّبت إلى الخزينة الفرنسية مقابل الأوراق النقدية التي كان يصدرها مصرف سورية ولبنان.

ومن هذه العجالة يتبيّن لنا أنّ جملة من الأسباب السياسية والاستراتيجية مع مجموعة من المطامع المصلحية والاقتصادية قد تضافرت على جعل الفرنسيين يقرّرون احتلال سورية عاجلاً أو آجلاً، ولم تكن أزمة الإنذار التي بحثناها في الفصل السابق، أو بالأحرى عدم قبول هذا لإنذار، إلّا ذريعة لقيام الفرنسيين بتوجيه جيوشهم إلى دمشق، واصطدامهم بالسوريين في معركة ميسلون التي سنبحث فيها في فصل مقبل من هذا الكتاب.

الجيش العربي وقائده

لاريب في أنه من المفيد قبل أن نشرح معركة ميسلون نفسها أن نعرف شيئاً عن حالة الجيش العربي الفيصلي في ذلك الوقت ونحدد موقف قائده يوسف

العظمة، وأسباب إصراره على الدفاع كما حدث في المعركة، وذلك لكي تتكامل الصورة تماماً في أذهاننا.

كما قلنا في موضع سابق من هذا الكتاب أنّ الجيش العربي الفيصلي قد تشكّل لأول مرة في الحجاز في أعقاب الثورة العربية الأولى تحت اسم «جيش الشمال»، وقد كان أغلب جنود هذا الجيش من الحجازيين، وأمّا ضباطه فقد كانوا من جميع الأقطار العربية حيث كان فيهم العراقي والشامي والمصري واليمني والمغربي والحجازي أيضاً بالطبع. وقد دخل هذا الجيش دمشق في صباح 1 تشرين الأول 1918 وخاض معارك مجيدة مع الترك قرب حمص وعند موقع المسلمية شمالي حلب. ولمّا وقعت هدنة بين الحلفاء وتركيا في 30 تشرين الأول عام 1918 عاد الجيش العربي إلى دمشق ثمّ قسم كحاميات صغيرة استقرت كلّ منها في إحدى المدن السورية الكبرى. ومنذ أوائل عام 1919 أخذ الضباط السوريون الذين كانوا يعملون في الجيش التركي والذين خاضوا معارك الحرب العالمية الأولى وتمرّسوا فيها بمغادرة تركيا للالتحاق بمراكز الجيش العربي الفيصلي بالرتب التي كانوا بها في الجيش التركي. وبما أن جيش الحجاز الأصلي هو جيش صغير نظامي تعوّد على حرب العصابات أكثر من تعوّده على الحرب النظامية، ولذا فإنه لم يعد من الملائم الاحتفاظ بهذا الجيش خاصّة وأنّ قسماً كبيراً من ضباطه وجنوده كانوا يحنون إلى أهلهم وعشائرهم في الحجاز وفي الأردن.

ولمّا آنس الخبراء العسكريون في دمشق أنه يمكن تشكيل نواة جيش جديد من مسرّحي الجيش التركي، وممن سيختارون البقاء في الجندية من أفراد الجيش الحجازي الأصلين وممن سيتطوّعون من أبناء بلاد الشام للخدمة في الجيش العربي الجديد قاموا عن طريق «رئاسة ديوان الشورى الحربي» بحلّ الجيش السابق وتسريح قسم كبير منه، وابتدؤوا مباشرة عن طريق التطويع والاستدعاء للخدمة بتشكيل جيش منظم حسب الأصول الحديثة. ومن المعلوم أنّ هناك أربعة عناصر تعتبر أهمّ أركان الجيوش الحديثة، ولا يعتبر الجيش جيشاً إذا فقد واحداً منها، ولذا سنتعرّض هنا لذكر كيفية تأمين القادة المسؤولين لهذه العناصر الأربعة وهي: الضباط – صف الضباط والجنود – التجهيز والتسليح – التدريب.

الضباط:

كان ضباط الجيش العربي الفيصلي يضمّون فئتين عام 1919؛ الأولى تتشكل من ضباط جيش الشمال الأصلي، ممن رافقوا فيصل في انطلاقه من الحجاز إلى الشام، والثانية ضمّت الضباط الذين خدموا في الجيش التركي والتحقوا محدثاً بالجيش، وكان أغلب أفراد الفئة الأولى من غير السوريين بعكس أفراد الفئة الثانية التي كان أغلبها من أبناء البلد.

ويجب أن نقول في هذا المجال إنه كان هناك نوع من التنافس بين الفئتين؛ حيث كان أفراد الفئة الأولى يأخذون على الآخرين عدم اشتراكهم بالثورة العربية التي كانت مقدمة لاستقلال البلد، بينما كان أفراد الفئة الثانية يرون في منافسيهم جماعة من الوصوليين حصلوا على رتبهم بظروف استثنائية رغم أنهم لا يتمتّعون بالثقافة العامة؛ بل حتى العسكرية التي تؤهلهم لذلك.

وقد كان عدد ضباط الجيش العربي الفيصلي بكاملهم في أواخر عام 1918 أربعمائة وتسعة وثمانين ضابطاً كما يظهر من إحدى الوثائق الأصلية التي قدّمها لنا القائد شريف الحجار، وهذا الرقم لم يكن كافياً لتشكيل جيش عربي حديث بالإطار الذي تفرضه ظروف البلاد، ولذا فقد تمّ افتتاح مدرسة حربية في «جامع دنكز» وذلك لتخريج أفواج جديدة شابة من الضباط لقيادة هذا الجيش، وقد أوكلت هذه المدرسة إلى السيد محمد بديع بكداش وكان يدرّس مادة «المدفعية» و«الأسلحة» فيها الرئيس محمد رشيد الطرابيشي، ومادة «الخدمة العسكرية» القائد محمد شريف الحجار كما كان هناك عدد كبير من الضباط الآخرين يدرّبون ويعلمون فيها.

ولمّا أتى شهر تموز من عام 1920، وهو الشهر الذي حدثت فيه معركة ميسلون، كان عدد ضباط الجيش قد أصبح حوالي ثمانمائة ضابط من أصل ألفين وهو الملاك النظري الذي كان يقترض الوصول إليه قبل العام 1920 وكان أغلب هؤلاء الضباط قد خدموا سابقاً في الجيش التركي منهم مجموعة صالحة من الأكفّاء وأركان الحرب والذين تخرجوا من أرقى المعاهد الحربية في ألمانيا

وتركيا وتمرّسوا في القتال في شتّى الساحات والميادين. وقبل أن ننهي كلامنا عن الضباط يستحسن أن نذكر أنّ الرتب العسكرية في الجيش العربي الفيصلي كانت على الشكل التالي: مشير –أمير فرقة –أمير لواء –زعيم – قائم مقام – قائد وكيل قائد (أو مميز) – رئيس – ملازم أول – ملازم ثاني – وكيل ضابط.

صفّ الضباط والجنود:

إذا كان المسؤولون في الحكومة العربية لم يجدوا صعوبة كبيرة في إيجاد الملاك الضروري من الضباط، فإنهم وجدوا كلّ أنواع الصّعوبات بالنسبة لإيحاد صفّ الضباط والجنود اللازمين لتشكيل جيش عربي حديث. وليس هذا مستغرباً؛ إذ أنه كان يلزم لملاك الجيش الفيصلي حوالي ألف ضابط وكان هناك ما يقارب هذا العدد تقريباً من السوريين الذين خدموا كضباط في الجيش التركي. وأمّا بالنسبة لصفّ الضباط فقد كان يلزم الجيش السوري حوالي ثلاثة آلاف وخمسمائة ضابط من رتبة «وكيل» و«نائب» و«عريف»، ولم يكن يوجد من أصل هؤلاء أكثر من خمسمائة ممن خدموا في الجيش التركي، كما تطوّع حوالي ثلاثمائة منهم سنة 1919، فأصبح المجموع ثمانمائة صف ضابط لا أكثر، وهذا الرقم هو ربع ما كان يلزم لإملاء ملاكات الجيش من هذا الصنف. وقد كان هذا النقص سبباً في إجبار الحكومة العربية على افتتاح المدرسة العسكرية المتوسطة (الرشدية) لتخريج صفّ الضباط من وكلاء ورقباء وعرفاء. وفي الوثيقة التي عرضها علينا السيد شريف الحجّار والتي هي بطاقة تعداد الجيش الفيصلي ليوم 8 كانون الأول 1918 نجد أنّ عدد صفّ الضباط ستمائة واثنان وتسعون فقط: مائة وخمسة عشر وكيلاً، ومائتان واثنان وخمسون رقيباً، وثلاثمائة وخمسة وعشرون عريفاً.

وكانت الأزمة بالنسبة للجنود أصعب أيضاً حيث أنّ عدد المتطوعين السوريين من صفّ الأفراد في الجيش التركي كان ضئيلاً جداً ولذا كان من المستحيل إيجاد الجنود اللازمين للجيش العربي الفيصلي من بين الذين خدموا كجنود في الجيش التركي. ولمّا أرادت الحكومة السورية تطويع قسم من الشباب السوري كجنود في الجيش الجديد لم تلاقِ دعوتها صدى كبيراً لأنّ الوعي الوطني بين فئات الشعب

كان ضئيلاً في ذلك الوقت؛ حيث لم يكنْ أبناؤها يفرّقون بين الجيش الوطني المزمع تشكيله وبين الجيش التركي الذي اكتووا بناره أثناء الحرب العالمية الأولى.

ومن جهة أخرى فإنّ الراتب الذي كان يُعطى للجندي كان من الضآلة بحيث لا يُغري أحداً بالخدمة بالجيش كجندي عادي، لأن هذا الراتب لم يكن يتجاوز الجنيهين في الشهر فقط، ويقول السيد محي الدين السفرجلاني في كتابه «فاجعة ميسلون» في مجال تبرير عدم إقبال الشعب على التطوع: «وكان نظام التطوّع في تلك الآونة هو النظام المتّبع في الجيش، ورغم أنّ أوّل من انتسب إلى الجندية والجند هو جلالة الملك، فإنّ الإقبال على التطوّع كان قليلاً جداً، لما كانت عليه روحية الأمة وخروجها من حرب طاحنة أنافت على السنوات الأربع وذاقت خلالها من ظروف القسوة والعذاب من الجندية العثمانية الأمرّين، لذلك كانت، كما ذكرنا، تعاني من عدم انطلاقها نحو التطوّع وكانت تأبى أن تعيد إلى أبنائها عهداً مضى بالويلات والشدائد».

ولمّا هلّ عام 1919 كان عدد الجنود في الجيش العربي المذكور لا يتجاوز أربعة آلاف وسبعمائة وأربعة وثلاثين جندياً من أصل خمسة وعشرين ألفاً وهو الملاك الذي كان مقترحاً للجيش في ذلك الوقت. وهنا وجد المسؤولون أنّه لا مفرّ من فرض الخدمة العسكرية الإجبارية لتأمين العدد اللازم من الجنود، وقد تمّ فعلاً في شهر كانون الأول 1919 صدور قانون يفرض هذه الخدمة لمدة ستة أشهر على كلّ سوري عمره بين العشرين والأربعين عاماً، مع إعفاء ذوي العاهات ووحيدي أهاليهم، ومن يدفع بدلاً نقدياً معيناً فقط. ولكن هذه الخدمة رغم فائدتها لم تحلّ المشكلة بكاملها لأنّ الشعب كان لا يزال ينظر بخوف إلى الجندية الإجبارية نظراً لارتباطها في ذهنه بمآسي الحرب العالمية الأولى، وهذا أمر طبيعي بعد كلّ حرب عند جميع الشعوب.

وقد كان ضعف عنصر الأفراد وصفّ الضباط سبباً في خسارة معركة ميسلون كما سنرى لأنّ أغلب هؤلاء لم يسبق لهم دخول أيّة معركة في ذلك اليوم، ولم يُتَحْ لهم الوقت الكافي للتدريب على ذلك، كما أنّ الوعي القومي لم يكن متقدماً بحيث يفهم الجندي السّبب الذي يقاتل ويضحي بحياته من أجله.

التجهيز والتّسليح:

كان تجهيز الجيش العربي الفيصلي على درجة كبيرة من السوء لأن أغلب تجهيزاه كانت من بقايا الحرب العالمية الأولى، أو عن طريق التبرعات التي تجمع من الأهالي، ولما حاولت الحكومة العربية تلافي هذا النقص وقفت أمامها العقبات المالية كحجر عثرة فاكتفت حينذاك بإنشاء مصلحة للتجهيزات ضمّت ثمانمائة وستة وسبعين عاملاً منهم مائتي رجل واثنان وأربعين ولداً وثلاثمائة وثمان وثلاثين امرأة ومائتين وست وتسعين بنتاً.

وقد تمكّنت المصلحة المذكورة من تأمين بعض ما يلزم من تجهيزات الجيش وألبسته بكل سرعة؛ فقامت قيادة الجيش عند ذلك بتقرير نظام الألبسة للجيش حسب الرّتب، كما هو الأمر في الجيوش النظامية الحديثة. كما وأصبح هناك تحت قيادة الجيش رتل من السيارات العسكرية الكبيرة والصغيرة بإمرة القائم مقام عمر فوزي، بالإضافة إلى مفرزة من عجلات النقل تضمّ أربع وستين عجلة خصص لها مائة وأربعة عشر حيواناً للجرّ، ولكن لم يكن هناك أية دبابة عسكرية أو طائرة لدى هذا الجيش. هذا بالنسبة للتجهيز، أمّا بالنسبة للأسلحة والذخيرة فقد كانت في منتهى القلّة عند نهاية الحرب، حيث كان مجموع البنادق من جميع الأنواع لا يتجاوز اثنتي عشرة ألف وستمائة بندقية.

وقد حاولت القيادة أن تحصل على المزيد من الأسلحة ولكنّ هذا لم يكنْ بالإمكان لأنّ الدولة العربية كانت مُحاطة من الشرق والجنوب الغربي بأراض تحتلّها بريطانيا، ومن الغرب بأراض تحتلّها فرنسا، فلم تبقَ على تماس مباشر في هذه الحالة إلا مع تركيا التي كانت مشغولة بحربها مع فرنسا وتفتّش عمّن يبيعها السلاح لا عمّن تبيعه له. ولم تتمكّن الحكومة السورية حتى معركة ميسلون من شراء أكثر من ثلاثة آلاف بندقية بحيث أصبح مجموع الأسلحة الفردية لديها خمس عشرة ألف وستمائة قطعة فقط، من أنواع وطرازات وعيارات مختلفة، هذا مع العلم أن كمية تسع عشرة ألف وست وأربعين بندقية من أصل هذه الكمية فقط كانت لها حراب.

وأمّا بالنسبة للأسلحة الثقيلة فقد كان الجيش الفيصلي يضمّ في تموز 1920 كمية مائتين واثنان وعشرين رشاشاً معها عشر آلاف طلقة فقط، وخمسين مدفعاً من عيار 75 ملم، وأربعة مدافع فقط من عيار 105 مم ولكلّ مدفع خمسون قنبلة فقط. ويقول المؤرّخ أمين سعيد في كتابه «الثورة العربية الكبرى» أنه كان لكلّ بندقية مائتان وخمسون طلقة، ولكننا نعتقد أن حصّة كلّ بندقية لم تكن تزيد عن نصف هذا الرقم، إذ إنّ الحسابات التي استخرجناها من الوثائق تجعلنا نؤكد أنّ هذه الحصّة هي مائة واثنتان وعشرون طلقة لكلّ بندقية لا أكثر.

التدريب

أمّا بالنسبة للتدريب فقد بذلت قيادة الجيش العربي السوري كلّ جهدها في ذلك الوقت لإعداد الجنود الصالحين لخوض أيّة معركة وذلك رغم ضعف الوسائل التدريبية في ذلك الوقت وخاصّة بالنسبة للرمي. وقد روى لنا أحد الضباط في الجيش العربي الفيصلي أنّ جنده لم يتمرّنوا على إطلاق النار سوى مرتين طيلة فترة الاستقلال، وقال آخر إنه لم يكن في مستودعات الجيش ذخيرة حتى للقتال؛ فكيف الحال إذاً بالنسبة لذخيرة التدريب.

ولكن، ورغم ذلك كله، قامت القيادة بكلّ ما بوسعها القيام به في سبيل رفع سويّة الجيش التدريبية؛ ففتحت مدرسة حربية للضباط وأخرى لصفّ الضباط، وشكّلت لجنة للترجمة والتعريب والتهذيب قامت بتعريب الإيعازات عن التركية، وقام نفر من أعضائها ممن يجيدون اللغات الأجنبية بترجمة الأنظمة العسكرية العالمية عن الفرنسية والألمانية والتركية. وجيشنا العربي السوري الدي عندما عاد للظهور سنة 1945 تبنّى عدداً كبيراً من المصطلحات والكلمات العسكرية التي تمّ وضعها تلك الفترة، أي في سنتي 1919 و1920.

ولم يقتصر التدريب على النّواحي العسكرية، بل تعدّاها إلى الأمور المعنوية؛ حيث نجد القيادة اهتمت بنشر التديّن والأخلاق الحميدة في الجيش، وبثّ روح القومية العربية بين أعضائه. وتظهر هذه الروح القومية العربية من الدعاء الذي

تبنته القيادة والذي كان الجند يردّدونه كل صباح وهو: «اللهم نوّر عقولنا وقوِّ قلوبنا واجعل لنا من العلم والمعرفة النصيب الأوفر. اللهمّ أحسن على أجسامنا بقوّة ونشاط كي تكون آلة لنصرة العرب ونصرتك. اللهم انصر العرب وأهد مجد العرب».

وقبل أن ننهي الحديث عن الجيش العربي الفيصلي لابدّ أنّ نلقي نظرة على تشكيل هذا الجيش في شهر نيسان 1920؛ أي بعد إعلان الملكية بشهر وقبل أحداث ميسلون المعروفة بثلاثة أشهر.

كان هذا الجيش يضمّ في ذلك الوقت، كأيّ جيش في العالم، قسمين: القيادة العامة، الوحدات المحاربة.

القيادة العامة

كانت القيادة العامة للجيش العربي الفيصلي ممثلة بما يسمى «رئاسة ديوان الشورى الحربي» التي تماثل مهامها مهمة وزارة الدفاع في عصرنا الحاضر وقد كان مقرها في المشيرية التي كانت تقع مكان القصر العدلي حالياً. كان يرأس هذا الديوان القائم مقام أحمد اللحّام، ويعاونه في ذلك الضباط التالية أسماؤهم:

القائم مقام مصطفى وصفي السمّان وكان يرأس شعبة الحركات الحربية التي تقابل شعبة العمليات لدينا حالياً.

القائد شريف الحجّار وقد كان يرأس شعبة الاستخبارات التي تقابل شعبة المخابرات حالياً.

الرئيس حسن يحيى الصبان الذي كان يشرف على إدارة القوى العمومية التي تماثل في المهمات المسندة إليها شعبة التنظيم والإدارة في جيشنا الحالي.

القائم مقام عارف التوّام رئيس إدارة التسليح.

السيد حسن رفقي الخيمي وكان يرأس إدارة الميرة التي تماثل في المهمّات المسندة إليها هيئة الإمداد والتموين في جيشنا الحالي.

الوحدات المحاربة

وكانت الوحدات المحاربة مؤلّفة من ثلاث فرق تعداد كل واحدة منها حوالي ثلاثة آلاف جندي، ماعدا الفرقة الأولى التي كان تعدادها خمسة آلاف وهي:

الفرقة الأولى:

مقرّها دمشق، وتتبع لها المناطق المحيطة بالعاصمة حتى حمص من الشمال، والشيخ مسكين من الجنوب، والبادية من الشرق، والخطّ الحديدي الذي يمتد من تلكلخ وحتى القنيطرة من الغرب. وقد كان يرأس هذه الفرقة السيد ياسين الهاشمي، وهو من ألمع ضباط الجيش العربي في ذلك الوقت، وهذه الفرقة هي التي جابهت العدو في معركة ميسلون تحت قيادة آمرها الجديد القائم مقام تحسين الفقير، لأن الهاشمي لم يرضَ أن يأخذ على عاتقه مهمة الدفاع عن دمشق بمثل قوة وتسليح الفرقة الضعيفين؛ فنقل هذا القائد لمنطقة دمشق العسكرية وأسندت قيادة الفرقة إلى تحسين الفقير.

الفرقة الثانية:

مقرّها درعا، وكانت صلاحياتها تمتدّ شمالاً حتى الشيخ مسكين، وجنوباً حتى معان والعقبة، وشرقاً حتى البادية، وغرباً حتى الأراضي الفلسطينية التي كان يسيطر عليها الإنكليز، وقد كان يرأس هذه الفرقة سابقاً الأميرالاي العميد مصطفى نعمت، ثم أسندت قيادتها بعد ذلك إلى القائم مقام إسماعيل الصفّار.

الفرقة الثالثة:

مركزها حلب، وتشمل جنوباً حتى حماه وشمالاً حتى موقع جرابلس وشرقاً حتى العراق وغرباً حتى أراضي المنطقة الساحلية التي كانت تسيطر عليها القوات

الفرنسية. وقد كان يرأس هذه الفرقة القائم مقام محمد إسماعيل الطباخ في ذلك الوقت، وكان يساعده السيد عارف الإدلبي. وعند أحداث الإنذار المعروفة فصلت مدينتا حمص وحماه عن منطقتي دمشق وحلب، وعيّن لهما قائد منطقة خاص هو الأميرالاي الركن يحيى حياتي. وقد كانت كلّ فرقة من هذه الفرق الثلاث تضمّ ثلاثة ألوية مشاة ولواء مدفعية.

وكان لواء المشاة الواحد يضمّ ثلاثة أفواج، والفوج الواحد يضمّ ثلاث سرايا وسرية رشاشات. وأمّا لواء المدفعية فكان يضمّ كتيبتين وكل كتيبة تتألف من نضيدتين (أي بطاريتين)، ماعدا كتائب الفرقة الأولى فتضمّ الواحدة ثلاث نضائد مدفعية وكانت النضيدة تضمّ مدفعين من عيار 5, 7 أو 5, 10 شعيرات (75 أو 105مم).

كما أنه كان ملحقاً بالفرقة الأولى لواء فرسان يضمّ (ألف وسبعمائة وستة وعشرين) فارساً وهو الأمر الذي لم يكن له مثيل في باقي الفرق، وكان هذا اللواء بإمرة القائد إبراهيم حبّي.

من هذا يتبين أنّ تنظيم الجيش العربي من حيث التشكيل كان تنظيماً منطقياً وحديثاً وكان يراعي كما ينبغي قضية توافق التشكيل مع مقدار الأسلحة المتوفّرة.

قائد الجيش العربي الفيصلي

وبعد هذه العجالة عن تشكيل الجيش العربي وتسليحه، لابد لنا من أن نلقي ضوءاً بسيطاً على شخصية قائده وزير الحربية الشهيد يوسف العظمة، وعلى موقفه السياسي والعسكري بمناسبة أحداث ميسلون.

شخصية يوسف العظمة

ولد الشهيد يوسف العظمة سنة 1884 في حيّ الشاغور بدمشق وكان أبوه موظفاً في دائرة مالية المدينة المذكورة. ولمّا أصبح من العمر ستّ سنوات توفي

والده، وكفله شقيقه الأكبر عزيز. وقد دخل يوسف إحدى مدارس دمشق الابتدائية ومنها انتقل عام 1893 إلى المدرسة الإعدادية العسكرية التي كان مقرّها جامع دنكز. وفي العام 1900 انتقل يوسف إلى المدرسة الحربية التحضيرية «قله لي» في إسطنبول، ثمّ في العام التالي دخل في المدرسة الحربية العالية «حربية شهانة» حيث تخرّج منعا برتبة ملازم ثان عام 1903.

ورقّي إلى رتبة ملازم أول سنة 1905 ثمّ إلى رتبة نقيب في العام 1907 بعد أن قام بدورة أركان حرب محلية في اسطنبول، وحاز على وسام المعارف الذهبي الذي يُمنح عادة في المعاهد العسكرية العليا. وفي العام نفسه اختير معاوناً للقائد الألماني ويتفرت للتمرّن برفقته، وبعدها ألحق بفرقة الفرسان التي كانت تتمركز في ثكنة «رامي» في إسطنبول، ومن هناك نقل إلى فوج القنّاصة العاشر الذي كان متمركزاً في بيروت. وبعد ذلك عاد عام 1908 إلى مدرسة أركان حرب في قصر يلدز حيث عمل فيه مدرّباً مساعداً لمادة التعبئة، ثمّ عيّن عام 1909 في إحدى فرق الجيش المرابطة في منطقة الروملي «مقاطعة كليسة» تحت قيادة القائد التركي الشهير حلمي باشا.

وفي أواخر العالم 1909 أوفد في بعثة دراسية إلى ألمانيا حيث درس هناك في مدرسة أركان الحرب العليا ولمدة سنتين من 1909 وحتى 1911، وبعدها عاد إلى الأستانة ولكنه لم يمكث فيها طويلاً؛ إذ عُيّن ملحقاً عسكرياً في المفوضية العثمانية العليا في القاهرة، ولمّا قامت حرب البلقان عام 1912 اشترك بها في منطقة بلغاريا، ثمّ بعد قيام الحرب العالمية الأولى اشترك فيها وتنقل في جبهاتها المختلفة حيث حارب في رومانيا وفي القفقاس أيضاً.

وفي العام 1917 عُيّن لفترة مساعداً لأنور باشا المفتش العام للجيش العثماني، ثمّ عمل في أواخر الحرب العالمية الأولى رئيساً لأركان حرب الفيلق التركي الأول الذي كان يرأسه الفريق يعقوب باشا، والذي تمكّن من الدفاع عن الدردنيل بكلّ شجاعة حتى نهاية الحرب. وبعد الهدنة بقي العظمة في تركيا وظلّ هناك حتى سمع بتشكيل الحكومة العربية في دمشق فاستقال عندئذ من منصبه في الجيش

التركي والتحق بالقوات السورية، مع العلم أنه كان بوسعه أن يبقى في تركيا برتبته نفسها لأنّه كان قد تزوّج من فتاة تركية ورزق منها بفتاة اسمها «ليلى».

وقد عمل يوسف العظمة بعد التحاقه بالجيش العربي الفيصلي ضابط ارتباط في بيروت، فاستخدم الشيفرة لأوّل مرة في مكتب الحكومة العربية هناك، كما وكان يرسل الكتب المهمّة والسرّية مع معاونه الرئيس عزّت الساطي إلى دمشق. وبعد إعلان الملكية نقل من بيروت وعين رئيساً لأركان حرب القوات العربية بعد ترقيته إلى رتبة عميد. ثم عند تشكيل وزارة الأتاسي الدفاعية يوم 3 أيار 1920 أسندت إليه وزارة الحربية فعكف على تنظيمها وتقوية الجيش العربي اليافع، ولكن الأقدار لم تمهله لإتمام مهمته فاستشهد في ميسلون يوم 24 تموز 1920.

موقف الفقيد ومناقبه:

ليس بوسعنا أن نفهم موقف الفقيد الوطني على جليته إلّا إذا علمنا شيئاً عن خلقه وطباعه:

كان، رحمه الله، رجلاً بكلّ ما تحمل هذه الكلمة من معنى، يعتزّ بنفسه وعروبته اعتزازاً واضحاً وإن كان مفهومه للعروبة يتخذ الطابع الديني الإسلامي في كثير من الأحيان. وكان يتحلّى بكثير من الصّفات الحسنة شهد له لها حتى أعداؤه؛ فقد قال عنه الجنرال غوابيه قائد الجانب الفرنسي في معركة ميسلون:

وكان يقود هذا الجيش وزير الحربية العربي الكولونيل يوسف بك العظمة وهذا الضابط كان مساعداً لأنور باشا وهو ذكي وطموح كرئيسه السابق، ولذا فقد كان على رأس متطرفي المنطقة الشرقية؛ فكان بذلك عدوّاً لا يمكن استمالته، ولقد كان مهتمّاً بكثير من النشاط والمثابرة بقضية تنظيم الجيش العربي وعلى هذا لم يكن أبداً عدوّاً يستهان به.

كما قال عنه الكولونيل غودو رئيس أركان جيش الشرق: «هذا الضابط الشاب تماماً كان عدواً شرساً لنا وعلى رأس المتطرّفين. كان يفخر بأنّه كان قائداً

للبطارية التي أصابت الجنرال غورو في الدردنيل. ولقد كان طموحاً جداً، وبما أنه سبق وعمل كمرافق لنوري باشا فقد كان يأمل أن يلعب دور رئيسه السابق في سورية، فقام منذ وصوله إلى الوزارة بإعادة تنظيم الجيش الشريفي».

ويجب أن نضيف إلى ذلك أنّه كان عسكرياً بطبعه، حسب المفهوم الجرماني للحياة العسكرية: كان للجيش بحسب مفهومة مهمة واحدة هي أن يقاتل، بصرف النظر عمّا إذا كان سيربح المعركة أم سيخسرها نتيجة لهذا القتال. ولذا فقد انفرد في مجلس الوزراء، ومنذ بداية أزمة إنذار غورو، بالإصرار على الدّفاع وعدم الرضوخ للمطالب الفرنسية. وليس هذا الموقف خاطئاً إذ أننا نجد له مثيلاً في كثير من مواقع الحرب العالمية الأولى والثانية؛ فلقد كان أعضاء الحكومة البلجيكية وقادة الجيش البلجيكي يعلمون مثلاً تمام العلم أنّ جيشهم لا يمكنه أن يصمد أمام الجيش الألماني فترة طويلة أكثر من يوم واحد، وكانوا يعلمون أيضاً أنهم سيضحون بنصف تعداد جيشهم على الأقلّ إذا حاولوا الوقوف أمام الجيش المتقدم، ومع هذا وقفوا في وجهه ثلاثة أيام وخسروا ثلث جيشهم قبل أن يحتلّ الجيش الغازي بلادهم. وعزاؤهم في ذلك أنّ التاريخ لم ينسَ لهم موقفهم المشرّف هذا ولن ينساه. ونجد الموقف نفسه في بولونيا وتشيكوسلوفاكيا عندما قامت القوّات النازية باحتلالهم عام 1939.

وهكذا كان الأمر بالنسبة ليوسف العظمة، كان يعلم أنه لابدّ من معركة فاصلة بين السورين والفرنسيين، ولم يكن يمنعه من خوضها علمه سلفاً بأنه سيخسرها، لأنّه كان يعتقد أن مشي فرنسا على جثث الشعب وأشلائه، واستيلائها على مدن خربة مدمرة، أفضل وأشرف للشعب السوري من فتح أبواب بلاده للمستعمر ليدخلها بسهولة ويمشي في شوارعها مستعلياً. ولا ريب أنّ الشهيد يوسف العظمة كان يملك أن يفعل مثلما فعل لدّاته من القادة والرؤساء ممن تطامنوا إلى فقد توازن القوى فأسلموا أنفسهم إلى الانسحاب يأساً من إمكان إحراز الغلبة. ولكنه كان واثقاً وأوثق منهم صلة بالمثل العالي، فأطلقها ميتة باسلة رائعة وضعت الشرف العسكري السوري في الذروة.

ولذا نجده مصمّماً على أن يدافع عن دمشق ولو كان هذا الدفاع مجرّد دفاع رمزي، وأن يُقتل وراء المدفع الذي كان يرسل منه الطلقات إلى الجيش المعتدي. وكان يردّ على رفاقه في مجلس الوزراء حين يسألونه عمّا يجب عمله إذا كان النصر على جانب الفرنسيين: «فليدخلوا غصباً عنا أفضل من أن يدخلوا برضانا، لأنهم إذا دخلوا برضانا فسوف لن يخرجوا بسهولة، وأما إذا دخلوا قسراً عنّا فبوسعنا في أيّ وقت أن نطلب منهم الخروج من بلادنا». وهكذا فقد صمّم يوسف العظمة على الدفاع والاستشهاد غير آسف على شيء، إلّا على شيء واحد وهو انصياع الحكومة العربية للإنذار وتسريح الجيش، ولذا كانت آخر كلمة قالها للأمير زيد في يوم 23 تموز أي قبل معركة ميسلون بيوم واحد: «لقد أخطأنا بتسريح القوّات ولكننا سنحارب حتى النهاية».

هذه بعض مناقب الفقيد ولمحات من خبايا شخصيته الفذّة التي أثّرت كلّ التأثير على موقفه السياسي والعسكري في أحداث ميسلون الشهيرة. وكان يوسف العظمة مؤمناً بأنه مقبل على الموت لا محالة، ولذا فقد قال باللغة التركية لساطع الحصري وهو يودّعه قبل انطلاقه إلى ميسلون: «إنني أترك ابنتي الوحيدة ليلى أمانة في أعناقكم». ثمّ انطلق بصحبة مرافقه الرئيس ياسين الجابي إلى القصر الملكي ليستأذن الملك فيصل بالذهاب إلى الجبهة . وبعد أن أدّى التحية للملك قال:

أتيتُ لأتلقّى أوامر جلالتكم.

فأجاب الملك فيصل: بارك الله فيك، إذاً أنت مسافر إلى ميسلون؟

العظمة: نعم يا مولاي، إذا كنتم لا تودّون قبول الإنذار الأخير.

فيصل: ولماذا كنت تصرّ على الدفاع بشدّة؟

العظمة: لأنّني لم أكن أعتقد بأنّ الفرنسيين يتمكنون من دوس جميع الحقوق المدنية والدولية والإنسانية ويقدمون على احتلال دمشق.

فعلّق الملك على جوابه بالبيت التالي:

«لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم»

العظمة: إذاً فهل يأذن جلالة الملك لي بأن أموت؟

فيصل: بعد أن انتهت الأمور إلى هذه الحال يجب علينا جميعاً أن نموت شرفاء وننقذ البلاد من حرب أهلية أيضاً.

العظمة: إذاً فأنا أترك ابنتي الوحيدة أمانة لدى جلالتكم.

ثم أدّى التحية العسكرية وخرج إلى ميسلون ليتولّى قيادة الجيش.

التدابير العربية الدفاعية

نعني بكلمة «تدابير» هنا مجمل الترتيبات التي اتخذتها الحكومة العربية في دمشق دفاعاً عن نفسها وذلك سواء أكانت هذه الترتيبات سياسية أو عسكرية. وقد بدأت هذه التدابير منذ تشكيل حكومة هاشم الأتاسي الدفاعية يوم 3 أيار 1920 ولم تنته إلّا مساء 23 تموز، أي في الليلة السابقة لمعركة ميسلون. وكان أوّل ما فعلته هَذه الحكومة أن رفعت مدّة الخدمة العسكرية الإجبارية من ستّة اشهر إلى سنة كاملة، وقلّلت المستثنين من هذه الخدمة إلى أدنى حدّ ممكن، وشفعت ذلك بطرح قرض وطني داخلي لتأمين مصاريف الدفاع عن الوطن هذا من جهة، ومن الجهة الأخرى أخذت الهيئات الوطنية أيضاً تنشط في اعمالها كما أنّ الثورات القائمة في مختلف أنحاء المنطقة العربية ايضاً صارت تزداد قوة واتساعاً.

وبعد أن تسلّم يوسف العظمة وزارة الحربية قام بتنظيم الجيش حسبما أمكن، وأعاد مركزته بشكل يتلاءم مع التطوّرات السياسية الجديدة. وفي سبيل تقوية الروح المعنوية في الجيش ولدى السكان قام العظمة بإجراء عرض عسكري في دمشق، وقد سارت القوات على طول شارع النصر خلال مدة تقارب الساعة ونصف الساعة وكان عدد الجند الذين اشتركوا بالعرض يربو على الثلاثة آلاف وثمانمائة جندي نظامي، مزوّدين بثمانية وأربعين مدفعاً وثمانين رشاشاً بين ثقيل وخفيف، مع ثمانين سيارة للنقل ، ومائة وثمانين عجلة للنقليات، وذلك عدا الحرس الملكي وطلاب المدرسة الحربية وقوى الدرك والشرطة.

وكان جلالة الملك فيصل واقفاً أثناء الاستعراض أمام مبنى المشيرية، وإلى جانبه يوسف العظمة وقنصل فرنسا المسيو بيسكو. ومما يُروى في هذا المجال أن المسيو بيسكو التفت إلى العظمة وسأله باستخفاف: «أتريدون محاربتنا بهذا الجيش؟» فأجابه العظمة بسخرية: «بالعكس، نريد معاونتكم». وقد حشد يوسف العظمة القوات العربية من حلب على مرجعيون، وقسّم جبهته إلى ثلاث مناطق:

الأولى منطقة حلب والثانية منطقة حمص – تلكلخ، والثالثة منطقة عنجر على مرجعيون. وبهذه الطريقة يكون الجيش العربي قد زرع قواته على جبهة واسعة جداً فأصبح ضعيفاً في كلّ النقاط.

وقد أسندت قيادة حلب إلى القائم مقام إسماعيل الطباخ، وجبهة حمص وحماه إلى السيد يحيى حياتي، وأمّا جبهة مجدل عنجر، وهي أهم الجبهات، فقد كلّف السيد ياسين الهاشمي بقيادتها، ولكنه رفض ذلك، كما مر معنا، ولذا أسندت قيادتها إلى القائم مقام حسن تحسين الفقير. ونظراً لأنّ الجبهة الأخيرة هي حور الجهد، حسب التعبيرات العسكرية، ولذا أصدر الوزير العظمة أمراً تنظيمياً يحدّد مهمات فرقة مجدل عنجر بكاملها، ثم المهمّات التفصيلية للحاميات التابعة لهذه الفرقة وذلك على الشكل التالي:

أ- قيادة دمشق ووظائفها:

1- الدفاع عن العاصمة.

2- الارتباط الشديد مع قيادتي البقاع والقنيطرة.

3- تشكيل احتياط قوي لآمر المنطقة.

ب- قيادة البقاع ووظائفها:

1- ستر بعلبك.

2- الارتباط الشديد مع قيادة يحفوفا.

3- إشعال الثورة وإدارتها في المنطقة عند تقدم الفرنسيين حرباً لها.

ج- قيادة يحفوفا ووظائفها:

1- الدّفاع عن الوادي وتوحيد الحركات مع قيادتي بعلبك ومجدل عنجر.

د- قيادة مجدل عنجر ووظائفها:

1- الوقوف في وجه الجيش الفرنسي لمنع تقدّمه نحو العاصمة والدفاع عن المضائق أي وادي الحرير ووادي القرن.

2- إسداء المعونة عند اللزوم إلى القيادات المجاورة.

3- تأمين الارتباط الشديد مع قيادات يحفوفا وراشيا.

هـ- قيادة راشيا ووظائفها:

1- تأمين طريق قطنا.

2- حماية الجناح الأيسر لقلاية مجدل عنجر.

3- تأمين الارتباط وتوحيد الحركات عند الإيجاب مع قيادة القنيطرة.

د- قيادة القنيطرة ووظائفها:

1- تنسيق القوى الموالية في هذه المنطقة وإعدادها لنجدة المناطق المجاورة.

2- منع تسرب العصابات من المنطقة الساحلية نحو دمشق وضواحيها.

وبعد وصول الإنذار الخطّي تم استدعاء اللواء المدفعي التابع لفرقة درعا إلى دمشق وقد كلّف قائده محمد علي المدفعي وضع نفسه مع لوائه تحت تصرّف الفرقة الأولى للواء الخيالة الذي كان يرأسه القائد إسماعيل نامق. وبما أنّ قسماً من الفرقة الأولى كان متمركزاً في دمشق لذا أصدرت الأوامر لوحدات هذا القسم بالتوجّه إلى مجدل عنجر والتمركز هناك، فانطلق اللواء الأول بإمرة قائده حسن الهندي وتمركز على مقربة من رياق، واللواء الثاني بإمرة توفيق العاقل وتمركز في منطقة مجدل عنجر نفسها، وأما اللواء الثالث فقد أرسل إلى منطقة حاصبيا بقيادة القائم مقام أحمد شكري، وقد قام هذا اللواء الأخير بفرز كتيبة معزّزة بمدفعين جبليين إلى منطقة القنيطرة، وقد وضعت هذه الكتيبة تحت إمرة القائد أحمد رشدي الجبّان.

كما وتمّ مد خطوط هاتفية بين مختلف مواقع منطقة مجدل عنجر التي تعتبر ذات أهمية تعبوية كبيرة بالنسبة لمحور دمشق – بيروت، ولذا نجد أنّ الجيش العربي قد ركّز جهده هناك فبلغ عدد قواته في هذه المنطقة ألف وأربعمائة جندي في فترة الإنذار، وأما المدفعية فقد تمّ إرسال لواء مدفعي بإمرة القائم مقام أحمد صدقي الكيلاني إلى منطقة مجدل عنجر.

ورغم أنّ القوات العربية التي تمركزت في منطقة مجدل عنجر كانت غير كافية سواء من حيث عدد الجند أو من حيث قوة الأسلحة للوقوف طويلاً في وجه الجيش الفرنسي، فإنه كان من الأفضل حتماً لو بقيت هذه القوة في مكانها.

لكن الأوامر صدرت صباح 20 تموز بالانسحاب بعد قبول الإنذار الفرنسي والبدء بتسريح الجيش تنفيذاً لبنود هذا الإنذار. وكان سحب الفرقة من مجدل عنجر والأمر بتسريح الجيش الخطيئة العسكرية الكبرى والتي كانت أحد أسباب خسارة معركة ميسلون، كما سيمرّ معنا في حينه. وقد سبّب قرار الانسحاب هذا صدمة أليمة للضباط المتحمسين الذين كانوا يتمنّون إتاحة الفرصة أمامهم للدّفاع عن بلادهم، حتى أنّهم لم يجدوا لهم شهية لتناول طعام الغداء والعشاء في ذلك اليوم، وأمّا الجنود والرقباء فكانوا يغنّون فرحاً، لاعن ضعف في وطنيّتهم ولكن نظراً لضعف الوعي القومي لديهم واعتقادهم بأنّهم سيتمّ تسريحهم وإعادتهم إلى أهاليهم بعد ذلك. وتنفيذاً لأمر الانسحاب والتراجع تمّ تعيين وكيل القائد الرائد السيد نوري رمّو مع حوالي مائة جندي لحراسة أعتدة الفرقة الثقيلة ريثما يتمّ سحبها.

وقد تأخّرت وحدات المدفعية عن مرافقة قطعات المشاة في انسحابها وذلك نظراً لصعوبات جرّ المدافع وسحبها من مراكزها. وما إن بلغ قائد المدفعية، القائم مقام أحمد صدقي الكيلاني، مخفر جديدة يابوس حتى أنبأه مأمور هاتفها أنّ مأمور هاتف مجدل عنجر بلّغه أنّ القوات الفرنسية قد وصلت إلى هناك، وأنها تسير بأعقاب الجيش السوري المنسحب باتجاه دمشق. فأصدر أمره بالإسراع حتى لا تتلاقى وحدات المدفعية بجيش العدوّ على الطريق العام فتصبح غير

قادرة على الدفاع عن نفسها. وعندما بلغت هذه الوحدات «عقبة الطين» الواقعة غربي نبع ميسلون بحوالي مائتي متر، التقت باللواء الأول من المشاة الذي كان قد سبقها برئاسة القائد حسن الهندي. وقد أطلع قائد المدفعية على أنه تلقّى عند بلوغه تلك النقطة أمراً من وزارة الحربية مؤدّاه وجوب مقاومة زحف الجيش الفرنسي، وعندها تهيّأت المدفعية أيضاً للانصياع إلى ذلك الأمر والاتفاق مع ذلك اللواء لصدّ الغارة الفرنسية عن دمشق.

وكانت الحكومة العربية في دمشق قد سمعت منذ فجر اليوم المذكور، 21 تموز، بزحف الجيش الفرنسي رغم تنفيذ بنود الإنذار ولذا احتاطت للأمر، وأصدر الوزير يوسف العظمة، القائد العام للجيش، أوامره برقياً إلى قائد الفرقة العربية التي كانت تنسحب من ميسلون بعد قبول الإنذار بأن يتوقف عن الانسحاب ويأخذ موضعاً دفاعياً في عقبة الطين، وأن يطلب من الفرنسيين الزاحفين إلى دمشق أن يعودوا إلى معسكراتهم؛ فإذا لم يقبلوا ذلك بعد إنذارهم ثلاث مرات أن يجبروهم على التوقّف بقوة السلاح.

وبعد ظهيرة ذلك اليوم وصلت مقدمة القوة الفرنسية إلى قرية جديدة يابوس على مقربة من ميسلون، فقام القائد حسن الهندي، تنفيذاً لأوامر وزارة الحربية المذكورة أعلاه، بإرسال الملازم جميل برهاني لإنذار الفرقة الفرنسية المتقدّمة بالتوقف عن التقدم تحت طائلة التعرّض للنيران السورية، وقال له بالحرف الواحد: «اذهب حالاً إلى الوراء وتابع سيرك حتى تجد الفرنسيين وعندها قابل قائد الحملة الفرنسية وأخبره عزم الحكومة على الدفاع عن هذه المنطقة وأننا سوف نقاتلهم إذا استمروا بالتقدم نحو العاصمة».

فتقدّم عند ذلك الملازم برهاني باتجاه قرية جديدة يابوس ومعه عسكري خيّال مسلّح لمرافقته، ولمّا وصل إلى المعسكر الفرنسي الذي كان قد وصل إلى هذه القرية قابل ضابط درك لبناني يعمل في معيّة الفرقة الفرنسية هناك، وأخبره عن غرض مجيئه؛ فاصطحبه هذا إلى قائد استخبارات فرقته، واسمه الكومندان أرلابوس، حيث بلّغه الرسالة الشفوية التي حملها له، فقام أرلابوس

بالاستئذان للتغيّب قليلاً حيث قابل الجنرال، ثمّ عاد وأخبر البرهاني أنّ الجنرال يعتذر عن مقابلته لتعبه، وبأنه كلفه بأن يعلمه أنّ الفرقة الفرنسية تحمل الأمر بالتقدّم سلمياً على طريق دمشق وأنه إذا تم الإطلاق عليها فسيكون جندها مضطرين للردّ على النار بالمثل. وعندها عاد الملازم برهاني إلى ميسلون حيث قابل هناك السيد حسن الهندي المكلّف بقيادة الفرقة وأخبره بالجواب الذي حصل عليه من الجنرال غوابيه على لسان قائد استخباراته الكومندان ألاربوس، فما كان من السيد الهندي إلّا أن أعطى الأوامر بالحذر وبمنع الفرنسيين من التقدّم.

وبالإضافة إلى الإنذار الذي حمله الملازم جميل برهاني فقد تم تكليف رسول أخر بمثل هذه المهمة من قبل لواء المدفعية حيث قام قائد هذا اللواء بتبليغ الرئيس طه الشيخ رجوب مقابلة القائد الفرنسي وإنذاره بعدم التقدم أكثر من ذلك، ولكن الجواب الذي أخذه هذا الضابط من القائد الفرنسي كان: «إننا نريد أن ندخل دمشق بمعيّتكم».

وفي مساء اليوم نفسه أراد الفرنسيون التأكّد من تصميم السوريين على الدفاع عن عاصمتهم فأمروا خمساً من دباباتهم بالتقدّم عبر وادي القرن، ولكنّ هذه البابات لم تكد تظهر في مدخل الوادي حتى أصلتها المدفعية السوية ناراً حامية، وأصابت ثلاثاً منها إصابة مباشرة.

وفي هذا الوقت كان كلّ من القائم مقام تحسين الفقير، قائد الفرقة الأولى، والشيخ كامل القصاب، رئيس اللجنة الوطنية العليا، ومعهما زعماء البلد يطوفون أحياء دمشق لحضّهم على الالتحاق بالجيش في ميسلون للقيام بفريضة الجهاد.

وفي صباح اليوم التالي بدأت نجدات المشاة ترد عن طريق التكية ونجدات الخيالة على الطريق العام نفسه، حيث تواردت بعض المتطوعة التي سلّحت من خان ميسلون، وسرية الحرس الملكي بقيادة الرئيس محمد علي بك العجلوني، وسرية الهجانة بقيادة القائد الشيخ مرزوق التخيمي. وكان بين المتطوعين الذين

حضروا بسلاحهم من دمشق الشيخ عبد القادر كيوان والشيخ كمال الخطيب والشيخ محمد توفيق الدرّة، وياسين كيوان وصلاح الدين أبو الشامات وعمر الصباغ وصادق جلال وأحمد الموصلي ومحمد نور الحصري وعبدو الصباغ وعبد الله الكلاس. وهؤلاء الأبطال استشهدوا جميعاً بعد أن أبلوا بلاء حسن في قتال العدوّ الغاصب وقتلوا منه الكثير.

وكانت البنادق التي توزّع على الجنود مختلفة الأنواع؛ فمنها العثماني ومنها الألماني ومنها الإنكليزي، ممّا أدّى إلى قيام صعوبات كثيرة في طريقة توزيع المتطوعين لأنّ الضّرورة كانت تقتضي توحيد السلاح في كلّ وحدة مقاتلة.

وقد أدّى ذلك إلى نشوء صعوبة أخرى وهي أنّ كلّ متطوّع كان يرغب بالتمركز والقتال إلى جانب أقاربه وأبناء حيّه رغم اختلاف نوع السلاح الذي يحمله عن بقية الأسلحة الموجودة مع الآخرين الذين يرغب بالقتال معهم.

وكانت دمشق قد بدأت تستعدّ لحالة الحرب التي فرض عليها الفرنسيون خوضها، ولذا فقد قام كل من الملك والحكومة والقيادة العامة في يوم الجمعة 23 تموز بنشر بيانات تحوي الأسباب التي جعلت الجانب العربي يضطرّ لسلوك مسلك الحرب دفاعاً عن مقدّسات الوطن وذوداً عن أرضه.

كما وأن قيادة الجيش العربي أصدرت بلاغاً عسكرياً للمناوشات التي جرت بين قواتها والقوات الفرنسية المعتدية والتي كان أهمّها الهجوم على موقع تلكلخ الذي كان يحتلّه الفرنسيون بقيادة الكولونيل مانسييه وذلك في ليلة اليوم السابق 22 تموز.

وفي ذلك اليوم أتي يوسف العظمة إلى ميسلون، واجتمع بالضّباط هناك وأبلغهم أنّ المفاوضات قد أصبحت بلا جدوى ولا طائل، وأنّ نفير الحرب لابدّ أن يصدح. لذلك أوعز إلى قيادة الفرقة أن تكون جميع القوى على أهبة الاستعداد للقتال وعلى استعداد لصدّ غارات العدو المهاجم.

وصدرت الأوامر المقتضية لقواد الميمنة والميسرة والقلب بأن يتأهّبوا لمجابهة الأعداء. كما وتمّ في الاجتماع نفسه إعطاء الأوامر بالقتال وتوزيع المهمات للدفاع عن وحدات الفرقة.

وفي مساء يوم 23 تموز قام العظمة بجولة على الوحدات المتمركزة في منطقة عقبة الطين، ثمّ عاد إلى مركز قيادة الفرقة حيث تناول العشاء مع قائد الفرقة تحسين الفقير، ثمّ التحف كل منهما ببطانية رغبة في النوم ولكنهما لم يتمكنا من ذلك إلا حوالي منتصف الليل، فقد بقيا مستغرقين في النوم حتى الساعة الرابعة صباحاً حيث استيقظا في هذه الساعة لتأدية صلاة الصبح ثم بدءا بالاستعداد لخوض معركة ميسلون.

جيش الشرق واستعداداته الهجومية

بدأ الفرنسيون يستعدّون لاحتلال سورية منذ أواسط العام1916، ولذا نرى قادتها السياسيين والعسكريين يحاولون إقناع الحلفاء بنزول جيوشهم في الاسكندرونة بدلاً من الدردنيل في أواسط الحرب العالمية الأولى. كما أنّ الكولونيل بريمون قائد المفرزة العسكرية في الحجاز يعترف في كتابه المسمى «الحجاز في الحرب العالمية» بأنه أرسل إلى القيادة العامة الفرنسية في أوائل عام 1917 كتاباً يقترح فيه إنزال جيوش فرنسية عن طريق البحر لاحتلال سورية، حتى لو أدّى الأمر لقيام فرنسا بهذا الاحتلال بعمل وحيد الطرف، ولكنّ الحكومة الفرنسية لم تقبل اقتراحه هذا خيفة من إغضاب حلفائها فيما إذا أقدمت على هذه الخطوة بمفردها.

ولم تسفر فرنسا عن مطامعها بشكل كامل إلا بعد انتهاء الحرب ، ولذا أخذت باستقدام الجنود من جميع أنحاء فرنسا ومستعمراتها وتجميعهم في المنطقة الغربية (لبنان) التي كانت تحتلها، وذلك تهيؤاً لاحتلال سورية بكاملها. وقد اعترف بذلك الكولونيل غودو رئيس أركان جيش الشرق حيث قال: «لم يعد الأمر مجرّد القيام بحراسة العلم بل القيام بعملية احتلال».

وقد أرادت الحكومة الفرنسية أن تغتنم فرصة تبديل الجيوش البريطانية بالفرنسية بموجب الاتفاق الذي وقع في باريس يوم 15 أيلول 1919 وذلك لكي تقوم الوحدات الفرنسية باحتلال سورية بكاملها، وكان أوّل ما فعلته في سبيل هذا الهدف أن سحبت الجنرال هاملان، قائد جيوشها في الشرق، وعيّنت محلّه الجنرال غورو، قائد الجيش السابع الذي كان متمركزاً في مقاطعة الألزاس، قائداً أعلى للجيش الفرنسي ومفوض سام لفرنسا في سورية ولبنان وكيليكية وذلك بمرسوم صدر في باريس يوم 5 تشرين الأول. وفي يوم 7 تشرين الأول من العام نفسه عقد اجتماع عالٍ في باريس تحت رئاسة المارشال «فوش»، القائد الأعلى للجيش الفرنسي في ذلك الوقت، وقد تقرّر في ذلك الاجتماع أن يصل عدد الفرق الفرنسية في جيش الشرق الفرنسي إلى ما يساوي عدد الفرق الإنكليزية التي كانت متمركزة في الأراضي السورية بتاريخ 15 أيلول 1919 وهو تاريخ توقيع اتفاقية استبدال الجيوش البريطانية بالفرنسية التي سبق أن أشرنا إليها.

وكان هذا يعني بلغة الأرقام أن يصبح عدد الوحدات العسكرية في الشرق كما يلي:

اثنان وثلاثون فوج مشاة

عشرون كوكبة خيالة

أربع عشرة بطارية مدفعية

وقد غادر غورو باريس يوم 10 تشرين الثاني فوصل إلى بيروت في الحادي والعشرين من الشهر نفسه وبدأ بتجميع قواته حسب الخطة التي أتمّ وضعها في باريس قبل مجيئه إلى الشرق. وكان عدد الوحدات الإنكليزية في سورية يوم 1 تشرين الثاني عام 1919

أربعة وثلاثون فوج مشاة

خمس عشرة ونصف كتيبة خيالة

خمسة أفواج ونصف هندسة

ثلاث عشرة بطارية مدفعية

بينما كان عدد الوحدات الفرنسية في التاريخ نفسه لا يزيد عن:

ثلاثة عشر فوج مشاة (منها ثلاثة أفواج أرمنية وفوج مشاة مختلط)

ثلاث كوكبات خيالة

أربع بطاريات مدفعية

ولكن سرعان ما بدأت التعزيزات المدفعية تتدفّق على الشرق فوصل فوج الرماة الثامن عشر ثم الفوج السنغالي السابع عشر بتاريخ 17 تشرين الثاني 1919.

وبعد وصول غورو إلى الشرق قام بإصدار أمر عسكري بتاريخ 1 كانون الأول 1919 وقد قسّم به جيشه على الشكل التالي:

1- فرقة كيليكيا

مقرّها أضنة تحت قيادة الجنرال ديفيو وتضمّ لوائي منشأة بهما ستة أفواج وكتيبة خيالة وسبع بطاريات مدفعية.

2- فوج سورية

مقرّها زحلة بقيادة الجنرال ده لا موت، وتضمّ لوائي مشاة بهما ستة أفواج وكتيبة خيالة وسبع بطاريات مدفعية.

ولم يتوقف عدد الوحدات العسكرية في فرقة سورية عن الزيادة حتى وصل في يوم 8 نيسان عام 1920 إلى ثلاثة وثلاثين فوج مشاة وثلاث كواكب خيالة.

ولم يكنْ عدد الطائرات الموجودة تحت تصرّف قيادة جيش الشرق في شهر آذار سنة 1920 إلا ثماني طائرات، ولكن هذا الموقع ارتفع على ثمانية أسراب في شهر تموز من العام نفسه. وكان أقوى هذه الأسراب هو السرب الثامن استطلاع، وثلاثة أسراب قصف من طراز «بريغيه»، وهي الأسراب 202 – 202 – 203، وقد عيّنت هذه الأسراب الأربعة لدعم العمليات العسكرية الفرنسية في معركة

ميسلون وذلك بعد أن اتخذت قرية «تعنايل» كمطار انطلاق لها منذ يوم 15 تموز 1920. وأما دبابات القتال فقد وصلت سريّة منها يوم 28 شباط وسريّة أخرى يوم 27 آذار وثالثة يوم 6 حزيران 1920 ، كما أنّ مفرزتين من المدفعية ذاتية الحركة وصلتا في شهر كانون الثاني من عام 1920 .

وعند إعلان الملكية في دمشق يوم 8 أذار 1920 قرّرت فرنسا ألّا تسمح للدولة السورية الفتية بالاستقرار تحت نظام حكمها الجديد، ولذا أخذت بالتحضير لعملية عسكرية فعلية تكفل لها بسط نفوذها بقوة السلاح على عموم الأراضي السورية.

وبما أنّ عدد قواتها لم يكن كافياً للقتال في جبهتين: جبهة كيليكية وجبهة سورية؛ لذا تنازلت فرنسا عن مطامعها في كيليكية ووقّعت اتفاقية للهدنة مع تركيا الكمالية في يوم 30 أيار1920 وذلك لكي تتفرغ بكل قواها للإجهاز على الحكومة العربية الجديدة في دمشق.

وفي سبيل ذلك قام غورو بإيفاد كاتم سره المسيو روبرت دوكيه إلى باريس طلباً لنجدات عسكرية، فتمكن هذا من تأمين الموافقة على أن يكون عدد الجيوش الفرنسية في الشرق سبعين ألف جندي. ويظهر أن غورو قد أتمّ إعداد كل شيء لتنفيذ خطته التي كان يعمل لها منذ تعيينه مفوضاً سامياً لاحتلال سورية؛ إذ أن رئيس وزراء فرنسا الجديد، المسيو ميللران، كان قد القى في 18 شباط سنة 1920 خطاباً أمام لجنة الشؤون الخارجية صرّح فيه بأنّ الضرورة تقضي بإرسال ثلاثين ألف جندي آخرين إلى سورية لاحتلال أراضي الموصل وحلب ودمشق.

وكان أهمّ الوحدات المحدثة الجديدة التي وصلتْ إلى سورية هي اللواء السنغالي الذي كان يقوده الجنرال بوردو، وقد وصل هذا اللواء إلى بيروت يوم 20 حزيران 1920، واستخدم لإكمال نواقص المشاة الأربعة التابعة للفرقة الثالثة التي كان يقودها الجنرال غوابيه، وهو من سيقود الجانب الفرنسي في معركة ميسلون.

وبدأ غورو بعد ذلك بالتّحضير لخوض معركة ميسلون بعد أن أصبحت لديه الوحدات اللازمة لذلك، فقام بتوزيع وحداته العسكرية على ثلاث مجموعات:

المجموعة الأولى

تضمّ فرقة المشاة الثانية (ستّة أفواج) وتنطلق في اليوم المحدد من قطنا وتتخذ مدينة حلب كهدف لها.

المجموعة الثانية

تضمّ فرقة المشاة الرابعة (سبعة أفواج) وعليها أن تجتمع في منطقة طرابلس – تلكلخ، وتنطلق عند اللزوم لاحتلال حمص وحماه.

المجموعة الثالثة

وتتكوّن من فرقة المشاة الثالثة التي أصبحت بعد تعزيزها تضمّ عشرة أفواج مشاة وستّ كواكب خيالة وسبع بطاريات مدفعية وسرية دبابات قتال وأربعة أسراب طيران.

وقد أُنيطت بهذه المجموعة الأخيرة، التي كان يرأسها الجنرال غوابيه كما أسلفنا، مهمة احتلال رياق كخطوة أولى في طريق احتلال دمشق وذلك عندما تتلقى الأمر بذلك في الوقت المناسب، وقد قام الجنرال غوابيه بهذا بكلّ سرّية بتنظيم مخيم تدريبي لفرقته في منطقة عين صوفر.

وقد تمّت مركزة اللواء السنغالي في هذا المخيم التدريبي أو في الأراضي المجاورة وأمّا بالنسبة لبقية عناصر الفرقة الموجودة في المريجات وسعد نايل وزحلة فقد رتبها غوابيه عمقاً بين عين صوفر وبيروت. وبهذا أصبحت الفرقة الفرنسية في المكان المناسب لانطلاقها من تخوم البقاع وذرى جبل لبنان. وقد أبقى غوابيه حامياته الموجودة في كل من تبنين وجديدة ومرجعيون ولكنه سحب الحاميتين

اللتين كان قد تكهما الكولونيل مانسييه أثناء الحملة في جبال العلويين في موقعي بانياس الساحل والمرقب ومركزهما في طرابلس وتلكلخ لكي يسدّ محور تلكلخ – حمص ضد أي هجوم معاكس تجاه مرفأ طرابلس.

وبعد هذه الترتيبات بدأ الجنرال غوابيه بتدريب جنوده على العملية المقبلة وركز تدريبه بشكل خاص على افراد اللواء السنغالي الدين كانوا من الشبان الأغرار ممن استدعوا من منطقة تمركزهم في رينانيا إلى سورية، مما سبّب حملة استياء شديدة لديهم حيث كانوا يرغبون بالعودة إلى بلدانهم الأفريقية. وقد تمّت عملية التدريب هذه وكذلك جميع الأعمال التحضيرية للقتال في النصف الأول من شهر تموز 1930.

وفي الوقت الذي كانت عناصر الفرقة تتدرب على مهمتها المقبلة ومن ضمنها التدريب على القتال في الجبال كان الجنرال غوابيه مع أركان حربه يدرسون مسرح العملية المقبلة في الخارطة وعلى الأرض بواسطة عناصر استطلاع أرسلها سراً لتستطلع له منطقة عمليات اليوم الأول من المعركة.

وقد وضع الجنرال غوابيه مدينة دمشق نفسها كهدف، ثم بدأ يدرس مع أركان حربه وسائط المواصلات التي تؤمن له الوصول إلى هذا الهدف وهي:

الخط الحديدي: رياق – سرغايا – وادي بردى.

الطريق العام دمشق –بيروت، الذي يمرّ من جبال لبنان على ارتفاع يقارب ألف وأربعمائة متر، وقد اختار غوابيه اتباع الطريق الثاني رغم أن هذا الطريق يضيق تماماً فيصبح شديد الخطورة في نقاط: وادي الحرير – وادي القرن – خان ميسلون – وادي بردى، وأما الطريق الأول فقد أهمله لأنه يسير بشكل جانبي باتجاه الهدف وهذا خطأ عسكري يجب تجنبه.

وكان على الجيش الفرنسي المتقدم باتجاه دمشق أن يسير ويجتاز ثلاثة خطوط ذرى:

الخطّ الأول على ارتفاع مجدل عنجر.

الخطّ الثاني مرتفعات كفر يابوس التي تسيطر على سهل عين جديدة وهي أعلى نفطة بمر منها طريق دمشق – بيروت (1358م) في تلك المنطقة.

والخطّ الثالث: كائن في الشمال الشرقي وهو جبل الزبداني الذي ينحدر من وادي القرن ثم يعود للارتفاع في الجنوب الغربي بمرتفعات هلكا التي تتصل بجبل الحرمون.

وأما الأودية التي كانت تفصل بين تلك المرتفعات فقد كان أهمها وادي الزرزور الذي يتجه نحو التكية ووادي بردى الذي ينتهي عند الزبداني.

وكان غوابيه يعلم أنه إذا تمكن من اجتياز هذا الموقع بسلام فإن مهمة احتلال دمشق تصبح ممكنة رغم وجود مواقع نارية أخرى مثل خطّ مرتفعات ميسلون وخطّ مرتفعات الديماس وسهل الصحراء. وأمّا مرتفعات قلعة المزة فهي مانع مهمّ تماماً، ولكنه لا يصلح للدفاع عن دمشق لأنه يمكن قصف جميع أحياء المدينة بالمدافع من خلفه.

وقد صدرت تعليمات قيادة الجيش الفرنسي بتاريخ 2 تموز 1920 إلى الجنرال غوابيه بأن يقوم عند صدور الأمر الخاص بالحركة باحتلال سهل عين جديدة كوثبة أولى، وصحراء الديماس كوثبة ثانية لتهديد مدينة دمشق تهديداً مباشراً من هناك. واشترطت تعليمات القيادة هذه أن تتم عملية الانطلاق سريعاً وبكل سرية وذلك باتخاذ القسم الغربي من سهل البقاع وهو القسم المحيط بطريق دمشق – بيروت، كقاعدة انطلاق.

وقد أدخل غوابيه في حسابه أن يحتلّ أعرض قسم ممكن من سهل البقاع، وذلك لتأمين مراكز حماية أمامية عرضانية، وأن يحتلّ كذلك رياق وذلك لوضع اليد على منشآت شركة دمشق – حماه وتمديداتها من جهة، ولسدّ إحدى بوّابات سهل البقاع بوجه أيّ قوة عربية تأتي من دمشق أو من حمص لمهاجمة القوات الفرنسية جانبياً من جهة ثانية. ولذلك أقدم غوابيه على مهاجمة المخافر العربية التي كانت متمركزة وزحلة، ودفع بذلك حدود المنطقة التي تسيطر عليها القوات

الفرنسية حتى الليطاني. وتمّ احتلال هذه المراكز بدون إطلاق أية طلقة، ويجب عدم استغراب ذلك لأن القوة العربية التي كانت متمركزة في هذه المخافر كانت لا تزيد عن فصيلة واحدة في كلّ موقع وكانت مهمتها المراقبة لا القتال من جهة، ولأنّه كان قد شاع أن الحكومة العربية قد أبرمت اتفاقاً سلمياً نهائياً مع الفرنسيين من جهة ثانية.

وقد أصدر غوابيه أوامره باستخدام بساتين تعنايل كمطار لطائراته واستفاد من مزارع الإرسالية اليسوعية هناك لتمويه تجمعاته وتحركاته. وأما بالنسبة لمركز التموين والإخلاء فقد وقع اختيار غوابيه على مكان جيد لهذا المركز، وهو موقع سعد نايل الذي سبق أن استخدمه الإنكليز عند احتلالهم للبقاع للغرض نفسه، وذلك لأنّه أوّل محطة سهلية منذ بيروت من جهة، ثم لأنه يؤمّن عمليات التوسع والإخلاء من جهة ثانية.

وكانت خطّة غوابيه من الدّقة بحيث توقّع نسف القوات العربية لجسر الليطاني، فاستحضر من بيروت معدّات هندسية كافية لنصب الجسر، ومركزها في قاعدة التمويل تعنايل. وبدأ تنفيذ الخطة في الوقت المحدّد حيث بدأ تحرّك القوات من قواعد انطلاقها كما أنّه قبل إرسال الإنذار الشفوي بيومين احتلّت مفرزة فرنسية محطة سكة حديد رياق الكبرى في البقاع، كما تقدمت قوة أخرى من جرابلس إلى شمالي حلب وعسكرت على نهر الساجور.

وفي يوم 14 تموز وهو يوم إرسال الإنذار الفرنسي لحكومة دمشق، قام الجنرال غورو بمناسبة عيد فرنسا الوطني باستعراض القوّات الفرنسية مرتين: في عين صوفر وفي ساحة المدفع في بيروت وكانت الغاية من هذا العرض تفقّد نواقص الجيش من جهة، وعملية استعراض عضلات أمام العرب اللبنانيين من جهة ثانية.

وفي اليوم التالي، 15 تموز، قامت الطائرات الفرنسية بالتحليق فوق دمشق وحمص وحماه وحلب وألقت بمنشورات موقعة من الجنرال غورو وذلك لحضّ الأهالي على قبول الانتداب الفرنسي والترحيب به بدلاً من الوقوف في وجهه.

وفي 19 تموز تحرّك ركب الجنرال غوابيه في الساعة الحادية والعشرين إلى مقرّ قيادته في دير الآباء اليسوعيين في تعنايل ورغم أنّ الجنرال غورو كان قد أعطى مهلة للحكومة العربية لتنفيذ شروط الإنذار حتى يوم 21 تموز عند منتصف الليل، وهذا يعني باللغة العسكرية منتصف ليلة 21 تموز، فإنه أعطى إلى الجنرال غوابيه أمراً بالتحرّك باتجاه دمشق في منتصف ليلة 20/21، بحجّة أنه لم يتلقَّ جواباً من فيصل، مع العلم أنّ فيصل كان قد أرسل له برقية بقبول الإنذار وأخرى بالبدء بتنفيذه بشكل فوري.

وقد حدّد غوابيه في أمر عملياته التقدمية باتجاه دمشق «وجوب انطلاق القوات الفرنسية من قواعد انطلاقها في تمام الساعة (س) من اليوم (ي) على أن تجتاز في وثبتها الأولى مسافة كافية لحماية خط المدفعية، وذلك بوصولها إلى عرضانية بر الياس –الاسطبل – الخيارة على الأقلّ، وراعى تحديد ساعة الصفر بشكل تتمّ فيه الوثبة قبل أول ضوء. وأمر بأن تتمركز سرية المدفعية الثقيلة مسبقاً في نقطة تقع على تخوم قرية تعنايل من الجهة الجنوبية الشرقية، وذلك لكي تتمكّن من الردّ على أيّ قصف عربيّ يمكن أن يحدث لمنع التحرّكات الفرنسية»

وقد انطلقت الوحدات الفرنسية في منتصف ليلة (20/21) تموز، واجتازت مقدّمتها، في تمام الساعة الرابعة والنصف من صباح 21 تموز، نهر الليطاني فوجدت الحكومة العربية قد سحبت قواتها من الضفّة اليسرى بدون أن تنسف الجسور الرئيسية التي توجد على النهر، وكان ذلك مستغرباً تماماً حتى أنّ غوابيه ظنّ أنّ في الأمر خدعة، ولذا أعطى الأمر أن تتابع الوحدات مسيرها بتشكيلة التحضر للقتال. ولمّا وصلت هذه القوات إلى مجدل عنجر لم تقاوم حاميتها العربية، فجرّدت من أسلحتها وترك أفرادها طلقاء. وعلى هذا فإنّ القوات الفرنسية قد تمكّنت من احتلال هدفها الأول، وهو مرتفع مجدل عنجر، بدون التعرّض لطلقة واحدة. ولمّا وجد غوابيه الدرب إلى وادي الحرير مفتوحاً أمامه، أمر باتباعه فوراً واتخذ احتياطات خيفّة من مفاجأة قواته أثناء مرورها في الوادي المذكور، ولذا أصدر أمراً للجنرال بوردو بتشكيل مقدّمة تسير أمام الجيش كحماية له أثناء تقدمه على طريق دمشق.

وكانت أنباء الاستطلاعات الجوية تأتي فتؤكد تراجع القوات العربية باتجاه دمشق في الوقت الذي وصلت به قوات الليوتنان كولونيل دوزاك، التي كانت تقوم بمهمة المقدمة، إلى موقع عين جديدة، وقوة الصباحين إلى منطقة ينطا. وفي الساعة الخامسة من بعد الظهر يوم 21 تموز، وصلت الفرقة بكاملها، ما عدا المفرزة التي كان يقودها الكولونيل بيتريكس، إلى خطّ وادي القرن ووادي الزرزرو. فأعطى غوابيه الأمر بالتخييم، ووضع مركز قيادته في خان مهدم داخل قرية (عين الجديدة). وبالنسبة لرتل بيتريكس الذي حدّدت له، أثناء تقرّبه، مرتفعات الكنيسة كهدف يجب الوصول إليه، فقد ضلّله دليله وتاه فاجتاز طريق دمشق ليلاً، ولم يلتحق بمخيم الفرقة إلّا في الساعة الثالثة من صباح 22 تموز 1920. أمّا الدبابات الفرنسية فقد قابلتها عدّة قنابل من عيار 105 مم لمّا حاولت أن تدخل وادي الزرزور، حوالي الساعة السادسة مساء يوم 21 تموز، وقد أصيب بعضها –كما رأينا في الفصل السابق–إصابة مباشرة، ولذا اضطر قائدها لسحبها وحمايتها.

ووصل خلال الليل إلى مقرّ قيادة غوابيه وفد سوري برفقة الكولونيل طولا، رئيس البعثة الفرنسية بدمشق، لتذكير غوابيه بأنّ الأمير فيصل قبل جميع أحكام الإنذار، وطلب مهلة جديدة تفسح المجال أمام الحكومة السورية لدرس الوضع الذي أحدثه تقدم القوات الفرنسية إلى الأمام.

ويقول غوابيه في مذكراته بهذا الخصوص:

في الواقع أن توقفنا حيث نحن كان ذا محذور خطير لأنه يضيع علينا الفوائد التي جنيناها من سرعة حركتنا، ويساعد القوات السورية على إتمام تحصيناتها الدفاعية أمام فم وادي القرن، وإكمال التحشيد والتموين في بعض المواقع الحساسة من ساحة الحركات، ومع ذلك كلّه فقد قرّرنا أن نوقف الحركات لمدة 24 ساعة على أن تمنح الحكومة السورية جيوشنا مقابل ذلك حقّ الاستفادة من السكّة الحديدية الممتدّة بين رياق والتكية لأجل تموينا. وبهذا سنستفيد من الطريق الذي يصلنا بالمحطة المذكورة على طول الضفّة

اليسرى من وادي الزرزور. ولقد قبل الوفد السوري شروطنا ثمّ واصل السير نحو عاليه لمفاوضة الجنرال غورو هناك.

وفي صباح اليوم التالي، أي بتاريخ 22 تموز، أرسل الجنرال غوابيه كتيبة لاستكشاف الطريق الموصل إلى التكية عن يسار وادي الزرزور، وعلم أنه طريق دواب لا يساعد قطّ على سير السيارات. كما أنه حسب الوسائط اللازمة لنقل المؤن التي يأتي بها القطار الواحدة من محطة التكية إلى عين جديدة، فوجد أنّ ذلك يتطلب استخدام جميع بغال الفرقة بما فيها بغال المدافع والرشاشات.

ولذلك كان من الضروري استخدام الطريق الذي يتجه من محطة التكية على الضفة اليمنى من وادي الزرزور والذي يلتقي بالقرب من خان ميسلون. هذا وقد لاحظ الجنرال غوابيه أنّ بقاء الجيش في سهل جديدة بضعة أيام يولّد مسألتين مقلقتين جداً:

1- مسألة الماء:

إنّ العيون الخمس الموجودة في الجديدة كانت تعطي في اليوم عشرين ألف ليتر ماء، في حين أن الجيش كان بحاجة إلى تسعين ألف ليتر منها.

2- مرض الجمرة الخبيثة:

إنّ سهل الجديدة كان محطة للقوافل منذ آلاف السنين، لذا فقد أصبح من الحقول التي تستوطن فيها الجمرة الخبيثة. وقد مات من هذا المرض الخطير خلال ساعات مائة حيوان كان بينها الحصان المخصّص لركوب أحد أركان حرب الجنرال نفسه، ولهذه الأسباب كتب الجنرال غوابيه إلى الجنرال غورو يشرح (الضرورة المطلقة) التي يراها لطلب تقدّم الجيوش إلى عيون خان ميسلون، مع ضمان استفادته من الطريق الجيد الذي يصل محطة التكية بطريق دمشق، وذلك في حال توقيف الزحف على دمشق. وهذه الشروط الأخيرة التي طلبها غوابيه في كتابه إلى غورو من شأنها أن تزيد في صعوبة قبول الشروط المذكورة من قبل الملك

فيصل، ولذلك لم يكن عجيباً عندما أتى الكولونيل طولا في الليل بجواب سلبي من الملك على الإنذار الجديد الذي كان أرسله المندوب السامي.

ولقد كان غوابيه يجلس في ملجأ اتخذه مكتباً، وكان بجانبه الكولونيل طولا، حين هتف الأخير للجنرال غورو يبلّغه الجواب السلبي الذي أعطاه فيصل، ويُظنّ أنّ الجنرال أبدى بعض الاعتراضات فأجابه الكولونيل طولا بأنه لا يكتمه أنّ توقيف الزحف على دمشق يقضي على نفوذ فرنسا في الشرق قضاءً مبرماً، وعند ذلك أمر الجنرال غورو الجنرال غوابيه بوجوب مواصلة الزّحف على دمشق. وبالإضافة لهذه التدابير العسكرية، قامت السلطات الفرنسية بجملة تدابير سياسية تحضيراً لعملياتها في ميسلون، ولعلّ أهمّ هذه التدابير إرسال عصابات التجسّس والتخريب والطابور الخامس إلى المنطقة العربية، وتلك المراوغات السياسية التي كانت تجابه بها حكومة دمشق حيث كان غورو يعود ويفرض شروطاً جديدة كلما آنس من حكومة دمشق ميلاً لقبول الشروط القديمة التي فرضها قبل ذلك.

ويجب أن نضيف إلى ذلك البلاغات الرسمية الفرنسية التي صدرت في بيروت بين 21 و24 تموز، لتضليل الرأي العام اللبناني بشكل كامل أو جزئي على الأقل قبل دخول معركة ميسلون.

حجم قوى الطرفين وخططهما

من المعلوم أن كلّ خطة عسكرية تتأثر حين وضعها بعدة عوامل أهمها: طبيعة الأرض، وحجم القوى الصديقة وتسليحها وحجم القوى المعادية وتسليحها. ولذا فإننا سنقوم، فيما يلي، بشرح هذه العوامل قبل التعرّض لخطة كل من الجانبين بالتفصيل.

طبيعة الأرض

إنّ ساحة معركة ميسلون تقع في المسافة الفاصلة بين قرية (جديدة يابوس) ومخفر (خان ميسلون) حالياً، على جانبي الطريق العام الذي يصل بين بيروت ودمشق، ويمرّ من وسط تلك المنطقة.

والبقعة التي حدثت فيها أقوى الاصطدامات هي المرتفع المسمّى عقبة الطين، والواقع على بعد يقارب سبعمائة متر عن نبع ميسلون الحالي، والوادي الذي يطلّ عليه هذا المرتفع، واسمه وادي الزرزور، وهو امتداد لوادي القرن الذي يقود إلى سهل عين جديدة. والسهل الأخير هو امتداد جزئي لسهل البقاع؛ ويحدّه من الشرق سلسلة جبال الزبداني العالية التي تمتدّ نحو الجنوب حتى منحدرات الحرمون الشمالية ومرتفعات هلكا والكنيسة، وهذه المنطقة هي من أشد مناطق جبال لبنان الشرقية وعورة، ومنحدراتها تغصّ بالأودية وبالصخور المرتفعة. وأهمّ الأودية هنا هما واديا الزرزور والقرن، المذكوران أعلاه، وهما طريق المرور الإجباري بالنسبة للآليات المنطلقة من ميسلون إلى عين جديدة أو بالعكس، ولذا يمرّ منها طريق دمشق- بيروت، على طول يقارب 6 كم، منذ أقدم الأزمنة.

ويحكم مرتفع عقبة الطين طريق دمشق- بيروت هذا، كما وأنّ هذه (العقبة) نفسها يحكمها جبل الزبداني الذي يزيد ارتفاعه عنها بحوالي أربعمائة متر تقريباً.

وفي منطقة عمليات ميسلون، التي نتحدث عنها، نجد أنّ مرتفعات الزبداني المذكورة تحوي الفجوات التالية:

في الشمال:

عند الحافة الجنوبية لجبل الزبداني نجد هناك الممرّ الذي يقود إلى مرتفع البترون، الذي يصل سهل عين جديدة بوادي بردى والتكية.

في الوسط:

هناك مضيق وادي القرن، ثمّ طريق دمشق على مسافة 6 كم.

وفي الجنوب:

هناك مضيق وادي الكنيسة الذي يسمح بالوصول إلى خان ميسلون من دير العشاير.

وفي أقصى الجنوب:

نجد ممراً يوصل (كفر كوش) بوادي راشيا، ويلتقي بطريق دمشق ولكن خلف موقع الديماس.

وكان أصلح هذه الطرق الأربعة للهجوم هو الطريق رقم اثنان، لأنّ بقية الطرق لم تكن صالحة لسير السيارات والدراجات بعكس الطريق المذكور الذي كان صالحاً لذلك، ولذا قرّ رأي غوابيه على اتباع هذا الطريق في هجومه. وأما أسلم مكان للدفاع في تلك المنطقة فهو مرتفع (عقبة الطين) الذي يسيطر على طريق السيارات الرئيسي دمشق- بيروت، ولذا فقد قام يوسف العظمة بمركزة قواته للدفاع عن دمشق فيه.

حجم القوى العربية وتسليحها

لم تختلف المصادر، من عربية وأجنبية بشيء قدر اختلافها في تحديد عدد القوات العربية التي خاضت معركة ميسلون: فبينما يذكر السيد جميل برهاني، الذي كان أحد ضباط ميسلون، في مذكّراته أنّ عدد هذه القوى كان ألفين وثلاثمائة رجل أغلبهم مجنّدون، نجد السيد رضوان علوش، في مقاله الذي نشره في مجلة الجندي –العدد 266- السنة العاشرة- آب 1956، يحّدد هذا العدد بين أربعة آلاف وخمسة آلاف مقاتل منهم أربعمائة جندي مشاة وثلاثمائة هجّان. كما أن السيد عابدين حمادة، مؤلف كتاب «فيصل بن الحسين» –ص 143، يقدّر عدد القوات السورية ب ألفين من رجال القبائل ومائتي جندي. وأما السيد غالب العياشي، في كتابه «الإيضاحات السياسية» - ص 121، فيري أنّ العدد كان يقدر بثلاثة آلاف مقاتل معهم بطاريتين من المدفعية إحداهما جبلية والأخرى صحراوية.

ويحدّد الأميرالاي تحسين الفقير، قائد الفرقة العربية في معركة ميسلون، قوّات فرقته من الجند النظاميين الذين خاضوا المعركة حسبما يلي:

- أربعة وستون جندي نظامي بين مشاة ورشاش
- ستون الحرس الملكي

- عشرون المدفعية
- ثلاثمائة هجانة الملك
- ستون الخيالة النظاميون والرشاش
- مائة وسبعون المتطوعون من الأهالي
- المجموع: ستمائة وأربعة وسبعون

وقد نقل عنه هذه الأرقام السيد مفلح علي في المقال الذي نشره عن معركة ميسلون، في المجلة العسكرية السورية –العدد 19 السنة الثانية – شباط 1952. وأمّا المصادر الفرنسية فقد حددت أحدها قواتنا كما يلي:

كانت الوحدات الشريفية المقابلة لنا تحوي عدة آلاف من الجنود النظاميين من جميع الصنوف، وضباطاً تخرجوا من مدرسة اسطنبول الحربية وخاض معظمهم الحرب العالمية الأولى في الصفوف التركية أو الألمانية ويضاف إلى هؤلاء عدد كبير من غير النظاميين وخاصة من البدو ومن المتطوعين المتعصبين الذين تأثروا بالتحريضات الرسمية ضد الفرنسيين.

وأمّا التقرير الرسمي للجيش الفرنسي فقد قال عن القوات العربية ما يلي:

وكانت قوة العرب تقدّر بفرقة مشاة تدعمها بطاريتا مدفعية واحدة منها من عيار 105 مم، مع خمسة وعشرين رشاشاً. وكان موقعهم يشمل خطي دفاع مجهزين بخنادق، بين الخط الأول والثاني مسافة سبعمائة متر، وهناك بطاريات مدفعية على الهضبة الرئيسية وخلف الموقع وفي شماله أيضاً.

ومن كل هذا يتبين لنا أن هذه المصادر قد حددت عدد القوات العربية بقوة تتراوح بين سبعمائة رجل كحدّ أدنى وخمسة آلاف كحدّ أقصى. وأمّا نحن فبعد مزيد من الاستقصاء والبحث بوسعنا أن نؤكّد أنّ مجموع القوة العربية التي اشتركت بمعركة ميسلون كان حوالي ثلاثة آلاف رجل بين مدني وعسكري، وقد ضمّت هذه القوة الوحدات التالية:

بقايا فرقة مشاة واحدة من الجيش النظامي، وهي الفرقة الأولى التي كان يقودها الأميرالاي تحسين الفقير، وتحوي بقايا لواءين:

اللواء الأول بقيادة القائد حسن الهندي، ويضمّ فوجين: الفوج الأول بقيادة الرئيس محي الدين بغدادي، والفوج الثالث بقيادة وكيل القائد أبي الخير الجابي. وأمّا الفوج الثاني لهذا اللواء فقد بقي في دمشق.

اللواء الثاني بقيادة القائد توفيق العاقل، ويعاونه القائد حسني الطرابلسي، ولا يحوي هذا اللواء إلا فوجاً واحداً معزّزاً بالمدفعية كما سنرى.

ثلاث بطاريات ونصف مدفعية، بقيادة القائم مقام أحمد صدقي الكيلاني، ويعاونه المقدم أمين الحلبي. وتفصيل هذه البطاريات كما يلي:

نضيدة (بطارية) صحراوية تضم أربعة مدافع ميدان بقيادة الرئيس طه الطرابلسي.

نضيدة ونصف مدافع جبلية (ستة مدافع سريعة) بإمرة القائد بديع بكداش.

نضيدة صحراوية إضافية أفرزت من دمشق (من لواء محمد علي المدفعي التابع لفرقة درعا)، بإمرة الرئيس بهاء الدين الصوّاف.

نصف نضيدة مدفعية من نوع (أوبص).

مدفع إنكليزي واحد.

سرية رشاشات تحوي خمسة وعشرين رشاشاً بإمرة هاشم الزين.

سرية حرس ملكي، تحوي ستين جندياً بإمرة الرئيس محمد علي العجلوني.

مفرزة الهجانة (البيشة)، وتضم ثلاثمائة هجان بقيادة الشيخ مرزوق التخيمي.

سرية خيالة بإمرة الرئيس عزّت الساطي.

سرية الاستحكام بقيادة الرئيس تحسين العنبري.

مفرزة من اللواء الهاشمي.

المتطوعون المدنيون، وعلى رأسهم مائتين واثنين وسبعين متطوعاً ميدانياً، ومائة وخمسين متطوعاً من قرية دوما.

وأمّا بالنسبة لتسليح القوات فقد كان يضمّ، كما رأيناه، خمسة عشر مدفعاً وخمسة وعشرين رشاشاً، وكمية من الأسلحة الفردية المختلفة العيار والطرازات من عثمانية وإنكليزية وفرنسية وألمانية. ولم تكن القوات العربية تضمّ طائرات أو دبابات أو ناقلات ذخيرة أو أيّة تجهيزات ثقيلة جديدة، وحتى القنابل والألغام لم يكن منها إلا عدد ضئيل من صنع محلي.

حجم القوى الفرنسية وتسليحها

كان مجموع القوة الفرنسية المشتركة بمعركة ميسلون حوالي تسعة آلاف جندي بقيادة الجنرال غوابيه، قائد الفرقة الثالثة، ويعاونه رئيس الأركان العامة لجيش الشرق الفرنسي الكولونيل بيتلا. أما الوحدات الفرنسية التي اشتركت بالمعركة فهي:

اللواء السنغالي:

بإمرة الجنرال بوردو ويضمّ كتيبتي رماة:

الكتيبة السنغالية العاشرة، والكتيبة السنغالية الحادية عشرة. وتضمّ كلّ كتيبة فوجين؛ فالكتيبة الحادية عشرة مثلاً تضمّ فوجاً كان يقوده غوتييه والآخر كان يقوده فوركاد.

اللواء الثاني:

بإمرة الكولونيل سوسلييه ويضمّ كتيبتين أيضاً؛ كتيبة الرماة الثانية بإمرة الليوتنان كولونيل دوزاك، وكتيبة الرماة 415 بإمرة الليوتنان كولونيل ريوكرو، وكلّ من هاتين الكتيبتين كانت تضمّ فوجين أيضاً، فمثلاً كتيبة الرماة الثانية كانت تضمّ فوجاً بقيادة آبو وآخر بقيادة باولتي.

كتيبة الصباحيين الأولى بقيادة الليوتنان كولونيل ماسيه وتضمّ أربعة كوكبات بالإضافة لسريّة رشاشات.

الكوكبتان الأولى والثانية من كتيبة الخيالة المختلطة الأولى.

وحدات المدفعية بقيادة الليوتنان كولونيل ديكريين وتضمّ:

بطارية ثقيلة من عيار 155 مم شنايدر قصير، بقيادة ماميسييه، وهي البطارية الثامنة من كتيبة المدفعية الثقيلة 345.

أربع بطاريات 75 مم وهي: البطارية الخامسة عشرة من مجموعة مدفعية الميدان الأفريقية الخامسة، البطارية الأولى من مجموعة مدفعية الميدان الأفريقية الأولى، البطارية الثانية من مجموعة الميدان الأفريقية الثانية، البطارية الرابعة العائدة لكتيبة المدفعية 115.

بطاريتين ونصف من عيار 65مم، وهما البطاريتين الثالثة، والثلاثة والثلاثون من مجموعة الميدان الأفريقية الثالثة.

سرية دبابات، وهي السرية 314 من الكتيبة 502 دبابات قتال، وتضمّ خمسة عشرة دبابة.

سرية هندسة، وهي السرية 15 من فوج الهندسة 19، وكان يرأسها موبوسان.

رعيل سيارات رشاشة (4 سيارات)

كتيبة من سيارات النقل يقارب عددها المائة سيارة.

مجموعة الطيران وتضمّ أربعة أسراب:

ثلاثة أسراب قصف من طراز –Breguet– بإمرة الكابتن دانجلجان وهي الأسراب رقم 201–202–203.

سرب استطلاع من ملاك الفرقة ويحوي 18 طائرة من طراز G56

خطّة المدافعين وترتيبهم:

كانت الخطة الحربية التي وضعها المرحوم يوسف العظمة تقضي أصلاً بالتمركز دفاعياً في مجدل عنجر، وقام في سبيل ذلك بإنشاء سلسلة من الحصون في الجبال المحيطة بهذه القرية، بشكل يطلّ على سهول البقاع ويسيطر على الطريق العام الذي يصل دمشق ببيروت، وحشد في هذا الموقع

القوى اللازمة للوقوف في وجه الجيش الفرنسي إذا حاول التقدم باتجاه العاصمة.

ولكن الحكومة العربية تسرّعت عند موافقتها على الإنذار بسحب الجيش من مجدل عنجر، والبدء بتسريحه، مما سبّب فقدان الجيش العربي للمواقع الدفاعية المهمة التي كان قد حضرها مسبقاً لذلك، واتخذ بديلاً عنها منطقة خان ميسلون لإقامة خطوطه الدفاعية الجديدة على عجل، بعد أن كان قد فقد قسماً كبيراً من ملاكه بتنفيذ الأمر بالتسريح. وبعد أن قرّ رأي الحكومة العربية على الدفاع في ميسلون، اعتمد العظمة من جديد خطّة دفاعية- هجومية ألقى فكرتها شفهياً على قادته في صباح يوم 23 تموز، أي قبل المعركة بيوم واحد فقط.

وكانت فكرة القيادة التي وضعها العظمة هي تنظيم خطّ دفاعي في وسط الجبهة على جانبي الطريق مع فرز وحدات خفية إلى يمين ويسار الجبهة لحماية الجناحين من جهة:

وادي التكية، يمين الطريق.

دير العشاير، يسار الطريق.

وكان تنفيذ هذه الفكرة يستلزم:

1- منع العدوّ من اجتياز مرتفعات عقبة الطين شمال غرب ميسلون مهما شدد ضغطه على قوات القلب المتمركزة هناك، ويكون هذا بالدفاع دفاعاً مستميتاً بدون أيّة فكرة تراجع وحتى القطرة الأخيرة.

2- قيام كلّ من الجناح الأيمن والجناح الأيسر بتثبيت القوات المقابلة لهما، وانتهاز أوّل فرصة ممكنة للالتفاف حول مجانب العدوّ من جهتي الزبداني (اليمين) ودير العشاير (اليسار)، والإطباق على قواته بفكّي كماشة على ارتفاع قرية (جديدة يابوس)، وذلك لقطع الطريق عليها وحصرها في وادي القرن، والعمل على إبادتها عند ذلك.

ولتنفيذ هذه الخطّة، قام الوزير يوسف العظمة بتقسيم قواته إلى قلب وجناحين ومؤخرة:

القلب:

كانت قوات القلب تضمّ الوحدات التالية:

مركز قيادة الجبهة:

الذي تمركز فيه يوسف العظمة وزير الحربية والأميرالاي تحسين الفقير قائد الفرقة الأولى المكلّفة بالدفاع، والقائم مقام أحمد صدقي الكيلاني قائد المدفعية.

وكان هذا المركز عبارة عن مرصد في أعلى مرتفع عقبة الطين، ويشرف على الجبهة جميعاً.

بقايا اللواء الأول مشاة:

بإمرة القائد حسن الهندي، ويحوي فوجين نظاميين وفوجاً من قوات المتطوعين المدنيين ألحق به إلحاقاً. والفوجان النظاميان هما: الفوج الأول بقيادة الرئيس محي الدين بغدادي، وقد تمركز على يمين الطريق العام دمشق- بيروت، والفوج الثالث بقيادة القائد أبي الخير الجابي، وقد تمركز على يسار الطريق العام المذكور. وكان كلّ من هذين الفوجين يحوي ثلاث سرايا وسرية رشاشات.

أمّا فوج المتطوعين المدنيين فقد وضع بإمرة وكيل القائد حسني توكلنا كاحتياط، على بعد حوالي سبعمائة متر وراء خطّ تمركز الفوجين السابقين:

بطاريتي مدفعية إحداهما من عيار 105مم والثانية من عيار 75مم.

سرية استحكام: بإمرة الرئيس تحسين العنبري.

وقد كلّفت قوات القلب المذكورة أعلاه بالمهمة التالية:

انتشرت وحدات المشاة في القلب كفصائل صغيرة في شبه مرقاة على السفح الغربي لهضبة ميسلون إلى جانبي الطريق العام (طريق دمشق- بيروت) بشكل يسيطر على وادي الزرزور. وقد كلّفت وحدات المشاة هذه بالمهمة الرئيسية في الدفاع وهي الثبات في مرتفع عقبة الطين وامتداده نحو التكية، وامتصاص قوة هجوم العدو في محور جهده، والصمود أمامه مهما كلّف الأمر من ضحايا وخسائر.

وأما المدفعية فقد أمرت بالتمركز في مؤخرة الموقع الأول من جهة الشمال قرب خط تقسيم المياه، وكلّفت بإسكات مدفعية العدوّ، والرماية على شكل سدّ في وادي الزرزور ضدّ دبابات العدوّ ومشاته أيضاً، مع الاقتصاد ما أمكن بالقذائف.

وكلّفت سرية الاستحكام بمدّ شبكة خطوط هاتفية على جميع مراكز الجبهة الدفاعية مع القيام ببثّ ألغام على طريق دمشق لمنع آليات العدو من التقدم، وقد قامت هذه السرية تنفيذاً لمهمتها المذكورة بوضع ثلاثة ألغام كبيرة من صنع محلي في الأماكن التالية: الأول تحت الجسر الصغير الرئيسي في وادي الزرزور، والثاني على الطريق العام على بعد مائتي متر من الأول، والثالث على بعد مائة متر منه. وقد وضع في اللغم الأول اثني عشر قالباً من الديناميت، وفي الثاني ثمانية قوالب، وفي الثالث ستة.

الجناح الأيمن:

ضمّ هذا الجناح:

فوجاً واحداً من أفواج اللواء الثاني الذي كان بإمرة القائد توفيق العاقل.

بطارية مدفعية جبلية بإمرة الملازم خالد نصري.

فئة مدفعية من عيار 65 مم بإمرة الملازم الأول حمزة المدفعي.

سبعة رشاشات هوتشكيس.

مفرزة من الحرس الملكي بإمرة الرئيس محمد علي العجلوني.

وقد كلّفت قوات هذا الجناح بالتقدّم على طريق وادي بردى إلى الزبداني حيث تنضمّ إليها هناك مجموعة تعد ألف ومائتي متطوع مدني بإمرة الزعيم المجاهد ملحم قاسم، حسبما وعد بذلك قائم مقام الزبداني السيد عز الدين الحلبي. وبعد التحاق قوات المتطوعين هذه تقوم قوات الجناح كلها بالتقدم باتجاه الجرود المشرفة على قرية (جديدة يابوس)، حيث تُكلف هناك بالتصدي لقوات الميسرة الفرنسية لإيقافها في تلك النقطة، ومنعها بالتالي من القيام بحركة التفاف لتطويق القوات الوطنية، ثم الإغارة على القوات الفرنسية، إذا سمحت الظروف بذلك، باتجاه فم وادي القرن، وقطع الطريق عليها إذا أرادت الانسحاب.

الجناح الأيسر:

كُلف هذا الجناح بالتمركز جنوبي الطريق العام، على فرجة تعادل ثلاثمائة متر بين قواته وطرف قوات القلب من جهة اليسار.

وقد ضمّ هذا الجناح القوى التالية:

سرية رشاشات بإمرة هاشم الزين، وكانت تحوي ثلاث فصائل: الأولى منها بقيادة الملازم عبد الله عطفة، والثانية بقيادة الملازم صلاح الدين عرب أوغلي، والثالثة بقيادة الملازم محمود الهندي.

سرية هجانة عددها حوالي ثلاثمائة هجان، بإمرة الشيخ ورزوق التخيمي.

سرية خيالة بقيادة الرئيس عزت الساطي وعددها حوالي ستين فارساً.

مجموعة من المتطوعين الميادنة، وعددهم حوالي مائة وخمسة عشر فارساً، وقد أُلحقوا بسرية الرئيس عزت الساطي.

وقد أُعطي هذا الجناح مهمة منع قوات الميمنة المعادية من القيام بحركة التفاف لتطويق القوات الوطنية من جهة اليسار، ثم الإغارة على القوات الفرنسية في قرية جديدة يابوس، لقطع الطريق على هذه القوات إذا أرادت الانسحاب من وادي القرن نحو الخلف، كما أُعطيت لقوات الهجانة بشكل خاص مهمة حماية

الجناح الأيسر بكامله أمام قرى دير العشائر وحلوة ونيطا، مع تأخير العدوّ القادم من ذلك الطريق.

المؤخرة:

وكانت قوات المؤخرة مشكلة من مصالح الجيش التي كانت مراكزها متسلسلة عمقاً من خان ميسلون حتى دمر، وأهم هذه المصالح كانت التالية:

مركز التموين والتسليح: كان مركزه في قرية خان ميسلون، على بعد سبعمائة متر تقريباً من آخر عناصر الصفّ الأول. وقد افتتح هذا المركز في 21 تموز، وابتدأ منذ ذلك الوقت يمارس مهمته بتلقي القادمين من جنود ومتطوعين وإرسالهم إلى المكان المناسب في تنظيم القوى العربية. وقد تولّى القيام بمهمة التموين والتسليح هذه القائد الركن شريف الحجار، ومعه القائد إسماعيل نامق قائد لواء الخيالة الهاشمي.

مركز الإسعاف الصحي: تأسّس بجوار قرية الديماس، وكلّف باستقبال الجرحى العاديين وإسعافهم، وتأمين إخلاء الجرحى الخطرين باتجاه المشفى العسكري في دمشق. وقد كُلّف القائد الطبيب عبد القادر سري، ومعه أطباء الفرقة العسكريين بإدارة هذا المركز.

المنزل: والمنزل باللغة العسكرية لذلك الوقت يعني مركز التموين بالتعيينات الغذائية، وقد أُسّس هذا المنزل في دمر، وكان تحت إمرة القائم مقام لطفي الرفاعي.

خطّة المهاجمين وترتيبهم:

قام الجنرال غوابيه بجملة استطلاعات أرضية وجوية قبل المعركة، وقد جعلته هذه الاستطلاعات يصمّم مناورة المعركة حسب الشكل التالي:

المهاجمة جبهياً بمقدّمة قوية مدعومة بدبابات القوى العربية المتمركزة على مرتفعات الضفة اليمنى لوادي الزرزور، والتي تقاطع بشكل شاقولي الطريق العام إلى دمشق، مع بذل الجهد للالتفاف حول الجناح العربي الأيسر من جنوب دير

العشاير، وذلك بواسطة كتيبة الصباحيين والتي تتألف كوكباتها من فرسان قدماء تعوّدوا على القتال راجلين. وهذه المناورة تسمح للقوات الفرنسية بأن تصل إلى مرتفعات تزيد عن المراكز العربية ارتفاعاً، وبالوقت نفسه تهدّد طريق المواصلات العربية إلى دمشق من جهة خان ميسلون.

وقد حدّد غوابيه الساعة الخامسة من صباح 24 تموز موعداً للبدء بتنفيذ هذه الخطّة، كما أمر باتخاذ الترتيب التالي لتنفيذ خطته هذه:

وحدات الهجوم:

تحت إمرة الليوتنان كولونيل دوزاك وتشمل:

- السرية التي يقودها جيلرم من فوج آبو التابع لكتيبة الرماة الثانية. وتقوم هذه السرية بالتمركز على الطريق العام دمشق- بيروت في فم مضيق وادي الزرزور لاتخاذه كقاعدة انطلاق لها.
- فصيلة دبابات القتال التي يقودها ديفار: وتدعمها سرية من الكتيبة 415 مشاة (وهي السرية التي يقودها كلوبفنستاين)، ونصف سرية هندسية بإمرة موبوسان، وقد كلّفت هذه الوحدات الثلاث بتشكيل محور الهجوم منطلقة فوق طريق دمشق- بيروت.
- فوج باوليتي من كتيبة الرماة الثانية يتخذ تدابير القتال في المرتفعات المطلّة على الضفة اليسرى لوادي الزرزور، وعليه الانطلاق، مدعوماً ببطارية 65 مم، متخذاً كمحور هجوم له شمال الطريق العام بمسافة يبقى بها على اتصال بالنظر مع قوة محور الهجوم الرئيسي (الدبابات).
- فوج مينيان: وهو أحد أفواج الكتيبة السنغالية العاشرة، وكان عليه أن يتمركز على مرتفعات هلكا جنوبي الطريق، مع نصف بطارية 65 مم، وأن ينطلق من هناك مع قوات الهجوم، محافظاً على بقائه جنوبي الطريق أثناء تقدمه.
- فوج غوتييه: ويعود للكتيبة السنغالية الحادية عشرة، وعليه أن ينطلق من مرتفع الكنيسة باتجاه المزرعة، مع الارتباط بكتيبة ماسييه من جهة اليمين، وقد كلفت بطارية من عيار 65 مم بدعمه في تقدمه.

- البطارية 75 مم، التي يقودها روبرت، عليها أن تتربص في الفم الشرقي للوادي لتدعم من هناك الهجوم برماياتها التمهيدية القريبة.
- البطارية الـ 155 مم، التي يقودها ماميسييه وقد كُلفت بالتربص في الفم الغربي للوادي، وعليها إسكات المدفعية العربية عند تدخلها، وتحطيم الحواجز التي تعترض تقدم الوحدات الفرنسية عند تنفيذ عملية الهجوم.
- كتيبة الصباحيين، وتشمل أربعة كوكبات خيالة مع سرية رشاشات معتادة على قتال الجبال، وتنطلق من المنطقة الجنوبية لمرتفعات الكنيسة محاولة الالتفاف حول ميسرة القوات العربية.

وحدات النسق الثاني للهجوم:

وُضعت تحت إمرة الجنرال بوردو وتضمّ: كوكبة خيالة، نصف سرية هندسية، فوج من الكتيبة السنغالية الحادية عشرة، بطاريتين من عيار 75 مم. وقد كُلفت هذه الوحدات بالاجتماع في معسكر عين جديدة، والتقدم باتجاه مدخل الوادي في تمام الساعة الخامسة والنصف، أي بعد قوات النسق الأول بنصف ساعة.

الحملة والمؤخرة:

وقد شكلهما فوج سنغالي تحت إمرة الكولونيل بيتريكس وكان عليهما الاجتماع في معسكر عين جديدة، ثم اللحاق بالرتل العام.

مراكز ثابتة:

تم احتلال مرتفع البطرون بمجنبة تعادل سرية، كما وكلفت سرية أخرى مدعومة بسرية رشاشات بحماية اجتماع الفرقة وذلك بتمركزها في منطقة كفر يابوس. وكانت قيادة الفرقة، بقيادة الجنرال غوابيه، تتمركز في مرصد المدفعية الواقع في مرتفع البطرون المشار إليه.

وبالإضافة لأمر العمليات المفصل هذا، أصدر غوابيه أمراً يحدّد لكلّ صنف من أصناف فرقته المهمة التي يجب أن يقوم بها في الهجوم، وذلك حسب ما يلي:

حدّد غوابيه للمشاة أن تتقدم على جانبي الطريق العام، بمعدّل فوج واحد على يسار الطريق، وأربعة على يمينه، فتحتلّ أهدافها بالتقدم المستمر العنيد تحت حماية المدفعية التي يجب إقحامها فوراً، مما يجعل العملية تأخذ طابعاً قاسياً ومفاجئاً.

وأما دبابات القتال فقد حدّد لها بر الياس كنقطة أولى لدخولها مسرح العمليات لتقوم بمواكبة المشاة، وبالقضاء على نقاط الدفاع العربية.

وأما بالنسبة للطيران، فقد حدّد غوابيه لسرب الطيران الاستطلاع التابع لفرقته أن يستطلع له في اليوم الأول جبال لبنان الشرقية، وخاصة منطقة البقاع وسهل جديدة، ثم أن يتعمق بالاستطلاع حتى دمشق للكشف عن أماكن وجود المخيمات والتحركات العربية.

وأما أسراب القصف المفرزة من قيادة الجيش فقد كُلّفت بالإقلاع من أول ضوء للاشتراك بالهجوم وبمرافقته، وذلك بقصف جميع الأهداف العربية التي لا يمكن أن تطالها المدفعية.

. وأخيراً بالنسبة للخيالة نجد غوابيه قد أعطاها مهمة تتناسب مع ميزاتها، إذ أسند إليها مهمة الالتفاف حول القوات الوطنية عن طريق محور دير العشاير- جبل المزار- الديماس.

وكان نجاح الخيالة الفرنسية بهذا الالتفاف هو ما أدى لسقوط الجبهة العربية وانتصار الفرنسيين في ميسلون كما سنرى في الفصل القادم.

فاجعة ميسلون

بعد أن شرحنا الأسباب التي أدّت لنشوب معركة ميسلون، والترتيبات التي قام بها كل من الطرفين لخوضها، وعدّدنا القوى التي حشدها في سبيل ذلك، سنقوم في هذا الفصل بذكر وقائع وتفاصيل هذه المعركة:

الوقت:

يوم السبت في 24 تموز 1920، من الفجر حتى الظهر.

المكان:

مرتفعات عقبة الطين قرب ميسلون، ووادي الزرزور الذي تشرف عليه هذه المرتفعات.

الهدف:

بالنسبة للوطنيين: الدخول في معركة معروفة النتائج لعدم تكافؤ القوى، وذلك لإقناع فرنسة والعالم كله بأن سورية مستقلة، ولها جيش يدافع عن أراضيها، وبأن احتلال شبر منها لا يتم إلا مروراً فوق جثث أبنائها من عسكريين ومدنيين.

بالنسبة للفرنسيين: احتلال سورية تنفيذاً للمعاهدات السرية السابقة التي قضت بتقسيم المشرق العربي بين فرنسة وبريطانية، والقضاء على الجيش العربي السوري الفتي قبل أن يشتد عوده ويستكمل تدريبه وتسليحه.

سير المعركة:

بدأت المعركة حوالي الساعة الخامسة من صباح يوم 24 تموز 1920 وقد دامت حتى الساعة العاشرة والنصف من اليوم نفسه بشكل حام، ثم انقلبت إلى مناوشات دامت حتى الظهر. وسنقوم الآن بشرح أحداث المعركة وتفاصيلها في الجانب العربي ثم في الجانب الفرنسي:

سير المعركة في الجانب العربي:

لقد كانت القوة العربية موزعة كما رأينا على ثلاث مجموعات: الجناح الأيسر- القلب- الجناح الأيمن. وبما أنّ هذه المجموعات الثلاث قد حاربت، للأسف،

منفصلة عن بعضها بحيث لم يوجد بينها ارتباط كاف، ولذا فإننا نجد أنفسنا مضطرين لبحث تفاصيل المعركة في كلّ مجموعة على حدة.

أولاً- حركات الجناح الأيسر:

كان هذا الجناح بإمرة القائد الشيخ مرزوق التخيمي، ويعاونه في ذلك الرئيس عزت الساطي. وكان يحوي مجموعة متنافرة من القوات تنتمي إلى مختلف الوحدات والصّنوف، وهذا ما سبّب ضعفاً ملحوظاً في قوته ومقدرته الدفاعية.

لقد كان هذا الجناح يحوي، كما ذكرنا، مفرزة من الهجانة وسرية من الرشاش، وسرية من الخيالة، ومفرزة من اللواء الهاشمي، ومجموعة من الخيالة والمتطوعين المدنيين.

وقد تحرّكت قوات هذا الجناح في مساء 23 تموز، من مركز القوات العربية في عقبة الطين، إلى المنطقة المجاورة لقرية دير العشائر، على يسار طريق دمشق بيروت. وكانت المهمّة التي أسندت لقوات هذا الجناح هي الدفاع عن سلسلة الجبال أمام قريتي الحلوة ودير العشاير، والتمسّك بهما إلى أن تسنح الفرصة للقيام بالالتفاف على ميمنة القوات الفرنسية باتجاه قرية جديدة يابوس.

وقد كانت مفرزة الهجانة ومجموعة الخيالة من المتطوعين المدنيين تشكلان حوالي ثلثي قوة الجناح بكامله، ولذا فقد انهار الجناح بكامله لمجرّد انهيار هذين العنصرين الذين لم يكونا عنصرين عسكريين بالمعنى المفهوم، وهذا ما جعلهما يقعان بكثير من الأخطاء انعكست على مقاومة الجناح الأيسر كله وعلى مقدرته الدفاعية.

ولكن إذا كان رجال هاتين الوحدتين، ورفاقهم من أفراد هذا الجناح، على هذه الدرجة من البعد عن الروح العسكرية، فإن أغلبيتهم لم يكونوا بعيدين عن الشجاعة عند احتدام المعركة، وتقدّم القوات السنغالية والفرنسية باتجاههم.

لقد أبلى معظم رجال هذا الجناح عندئذ بلاء حسناً، وصدّوا القوات السنغالية على أعقابها ثلاث مرات، وكانوا يقطعون رؤوس الجنود السنغاليين الذين يجرؤون على الاقتراب من خطوطهم الأمامية ويكومونها على مرتفع أمامهم، مما جعل الرعب يدبّ في قلوب المهاجمين. وقد ظلّت قوات الجناح الأيسر صامدة في وجه القوات الفرنسية المهاجمة ومتماسكة فيما بينها، حتى الساعة العاشرة صباحاً تقريباً، وعندها حدث حادث مؤسف سبّب انهيار هذا الجناح، وكان له أثر كبير على المعركة بكاملها كما سيظهر معنا.

وملخص الأمر أنّ حوالي خمسين مدنياً مسلّحاً، أغلبهم من أهالي قريتي الحلوة ودير العشائر اللبنانيتين تقدموا من قوات الحرس الملكي والهجانة العربية، التي كانت تدافع في خنادقها، وقالوا لرجالها:

«يا نشامى يا ولد علي، هؤلاء باذنجان أسود، هاجموهم ونحنا نحمي ضهوركم»، فاعتقد الجنود الأبرار، وقائدهم الشيخ مرزوق التخيمي، بأنّ الفرصة قد حانت لتطويق الجناح الأيمن الفرنسي كما تقضي مهمّتهم بالأصل، وظنّوا أنّ هؤلاء المتطوعين الذين انضمّوا إليهم وتعهّدوا بحماية ظهورهم هم من إخوانهم الذين يركن إليهم، غير عالمين بأنهم من الخونة صنائع الفرنسيين، فتركوا خنادقهم وتقدّموا باتجاه الفرنسيين مكبّرين مهلّلين، ولكنهم لم يكادوا يبعدون عن خنادقهم الأصلية بحوالي مائة متر حتى فوجئوا بالنار تنطلق من خلفهم في ظهورهم، وهكذا أصبح هؤلاء بين نارين: نار السنغاليين التي تأتيهم من الأمام، ونار الخونة الذين احتلوا خنادقهم الأصلية وأخذوا يرمونهم من الخلف.

وقد كانت هذه الخيانة سبباً في انهيار الجناح الأيسر بكامله، حيث لم ينجُ من الموت إلا عدد بسيط ممّن تركوا خنادقهم وتقدموا للهجوم وعددهم يقارب أربعمائة شخص.

أما بقية وحدات الجناح (مفرزة من اللواء الهاشمي، سرية الرشاش، بقية المتطوعين المدنيين) التي كان يقودها السيد عزت الساطي، فقد حاولت الصمود

في أمكنتها بعد القضاء على معظم الهجانة والحرس الملكي، مع تغطية الثغرة التي انفتحت في دفاع الجناح بعد القضاء على الوحدتين سالفتي الذكر.

وقد حاول السيد الساطي الاتصال هاتفياً بقيادة القوات العربية في القلب، لطلب نجدة يسدّ بها الثغرة، ولكن وجد خطوط الهاتف مقطوعة، وعندها أرسل رسولين باتجاه القلب ليقوما بالمهمة ولكنهما لم يعودا.

وتسرّب خبر أن العرب لغّموا الجسر الذي يقع فوق وادي الزرزور على الطريق العام دمشق- بيروت، وأنّ اللغم لم ينفجر، وأنّ يوسف العظمة قد استشهد، وأنّ جند القلب قد بدؤوا بالانسحاب. وقدم الضابط فؤاد سليم إلى السيد الساطي وأنبأه بأنّ الوضع يصبح خطيراً أكثر فأكثر، وأنّ قوّة الجناح مهددة بمناورة التفاف تقوم بها الخيالة الفرنسية حولها. وهنا التفت الساطي حوله فوجد أنه لم يبقَ في جناحه إلّا الرشاشات بإمرة الملازم الأول عرب أوغلي ومعه النائب حمدي، وبعض المدنيين وعلى رأسهم: أبو صلاح العرجا، هاشم الأغواني، صالح الصابونجي، أبو سليم العرجا، مستو الأغواني، عبدو المرادي، محمود قاروط. وأما البقية فقد استُشهدوا أو فُقدوا أو انسحبوا، فاضطرّ عند ذلك السيد الساطي لإعطاء الأمر بالانسحاب، وكان آخر من انسحبوا من أفراد الجناح الأيسر ومعه الملازم صلاح الدين عرب أوغلي والملازم فوزي اللوجي والنائب حمدي، وبذلك شغرت مواقع الجناح الأيسر نهائياً.

وبانهيار دفاع الجناح الأيسر بدأت قوة الميمنة الفرنسية بتسلّق الصخور والمرتفعات إلى الخنادق التي كان يتمركز بها أفراد الجناح الغربيّ. ولمّا وصل السنغاليون إلى الخنادق وجدوا بعض الجرحى فأجهزوا عليهم جميعاً بالسلاح الأبيض وبذلك انهار الجناح الأيسر تماماً، وأصبحت باقي القوات العربية مهدّدة بالتطويق إذا لم تنسحب بسرعة إلى مواقع جديدة في الخلف، وذلك لأن قوات السباهي كانت قد احتلّت في ذلك الوقت دير العشاير، وبدأت بحركة التفاف ضخمة على محور الكنيسة- ميسلون، وذلك لتطويق القوة العربية الرئيسية في القلب لإبادتها بكاملها.

وهكذا كانت خيانة بعض المارقين، وتسرّع جند الجناح الأيسر بالثقة بمتطوعين غرباء قدموا إليهم، سبباً في انهيار الجناح الأيسر بل القوة العربية بكاملها كما سيظهر معنا بعد قليل.

ثانياً-الحركات في القلب:

لمّا أشرق فجر يوم 24 تموز، شوهدت بطارية صحراوية فرنسية متمركزة في مدخل وادي القرن، وبما أنه لم يصل من دمشق ما يُشعر بتمديد الهدنة أو الاتفاق على الصّلح فقد استعدّت القوات السورية للدفاع.

وكان النهار قد بدأ يظهر، وأخذ طائرات الاستطلاع الفرنسية تحوم فوق المواقع العربية، فأطلقت عليها قوات القلب النار، وعندها ردّ الفرنسيون على النار بالمثل، وصبّوا نيران مدافعهم على الخطّ الأمامي المتقدّم، أي على عقبة الطين وامتدادها شرقاً وغرباً، وبهذا الشكل بدأت المعركة. وكان من جرّاء تبادل الرمي بنيران المدفعية أن حطّم السوريون بطارية فرنسية كاملة مع دوابها، وحطّم الفرنسيون بالمقابل مدفعين سوريين.

وفي الساعة السادسة والنصف استمرّت المدفعية المتبقية من الجيش العربي (عشرة مدافع) بمكافحة رشّاشات العدو وبصبّ نارها على تجمعاته من مشاة ودبابات مما أوقع بها خسائر ملحوظة، فسرّ المغفور له يوسف العظمة بهذه النتيجة كلّ السرور، وأخذ يعبّر عن سروره بطرقعة أصابعه وهو يقول: «برابو، برابو» وهنا بدأت بطارية المدفعية الفرنسية الثقيلة، من عيار 155مم، بإطلاق نيرانها بشدّة على المواقع السورية، وبدأت قوات المشاة، بدعم الدبابات والهندسة بالتسلّل داخل وادي الزرزور، وقد ردّت المدفعية السورية على عملية التمهيد هذه بمحاولة إقامة رماية سدّ مانع في منتصف الوادي، ولكن نقص ذخيرتها جعلها لا تنجح في ذلك تماماً، إذ كانت الفرجة الزمنية التي تفصل بين الرشقة والثانية كافية لكي يقوم جند الفرنسيين بالوثب من مكان إلى آخر.

وقد بدأت النيران الفرنسية، منذ الساعة الثامنة، تنصبّ بغزارة من الجبال الحاكمة باتجاه عقبة الطين مستهدفة خطّ الدفاع الأساسي لقوات القلب العربية. وقد وصلت بعض القنابل إلى الخطّ العربي الثاني للدفاع، قرب نبع ميسلون، ممّا دعا القائد شريف الحجار، الذي كان يقود تلك النقطة، لتوزيع القوات الموضوعة تحت إمرته من المتطوعين المدنيين، فأمر الرئيس توفيق المبيض أن يشغل بمفرزته التلّ الواصل بين ميسلون والتكية على جبهة لا تقلّ عن مائة وخمسين متراً، شريطة ألا يطلق أفرادها النار على العدوّ إلا لمّا يصل لمسافة قريبة. ثمّ كلّف الرئيس عارف العنبري باحتلال جبهة بالعرض نفسه، اعتباراً من مفرزة توفيق المبيض ونحو اليمين، كما كلّف المقدم عبد الله الأسود، مع فرسانه الستين، بدعم هذه المفارز المدنية وذلك بتنفيذ حرب المشاة على يمين مفرزة الرئيس عنبري.

وقد ظلّت الحالة حسنة حتى الساعة التاسعة من صباح ذلك اليوم، عندما بدأت مدفعية الفرنسيين بالتغلّب على مدفعيتنا، لأنها كانت تفوقها بالعدّة والعدد، وجعلت تضرب الخطوط الخلفية للجبهة العربية ببطاريتها الثقيلة، فقد كانت مركز ميسلون والطريق المؤدّي إلى الجبهة أيضاً، بينما اكتفت البطاريات الفرنسية الخفيفة بضرب خطوط المشاة ومرابض المدفعية والرشاشات العربية بقنابلها.

أمّا حصن عقبة الطين فلم يبقَ مكتوف اليدين، بل أطلق نيرانه الشديدة على وحدات الهجوم المتقدمة، وكذلك فإنّ المدفعية العربية المتمركزة قرب قيادة اللواء فتحت نيرانها على البطاريات الفرنسية في مخرج وادي القرن الشرقي. ولكنّ الفرنسيين كانوا يواصلون تقدّمهم رغم خسائرهم، ولو أنّ هذا التقدم كان بطيئاً للغاية بفضل نيران رشاش الفوج الأول للمشاة، الذي كان يواصل إطلاق النار ويكبّد الفرنسيين إصابات فادحة. وبالرغم من استبسال القسم الأكبر من الجند العرب بالدفاع، فقد بدأت الدبابات الفرنسية، في المركز وعلى يسار الطريق، بتحطيم الحواجز المنصوبة على الطريق العام وبالتقدم بإصرار باتجاه الخطّ الأمامي العربي في دفاع القلب.

كما أنّ الطائرات الفرنسية بدأت بقصف الخطوط السورية بكلّ شراسة، ورغم أنّ القوات العربية النظامية قد تمكّنت من إسقاط واحدة من هذه الطائرات فوق صحراء الديماس، فقد كان لها مفعول رهيب ضدّ المتطوعين العرب، ببنادقهم القديمة وذخيرتهم العتيقة –هم الذين لم يسبق لكثير منهم أن رأى طائرة قبل ذلك اليوم– ولذا فقد ترك أغلبهم الجبهة بمجرّد بدء الطائرات بالقصف، بحيث كان عدد من بقي منهم بعد القصف مائة وخمسين متطوعاً من أصل أربعمائة، وهو عدد من كان منهم حاضراً في قوات القلب صباحاً.

وكان وزير الدفاع السوري، يوسف العظمة، يراقب سير المعركة عند ذلك من مركز قيادة الفرقة، على قمة تلّ (أم الشراشيط). وكانت الدبابات الفرنسية تقترب من الخطوط العربية أكثر فأكثر بدون أن تصاب، فالتفت السيد العظمة إلى قائد الفرقة وقال له: «لقد اقتربت الدبابات ولم تصب»، فأجابه قائد الفرقة: «هناك ألغام متتابعة ثلاثة ستحطمها حتماً».

وكان قائد الفرقة، المرحوم تحسين الفقير، يبني آمالاً كباراً على تفجّر الألغام الثلاثة التي سبق وبثّها قائد سرية الاستحكام الرئيس تحسين العنبري، على الطريق العام دمشق – بيروت، الذي يخترق وادي الزرزور. وكان يعتقد بأنّ انفجار هذه الألغام سيسبّب انسداد الطريق بوجه الدبابات والآليات الفرنسية ممّا يجعل المعركة معركة مشاة ومدفعية فقط.

ولكن هذه الدبابات عبرت الجسر المقام فوق وادي الزرزور دون أن ينفجر بها اللّغم الموضوع تحته، فبات الأمل معقوداً على اللّغمين الباقيين، ثم اجتازت موضع اللّغم الثاني دون أن تنفجر أيضاً فاشتعل المرحوم العظمة غيظاً، وأخرج مسدسه، وقال إنه ذاهب إلى ضابط الاستحكام في الأمام كي يقتله جزاء وفاقاً له على أعماله، وما إن تحرك العظمة حتى انفجر اللّغم الأخير – وهو أصغر الألغام كما سبق وذكرنا– وكان انفجاره قبل وصول الدبابات إليه بثلاثة أمتار تقريباً ولذا لم يُحدث تأثيراً كبيراً، إذ نجمت عنه حفرة لم يزد عمقها عن نصف متر فقط، كما وتراكمت بعض الصخور الصغيرة في الطريق أيضاً. وقد توقفت الدبّابات عند انفجار اللّغم، ونزل سدنتها منها

حيث أزالوا حواجز الصخور ثم ارتقوا دباباتهم من جديد، ووقفوا بها بنظام النسق قبل أن يعاودوا صبّ نيرانهم باتجاه مركز القيادة العربية.

وقبل أن يصل يوسف العظمة إلى مكان ضابط الاستحكام، انعطف إلى جانب الطريق حيث يوجد مدفع عربي سريع الطلقات، وأمر الرقيب سدين المدفع بأن يرمي على الدبابات الفرنسية التي كانت قد اقتربت منه إلى مسافة لا تزيد عن المائة متر. وقد وقف قرب المدفع المذكور، وقد قال للرقيب مشيراً بيده إلى أولى الدبابات: «إرم هذه» فاسترقت وقفته وألبسته وإشاراته أنظار أحد رماة الدبابات فأطلق عليه نارَ رشاشها وأصابه في صدره ورأسه فخرّ إلى الأرض صريعاً، وأسلم روحه الطاهرة هو ورقيب المدفع إلى جانبه، وكان ذلك حوالي الساعة العاشرة والنصف من ذلك الصباح.

وقد حاولت إحدى السيارات الوصول إليه لإسعافه، ولكنها أصيبت وهي في طريقها بقنبلة مدفع أطارت بابيها الخلفيين، ولذا عادت إلى مكانها دون أن تصل إليه. وبعد الساعة العاشرة والنصف ببضع دقائق قدم ضابط احتياط من قوة الرشاش يمتطي حصاناً أبيض، إلى مركز قيادة اللواء الأول، وأخذ يصيح بأعلى صوته: «وزير الحربية استشهد، يوسف بك قد قتل».

فقام اللواء السيد حسن الهندي بإسكاته حفاظاً على المعنويات، ولكن الخبر كان قد ابتدأ بالانتشار كانتشار النار في الهشيم، ولذا سرعان ما بدأ بعض الجنود والمتطوعين المدنيين بالانسحاب، الذي كان أوّل من بدأه فصيل الرشاش المتمركز في الخطّ الأمامي، مما أفقد الجبهة العربية جزءاً من دعمها.

ثمّ قدم بعد ذلك مباشرة الرئيس ياسين الجابي، مرافق العظمة، وبلغ تحسين الفقير وحسن الهندي باستشهاد العظمة، فضرب حسن الهندي يداً بيد عند سماعه هذا الخبر وقال: «راحت يا أسف، راحت يا أسف».

وأمّا تحسين الفقير فقد تطلّع لمن بقي من قواته في خطّ الدفاع، ثم فكّر قليلاً قبل أن يطلب حصانه ويمتطيه قائلاً لحسن الهندي أنه ذاهب لفتح جبهة ثانية في خطوط الهامة، وأنّ عليه تأخير العدوّ ما أمكن كائناً ما كانت التضحيات.

وبعد انصراف تحسين الفقير طلب بعض الضباط من حسن الهندي أن يسمح لهم بمغادرة الموقع والعودة إلى دمشق بعد أن فقدوا قسماً كبيراً من قواتهم وانسحب قسم آخر منها، وقالوا له أن شائعات قد وصلت لهم مفادها أنّ دمشق تحترق، وأنّ هناك خطراً على عائلات العسكريين فيها. فرفض السيد الهندي ذلك وقال لهم: «وكيف تنتظرون من الأهالي في دمشق أن يقابلونا إذا عدنا بهذا الشكل؟ أبالزغاريد؟ كلا، بل سيبصقون في وجوهنا» فنزلوا عند رأيه، وثبتوا بالعدد الضئيل الذي بقي لهم من الجنود. وقد حاول القائد حسن الهندي، حوالي الساعة الحادية عشرة تقريباً، إنقاذ ما يمكن إنقاذه أملاً بحدوث معجزة تغيّر وجه المعركة، كورود نجدات من دمشق والمحافظات، أو بدء قوات الجناح الأيمن بضرب الفرنسيين من خلفهم، فقام بإعطاء الأمر للملازم جميل برهاني كي يعود إلى الخلف ويجلب خمسين متطوعاً مدنياً لسدّ ثغرات الخطّ الأمامي بهم، فنفّذ هذا الضابط الأمر، وقام بنشر هؤلاء المتطوعين على الخطّ الرئيسي.

وكانت قوات المشاة الفرنسية المدعّمة بالدبابات تتقدّم باستمرار ذلك الوقت، كما تأكد بوضوح اندحار الجناح الأيسر العربي واحتلال السنغال مواقعه، فلم يعدْ هناك مفرّ من الانسحاب، خاصّة وأنّ خطر التطويق قد أصبح يهدّد جميع من بقوا أحياء في أماكنهم من قوات القلب، فأعطى حسن الهندي الأمر إلى الجنود القلائل الذين بقوا معه بالانقسام إلى جماعتين، وكلّف كلّ جماعة بالانسحاب تحت حماية نيران الجماعة الأخرى، وكان ذلك حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف من ذلك اليوم.

وكان قائد المدفعية القائم مقام صدقي الكيلاني قد أعطى قبل ذلك بدقائق الأمر بسحب المدافع التي يمكن سحبها من الجبهة وجمعها وراء خطّ القتال، فانسحبت المدفعية تاركة في المواقع الأمامية مدفعين جبليين ومدفعين صحراوين نظراً لاقتراب العدو وعدم التمكن من سحب هذه المدافع.

وكانت سرية المعية –المرافقة– هي التي تحمي التراجع بواسطة مدفعين جبليين خُصّصا ضدّ الطائرات، وكانا في الجبل خلف الجبهة، واضطرت هذه السرية أيضاً إلى ترك هذين المدفعين لعدم تمكنها من أخذهما بعد تقدم العدو.

ولدى جمع المدافع التي أمكن سحبها من الجبهة قرب ميسلون تبيّن أنّ عددها يبلغ ستة مدافع صحراوية ومدفعين أوبص، فصدر أمر بسحب هذه المدافع بسرعة إلى خطّ الدفاع الثاني الذي قيل إنه مهيّأ غربي بساتين الهامة وقدسيا أمام صحراء الديماس. وعلى هذا الشكل انهارت جهة القلب أيضاً حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف، وقد مرّت المجموعة الأخيرة، من ضباط وجنود هذه الجبهة المنسحبين، من مركز ميسلون حوالي الساعة الثانية عشرة من ذلك اليوم المجيد.

ثالثاً-حركات الجناح الأيمن:

كان الجناح الأيمن بإمرة القائد توفيق العاقل قائد اللواء الثاني في الفرقة الأولى، وكان هذا الجناح يحوي، كما ذكرنا سابقاً، فوج مشاة معزّزاً بنضيدة (بطارية) مدفعية جبلية من عيار 75 مم، وفصيلة مدفعية من عيار 65 مم، وسبعة رشاشات من طراز هوتشكيس، وبمفرزة من الحرس الملكي تعدّ حوالي ستين فارساً.

وقد كان من المتفق عليه أن تذهب قوات هذا الجناح، مساء 23 تموز، إلى الزبداني حيث سينضمّ إليها هناك المجاهد ملحم قاسم ومعه خمسمائة من رجاله بالإضافة لألف رجل من متطوّعي القضاء، وقد تمّ الاتفاق على هذا الترتيب مع السيد عز الدين الحلبي قائم مقام الزبداني نفسه.

ولمّا وصل القائد توفيق العاقل إلى الزبداني، في الساعة الخامسة من مساء 23 تموز، حسبما كان مقرراً، لم يجد ملحم قاسم أو جماعته، ولم يجد كذلك أحداً من متطوعي القضاء الألف الذين وُعد بهم.

ولمّا قابل قائم مقام الزبداني أخبره هذا بأنّ ملحم قاسم لم يصل بجماعته بعد، وبأنّ متطوعي القضاء ينتظرون الحملة على جرود (كفر يابوس)، وهو المكان الذي كُلفت قوات الجناح الأيمن بالتمركز فيه للرماية على مؤخرة الفرنسيين منه.

وقد انتظر المقدم العاقل وصول ملحم قاسم وجماعته من المتطوعين المدنيين بدون جدوى. ولمّا انتصف الليل وأيقن أنه سوف لن يلتحق به أحد، أمر قواته بالانطلاق باتجاه المكان المطلوب، فبدأت هذه بصعود تلال – الساروقية – التي تفصل بين قريتي الزبداني ويابوس، ولكن وعرة الطريق، وجهل الأدلاء، ووجود المدافع الثقيلة معه وفرار قسم من المتطوعين المدنيين، كلّ ذلك جعل عملية التقدم لا تتمّ إلا بكلّ بطء وصعوبة.

وزاد في الطين بلّة أنّ مدفعاً من عيار 65 مم قد سقط مع البغل الذي يجرّه من سفح أحد الجرود باتجاه الوادي، وهذا ما أخر تقدم الوحدة عندما حاولت سحبه من جهة، ثم كان هذا سبباً لازدياد حذر الوحدة أثناء تقدّمها لئلا تتعرض ثانية لمثل هذه الحادثة من جهة أخرى. ولذلك فقد قامت وحدات المدفعية، بإمرة الملازم خالد نصري، بفكّ المدافع إلى عدة قطع، ليمكنها ذلك من متابعة تقدمها بدون حوادث مؤسفة.

وهكذا لم تصل وحدات الجناح الأيمن إلى المكان المحدّد لها فوق الجرود المطلّة على قرية – جديدة يابوس – إلا بعد الظهر، أي في الوقت الذي كانت قد انتهت به المعركة في الجناح الأيسر وفي القلب. ولما مركزت هذه الوحدات مدفعيتها وبدأت تطلق النار على مقر القيادة الفرنسية في جديدة يابوس، كان الفرنسيون قد أتمّوا قبل ذلك تفريغ هذا المركز تقريباً في سبيل التقدم نحو دمشق، ولذا ضاعت الطلقات هباء.

ولو قُدّر لهذا الجناح أن تصل قواته إلى المرتفعات الشمالية لوادي القرن قبل بدء المعركة لكان قد تمكن من إلحاق خسائر أكيدة وملحوظة بالقوى الفرنسية، ممّا كان سيجعل نتيجة المعركة أحسن بالنسبة للسوريين حتماً.

وقد ورد إلى قائد المفرزة تقرير من أحد ضباطه بمآل أنّ أهل الزبداني أنبؤوا «بأنّ الفرنسيين أرسلوا قوة إلى قصبتهم الزبداني عن طريق الخطّ الحديدي، وأنّه ليس في مقدور هؤلاء الأهالي والأمر كذلك أن يشتركوا مع المفرزة بحركة

ما، وأنهم حوصروا بقريتهم فلم يبرحوها، وبأنّ عصابة مسلّحة من قرية سرغايا هاجمت الجند المتوجه في سبيله لتدارك الماء فجرّدته من سلاحه ودراهمه وتركته مشدوداً حائراً».

وفي هذا الوقت حضر لدى القائد توفيق العاقل، رئيس العصابة وهو من سرغايا، ومعه فريق من رجاله، وبعد أن أخبر العاقل بانهيار الجبهة العربية في عقبة الطين طلب منه، بكلّ وقاحة، أن يسلّمه المدافع والرشاشات والحيوانات التي لديه، فوجد العاقل أنّ الوقت ليس مناسباً لتأديب ذلك الخائن العميل، ولذا اكتفى باستعمال مرونته – التي كانت معروفة عنه – وصرفه بالتي هي أحسن.

على أنّ الليل ما كاد يرخي سدوله حتى ظهر بين الصخور رجال من العصابة مهدّدين قوة الجند التي كانت معسكرة هناك، فعمّت الفوضى بين من بقي من الجنود، واختلط الحابل بالنابل ولم يعدْ بوسع القائد العاقل إلا الانسحاب في الظلام الحالك، حتى إذا انبثق فجر الخامس والعشرين من تموز كان مع المفرزة في سهل مضايا متجهين نحو دمشق عن طريق وادي حلبون.

ولم يتمكن من جلب المدفعين اللّذين كانا مع فرقة المشاة، كما أنه لم يستطعْ اصطحاب الذخيرة التي كانت مجتمعة لديه، كلّ ذلك لوعورة الطريق ومشقة السير، ولأنّ العصابة كانت تهاجم رجاله من كل حدب وصوب.

وظلّت كذلك هذه المفرزة، إلى أن كان قبيل الفجر من السادس والعشرين من تموز، وفيه هبطت قرية معربا، فبلغها هناك خبر سقوط دمشق بيد الجيش الفرنسي، وخبر استيلاء هذا الجيش على جميع ممتلكات الجند العربي، وأماكن الدولة، ولهذا فقد ارتأى قائد المفرزة إيداع الرشاشات وبقية التجهيزات في تلك القرية، وأوصى بكتمان أمرها ريثما ينجلي وضع البلاد وموقفها.

وتفرّق كلّ من الضباط والجنود متنكراً يؤم داره؛ وعلى هذا الشكل وهذه النتيجة الأليمين انتهى الأمر بقوة الميمنة من الجيش العربي.

رابعاً- تراجع القوى العربية إلى دمشق:

مرّ معنا كيف تمّ انسحاب قوات الجناح الأيمن إلى دمشق في يومي 26-25 تموز، وأمّا قوات القلب والجناح الأيسر فقد تمّ تراجعها إلى دمشق على النحو التالي:

لقد انسحبت هذه القوى، أو بالأحرى ما بقي من هذه القوى، إفرادياً أو على شكل زمر صغيرة بمعية الضباط، واتخذت الطريق العام ميسلون – الديماس – دمشق محوراً لتراجعها.

وقد أرادت هذه الزمر أن تزدلف إلى التل الواقع خلف نبع ميسلون ثم تنطلق جماعياً باتجاه التلال الواقعة قرب نهاية صحراء الديماس، والتي تطلّ على وادي العرّاد، لتتخذها كخطّ دفاع ثان لها، ولكنّ قصف الطائرات الفرنسية ورشقات المدفعية باتجاه هذه المنطقة، وبدء خيالة الصباحيين بالالتفاف لتطويق ما بقي من القوات العربية، وعدم انتظام عملية الانسحاب منذ البدء، كلّ هذه الأسباب جعلت عملية الازدلاف غير ممكنة في تلك الظروف.

ولذا فقد تمّ التراجع على شكل مجموعات باتجاه دمشق: مجموعة بقيادة تحسين الفقير نفسه، وثانية بقيادة عزّت الساطي، وثالثة مع شريف الحجار، والرابعة مع صدقي الكيلاني، والخامسة والأخيرة مع حسن الهندي وجميل البرهاني.

ويجب ألا يُفهم من كلمة مجموعة هنا العدد الكبير المنتظم، لأن عملية الانسحاب كانت إفرادية وغير منتظمة، ولذا لم يزد عدد المجموعة الواحدة عن خمسين شخصاً بأيّ حال من الأحوال. وأما بقية المنسحبين فقد تراجعوا بصورة إفرادية كما قلنا سابقاً، متبعين طريق دمشق العام أو الدروب المحيطة به والمؤدية إلى القرى المنتشرة هنا وهناك.

وبما أنه كان من المتفق عليه أن تقيم القرى العربية خطّ دفاع ثان في تلال العرّاد المذكورة أعلاه، على مقربة من قدسيا، وكلّف القائم مقام لطفي الرفاعي مفتّش المنزل في دمر، بتحضير الاستحكامات اللاّزمة لذلك الخطّ، فإن المجموعات

العربية المنسحبة قد حاولت بإمرة قادتها أن تتمركز هناك لتنشئ خط دفاع ثان، ولكنها وجدت أنها لم تجرِ في ذلك الموقع أيّة تحكيمات إلا بضعة خنادق سطحية العمق. ثمّ من جهة ثانية كان عدد أفراد المجموعة المنسحبة مع كل ضابط من الضباط غير كافٍ للوقوف بوجه كتيبة مشاة واحدة، فكيف الحال أمام فرقة معزّزة بالمدفعية والهندسة والدبابات! هذا إذا أهملنا تأثير الطائرات الفرنسية التي كانت تحلّق فوق الجند المنسحب على ارتفاعات منخفضة، وأعمال السلب والنهب التي قامت بها العصابات المحلية المأجورة ضدّ الجند والمتطوعين المنسحبين.

ويصف القائد شريف الحجار كيف فشلت فكرة إقامة خط دفاع ثان في جهات قدسيا فيقول:

وكان فكري مشغولاً دوماً لإيجاد موضع دفاع جديد نوقف فيه سير العدوّ نحو دمشق، وقد وجدت التلول الواقعة قرب نهاية الصحراء ونحو الشرق، ووراءها وادي العراد، فنزلت عن فرسي وأمرت الضباط الثلاثة الذين يرافقونني بمنع المجاهدين العائدين من تجاوز هذا الخطّ الذي أزمعنا على الدفاع فيه، وبلّغتُ المجاهدين الواصلين أمامي أننا سنقف للدفاع مرة أخرى وصدّ العدو عن مهاجمة دمشق .

وقد أرسلت حالاً أحد الضباط الثلاثة ليبلّغ العقيد لطفي الرفاعي هذا القرار ويرجوه إرسال الأرزاق الموجودة مع قسم من براميل الماء إلى الخطّ المحدّد، وعاد الضابط المرسل لتفقّد مفتش المنزل ومحتوياته وأبلغنا أنه لا منزل ولا أرزاق ولا ماء، وعليه فقد تركتُ حرية المرور إلى الجميع، وسرتُ معهم نحو دمشق. وما قطعنا مع الضباط الثلاثة الطريق بين وادي القرن والهامة إلا ورأينا كمية من البغال محمّلة بأقمشة خضراء يسوقها بضعة أفراد (ـ) وقد علمنا بعد ذلك أن المرحوم يوسف بك كان قد أمر الميرة بإحضار لفات خضر يضعها المتطوعون على رؤوسهم، وبذلك يقف جنود السنغال المسلمون عن إطلاق النار على خطوطنا، ولكنّ القافلة وصلت بعد انتهاء المعركة ولم تجر تجربة هذه الفرصة السانحة.

وحقيقة الأمر أن القائم مقام لطفي الرفاعي، مفتش المنزل، قد حاول تأسيس خطّ دفاع ثان بجوار الهامة وفقاً للأمر المعطى إليه فلم يفلح، لأنه استطاع حفر بعض الخنادق، بمعونة أهل القرية، وانتظر الجند الذي وعد بإرساله إليه دفاعاً عن هذا الخط فلم يظفر من ذلك الاصطبار بطائل، فقفل راجعاً متعثّراً بأذيال الكدر والأسى لما كان من خذلان واندحار خطّ الدفاع الأول.

وقد انعكس هذا الإهمال على إمكانيات المدفعية أيضا؛ حيث أن القائم مقام أحمد صدقي الكيلاني عندما وصل إلى تلال قدسيا تقدم لاختيار المواقع اللازمة يتبعه ما تبقى من رجال المدفعية، ولمّا وصل إلى الخط المحدد ولم يجد أحداً من جند المشاة لأنهم توجهوا إلى دمشق لم يجد بُدّاً من متابعة الانسحاب إلى دمشق والتجمّع في مقر المدفعية – في ثكنة الجبخانة – بانتظار الأوامر. ولمّا بلغ قائد المدفعية دمشق، راجع مستشار وزارة الحربية – لأنه لم يجد سواه بدائرة الوزارة – وأخبره بما تمّ وطلب منه إعطاء الأوامر اللازمة، فردّ عليه بأن تبقى قوات المدفعية في ثكنة الجبخانة بانتظار صدور أوامر أخرى. وهكذا عادت قوات المدفعية مع معداتها إلى الجبخانة وبقيت فيها .

ويصف السيد تحسين الفقير، في مذكراته، كيفية دخول بقايا الوحدات العربية، التي كانت تعمل تحت قيادته، إلى دمشق فيقول:

«وتابعنا سيرنا إلى دمشق فصادفنا بعد قليل العقيد أمين بك مدور، رئيس إدارة الفرقة الأولى قادماً من دمشق ووجهته ميسلون، ومعه بضع عجلات محمّلة بالأرزاق فأعلمته بما حدث، وقفل راجعاً معنا. ولدى وصولنا إلى الشادروان رأينا تبادل الرصاص بشدّة بين المتطوعين العائدين وفصيل من الفوج الثاني المتروك في دمشق لأمر الوزارة، وكانت هناك أيضاً رشاشة موضوعة قرب مقص القطار في البناء، فدخلتُ بين الفريقين، وطلبتُ إليهم قطع النار فقطعوها. وطلبتُ قائد الفصيل فإذا هو الملازم لطفي، فسألته لماذا فعل ذلك وبأمر من، فأجاب بأن نوري باشا السعيد أمره بألا يسمح لأحد بالعودة، فأجبته بأنّ الواجب الحربي كان يقضي بتوقيف الجند والمتطوعين

العائدين عند الخطّ الثاني، وبعد أن يكون قد أعدّ وحفر من قبل لا هنا في الوادي، وأمرته بأن يسحب فصيله مع المتطوعين إلى الثكنة الحميدية وينتظر الأوامر الجديدة».

سير المعركة في الجانب الفرنسي:

بعد أن استعرضنا تسلسل وقائع معركة ميسلون من الجانب العربي، يلزمنا أن نعلم كيف قامت الوحدات الفرنسية بخوض هذه المعركة.

وكما اعتمدنا في سرد حركات المعركة في الجانب العربي على مذكرات وأقوال قادة هذا الجانب بشكل خاص، فسنعتمد كذلك في سردنا لوقائع المعركة من الجانب الفرنسي على مذكرات قادتها وأقوالهم، وخاصة مذكرات الجنرال غوابيه، قائد المعركة من الجانب الفرنسي، التي نشرها تحت عنوان: «من ستراسبورغ إلى دمشق» في مجلة قوّات الشرق:

«عند بزوغ الشمس بدأت طلقات النيران ولعلعة الرشاشات في النقطة التي يتقاطع فيها وادي الزرزور مع طريق دمشق وسرعان ما فتحت البطارية 75 مم، التي يقودها روبرت، النار لدعم تقدم المشاة، وكانت هذه البطارية متمركزة في مكان منبسط قليلاً داخل وادي القرن شمالي الطريق العام.

وقد علم مكانها أحد المدافع الشريفية وأصلاها ناراً حامية فأصيبت بخسائر ملحوظة ولكنها تابعت رميها يعاونها في ذلك نصف بطارية روبرت وفي هذا الوقت بدأت البطارية الثقيلة من عيار 155 مم قصير، بإمرة الكابتن ماميسييه، بإصلاء البطاريتين العربيتين اللتين تمّ كشفهما بنيرانها فأسكتتهما مؤقتاً على الأقلّ، ولكنّ النيران العربية تدافعت بشدة عندما نهض الجيش الفرنسي للهجوم فأصبح تقدمه وئيداً وبدأ بتكبد الخسائر.

وفي الساعة السادسة صباحاً، تقدم فوج آبو، التابع لكتيبة الرماة الثانية، واجتاز المضيق، وفي منتصف الساعة السابعة اجتاز المتاريس التي أقيمت

عند منفذه، فيما كانت المدافع الفرنسية تصبّ حممها على المواقع العربية، والطائرات تمنع الجنود العرب من رفع رؤوسهم بقصفها المتواصل.

وفي أقصى اليمين كانت بعض عناصر الصباحيين تظهر على الجوانب العليا لحوض وادي الزرزور وهذا ما يدلّ على أن قائدها الكولونيل ماسييه قد نفّذ الأوامر المعطاة له بشكل جيد.

وفي اليسار، كانت بعض عناصر كتيبة الرماة الثانية، المكونة من فوجي آبو وباوليتي، قد اجتازت وادي الزرزور وبدأت تتسلق منحدرات الموقع العربي تحت نيران البنادق والرشاشات الكثيفة.

وفي الوسط، كانت دبابات القتال التي يقودها الليوتنان ديفار، ومعها سرية من الكتيبة 415 مشاة (وهي سرية كلوبفنستاين) وعناصر سرية المهندسين التي يقودها موبوسان، قد تمكّنت من اجتياز وادي الزرزور والموانع التي وضعها العرب على الطريق هناك، ومن ضمنها أحد المعاقل (بلو كوس). وكان جنود هذه الوحدات – وحدات الوسط – يتقدمون وهم يُمطرون الخنادق العربية، شمالاً ويميناً، برصاص رشاشاتهم، داعمين بذلك تقدّم الفوج آبو الذي بدأ يظهر على ميسرة القوات الفرنسية».

وقد فوجئ غوابيه برؤية وحدة له لا تزال متوقفة في مرتفعات هلكا وهي فوج مينيان، وتأخر هذا الفوج سَبّبَ حدوث ثغرة خطيرة في هجومه حيث أن فوج غوتييه قد اضطر للتوقف أيضاً نتيجة لكشف مجنبته، وبدأ يقاتل منعزلاً في منطقة المزرعة، وبهذا انقسمت المعركة إلى معركتين.

ولم ينتظر غوابيه معرفة السبب في توقف فوج مينيان، بل قام فوراً باستدعاء فوج احتياط – وهو فوج فوركارد من الكتيبة السنغالية الحادية عشرة – وزجّه في المعركة مكان فوج مينيان على يمين دبابات القتال، وأمره بجعل هجومه متساوياً مع هجوم الدبابات.

ثم استدعى غوابيه الكولونيل بوليه، قائد الكتيبة السنغالية الحادية عشرة، وأمره بأن يأخذ بضعة جنود خيالة ويذهب إلى مقرّ فوج مينيان، وأن يستلم قيادة مجموعة فوجي مينيان وغوتييه معاً، وبأن يصل قواته، بأقصى ما يمكنه من سرعة، مع قوات الكولونيل دوزاك الرئيسية.

وفي الساعة العاشرة والنصف، وصل فوج فوركارد السنغالي، الذي تمّ استدعاؤه، كما قلنا، محلّ فوج مينيان، وأخذت كفة القوات الفرنسية ترجح، منذ ذلك الوقت، على القوات العربية ولكن النصر لم يكن محتوماً بعد.

وقد انتشر هذا الفوج الأخير –فوج فوركارد– رغم نيران البنادق والرشاشات الغزيرة بشكل مثالي، وكان الأمر مناورة وليست في ساحة المعركة، وابتدأت وحداته تزيد في انتشارها نحو اليمين لكي تمنع أيّ هجوم معاكس محتمل على ميمنة القوات الفرنسية المتقدمة. وأخيراً تمكّن هذا الفوج من عبور المضيق في الساعة الحادية عشرة بينما كان فوج مينيان يدعم ميمنته.

وابتدأت الدبابات الفرنسية بالوصول إلى أعلى المرتفعات التي تحتلها القوّات العربية، كما ظهرت في الوقت نفسه نتيجة إدخال قوات جديدة في المعركة، حيث أن فَوجَي آبو وباوليتي التابعَين لكتيبة الرماة الثانية، أصبحا الآن محميين أفضل حماية من جهة اليمين، فبدآ بتسلّق الصخور العليا التي توصل إلى الخنادق العربية، بينما انسحب الرماة العرب من المرتفع الذي كانوا يحتلونه. وأما المرتفع الثاني فقد تمّ انتزاعه بمعركة استخدم فيها السلاح الأبيض.

وهنا سقط قائد الجيش العربي، يوسف العظمة، قتيلاً في هذا الوقت، بمفعول قذيفة أطلقتها إحدى الدبابات الفرنسية بلا ريب، واضطرت بقايا القوات العربية للانسحاب والتراجع باتجاه دمشق تاركة خمسة عشر مدفعاً وحوالي ستين رشاشاً، وكمية كبيرة من ذخيرة البنادق والمدافع ومعدات إسعاف ونقل الجرحى.

وكانت المدافع والطائرات تزعج انسحاب القوات العربية بقصفها بين حين وآخر. وحباً في استثمار النصر من جهة، وسعياً وراء موارد للمياه تكون غزيرة

بشكل يكفي القوات الفرنسية بكاملها من جهة ثانية، أمر الجنرال غوابيه قواته بمتابعة السير باتجاه خان ونبع ميسلون بالتشكيلة التالية:

فوجان في الأمام، إحداهما على يمين الطريق العام والثاني على يساره.

فوج للاحتياط المباشر على الهضبة الأولى غرب خان ميسلون.

بطاريتان من عيار 75 مم مع بطاريتين من عيار 65 مم تنتشر على الهضبة الواقعة على بعد خمسمائة متر غربي خان ميسلون.

وبقية القوات كُلّفت بالسير متسلسلة بالعمق خلف هذه الوحدات.

وبينما كانت الوحدات الفرنسية تتقدم باتجاه خان ميسلون أتى تقرير خطّي من قائد الميمنة إلى الجنرال غوابيه، ويشرح هذا التقرير تسلسل عمليات وحدات الميمنة الفرنسية في ذلك الصباح حسب الشكل التالي:

يقول التقرير أن فوج غوتييه قد تقدّم في الساعة المحددة من منطقة الكنيسة باتجاه دير العشاير، ولمّا بدأت قواته تظهر داخل وادي الزرزور واستقبلتها نار حامية من البواريد والرشاشات العربية المتمركزة على ضفّة الوادي اليمنى مما جعل تقدم الفوج مستحيلاً بهذا الشكل، ولذا استنجد بنصف البطارية 65 مم الموجودة على مقربة منه، ولكن هذه الأخيرة جوبهت بنار جدّ كثيفة فقتل عدد من بغالها ولم تتمكن من إتمام التربّص.

وبعد أن حاول الكابتن غوتييه الاتصال بفوج مينيان أو بكتيبة الصباحيين، ولكن بدون جدوى، اعتمد على وسائطه الخاصة وبدأ التقدم بكلّ بطء على شكل إفرادي أو بالزمر الصغيرة. وظلّ الأمر كذلك حتى الساعة العاشرة والنصف صباحاً، وهي الساعة التي بدأت فيها كفّة القوات الفرنسية بالرجحان، وخاصة بعد تمكّن قوة الصباحيين من تهديد مسيرة القوات العربية بتطويقها من جهة الجنوب وعندها بدأ فوج غوتييه يتمكّن من التقدم فتقدم حتى المرتفعات الكائنة غربي خان ميسلون، واتصل ببقية وحدات الفرقة.

أما كتيبة الصباحيين فقد تركت مخيمها في الساعة الثالثة إلا الربع صباحاً، وبعد مسير على الأقدام عبر درب صغير جداً، وصلت في الساعة الخامسة صباحاً إلى فم وادي الزرزور، على بعد 2 كم جنوبي قرية المزرعة وتمّ إرسال رعيل (فصيل) من هذه الكتيبة لكي يعيد الارتباط مع فوج غوتييه ولكن بدون جدوى.

ولقد اشتبكت مقدمة كتيبة الصباحيين هذه بمفارز صغيرة من الهجانة العربية، وأوقفت على ارتفاع دير العشاير، حوالي الساعة السادسة صباحاً، فاضطرت لاستخدام جميع رشاشاتها، وبذلك تمكنت من صدّ جماعة من الهجانة كانوا يحاولون الاستدارة حول ميمنة القوات الفرنسية، فهرب الهجانة باتجاه خان ميسلون، وسقطت دير العشاير بأيدي القوات الفرنسية في الساعة الثامنة صباحاً.

وفيما بين الساعتين التاسعة والعاشرة صباحاً، تمكّنت كتيبة الصباحيين بكاملها من احتلال الضفة اليمنى لوادي الزرزور، ثمّ بعد عملية تسلّق صعبة أصبح بوسعها الوصول إلى وادي ميسلون، واحتلت النبع هناك، وتمكنت بذلك من الالتفاف حول ميسرة القوات العربية، ولكنها لم تتمكن من تطويق هذه القوات لأن الالتفاف لم ينته إلا عند الظهر تقريباً، أي بعد أن تم انسحاب القوات العربية المتراجعة باتجاه دمشق مما جعلها تنجو من التطويق الأكيد. ولم تتمكن قوات السباهي، أي الصباحيين، أكثر من أسر بعض المقاتلين العرب على الهضاب المسيطرة على خان ميسلون، كما أنّ قوات الوسط أسرت حوالي مائة أسير.

وهكذا يمكننا أن نلخص مناورة الهجوم الفرنسية في معركة ميسلون على الشكل التالي:

منذ الساعة الخامسة والنصف اشتبكت المدفعية الفرنسية مع المدفعية العربية وبدأت بالرمي على خنادقها، وبعد ذلك بقليل تقدمت سرية الدبابات

مرافقة بسرية مشاة من الكتيبة 415 متخذتين الطريق العام بيروت – دمشق محوراً للتقدم، تحوطهما الوحدات السنغالية من اليمين وكتيبة الرماة الثانية من اليسار، بينما كانت كتيبة الصباحيين تقوم باستدارة واسعة من جهة اليمين، وقد كُلّفت هذه الوحدات كلها بالانقضاض بوقت واحد.

وقد قام الطيران الفرنسي يوم 24 تموز بطلعات هامة للغاية، حيث كانت أربعة أسراب منه – سرب استطلاع وثلاثة أسراب قصف- تطير بلا توقف. وقد ألقت أسراب القصف فوق القوات العربية في ذلك اليوم أكثر من ثلاثة أطنان من القنابل.

وتمكّنت القوات العربية من إسقاط واحدة من طائرات هذه الأسراب، صباح ٢٤ تموز، ولكنها لم تتحطم نهائياً؛ إذ تمكن قائدها الكابتن دانجلجان ومساعده السيرجان انجالبرت من الهبوط بها اضطرارياً قرب الديماس، حيث تمّ أسرهما هناك من قبل القوات العربية، ثم أطلق سراحهما في اليوم التالي عند تقدم القوات الفرنسية باتجاه دمشق. وأمّا بقية الطائرات فقد عاد كثير منها إلى قاعدة الانطلاق بإصابات خفيفة نجمت عن الرصاص الذي أطلقه السوريون عليها.

وبعد انتهاء المعركة أخذت الطائرات الفرنسية تحوم حول القوى العربية المتراجعة وتراقب مخرج وادي ميسلون باتجاه الصحراء، وكانت تطير على ارتفاع منخفض جداً لتزعج عملية الانسحاب. ولمّا توقفت القوى العربية في الديماس لمحاولة إقامة خطّ دفاع ثان، عادت الطائرات الفرنسية تلقي قنابلها ورشاشاتها على فلول الجيش المتقهقر. ولنعد الآن إلى وحدات المشاة الفرنسية التي بدأت بالوصول على نبع ميسلون حوالي الساعة الثالثة عشرة من يوم ٢٤ تموز حيث يصف الجنرال غوابيه وصوله إلى خان ميسلون فيقول: «وقد وصلت راكباً مع هيئة أركاني إلى خان ميسلون، واتخذنا في الحال جميع التدابير للحصول على الماء هناك، حيث الحرّ كان قد بلغ أشده، وجنودنا يرشحون عرقاً وأسقيتهم فارغة منذ وقت طويل، بعد سيرهم في الشمس المحرقة وكانت الخيل والبغال تنقضّ على الماء انقضاضاً هائلاً وهي مقطورة برغم جهود سائقيها». ثمّ يستطرد غوابيه قائلاً:

«وأمّا معظم الفرقة فقد بقي في ميسلون، حيث فتشت المنازل القليلة الموجودة في المكان فوجدت فيها كمية كبرى من (قمر الدين) توازعها الجنود الفرنسيون فورا».

وليت الأمر اقتصر على تفتيش المنازل والاستيلاء على كمية القمر الدين التي اعترف بها غوابيه؛ حيث أنّ الفرنسيين كانوا يقطعون الأشجار ويحطّمون أبواب المنازل وسقوفها ليستخدموها وقوداً لطهو طعامهم، ويذبحون البغال والحمير ليأكلوا لحومها كما يؤكد السيد حسين علي عامر، وهو شاهد عيان حضر المعركة.

وفي منطقة دير العشاير قام الفرنسيون بالانتقام من بعض أهاليها الذين أبت عليهم عروبتهم إلا معاونة القوات السورية في وقوفها بوجه الفرنسيين. ويصف السيد أحمد محمد أبو سعيد، أحد متطوعي هذه القرية الذين اشتركوا بالمعركة، أعمال الفرنسيين الانتقامية فيقول:

«بعد انتهاء المعركة عدتُ من جبال ميسلون، وما هي إلا ساعات حتى ألقى الفرنسيون القبض عليّ، ووضعوني في اسطبل للخيول يضمّ مئات المعتقلين بينهم بعض النسوة، عرفتُ منهنّ فاطمة الدرويش التي اعتقلها الفرنسيون لأنها كانت تزوّد المجاهدين بالماء ثم ساقونا إلى الهضاب المقابلة لميسلون، وإلى المرتفعات القريبة من دير العشاير، وقد بدؤوا بفاطمة الدرويش وبعض رفيقاتها فأطلقوا عليهنّ النار»

ولقد خاف غوابيه، بعد صدور هذه الأعمال من جنوده، حدوث ردّة فعل انتقامية ضدّهم ليلاً، ولذا فقد أمر باتخاذ جميع الاحتياطات من قبل قواته عند مبيتها ليلة 25/24 تموز. وحوالي الساعة الخامسة مساءً قام الليوتنان كولونيل ماسييه قائد كتيبة السباهي بإخبار غوابيه بأنه قد دخل بارتباط مباشر مع طليعة الفرقة، وبأنه سيقيم مخيّمه على المنحدرات العليا لصحراء الديماس، على بعد حوالي ٣ كم جنوباً من الطريق العام. وبهذا الشكل يمكن للكتيبة أن تراقب بيسر سهل الصحراء الواسع الذي يفصل بين الموقع الذي استقرّت فيه الوحدات الفرنسية ودمشق، وأن تغطّي ميمنة الفرقة ضدّ أي هجوم محتمل من جهة جبال الحرمون.

وأمّا بالنسبة لبقية الوحدات الفرنسية فقد حدّدت لها أمكنة المبيت على الشكل التالي:

تبيتُ قوات المقدمة التي يرأسها الكولونيل دوزاك، والتي تضمّ فوجي رماة، وفوجاً سنغاليا، وبطاريتين ٧٥مم، وبطارية ١٥٥ مم، ونصف كوكبة خيالة، في منطقة الديماس. أمّا القسم الرئيسي من قوات الفرقة فيكون تحت إمرة الجنرال بوردو ويبيتُ في خان ميسلون.

وقد تمّ حماية كلّ من معسكر الديماس ومعسكر خان ميسلون بجهاز حماية كاف تمركز فوق جميع التلال المحيطة بالموقعين.

وقد كلّف غوابيه فوج ليدان، الذي كان قد وصل لتوه من عين جديدة، بجمع العتاد الذي خلفته القوات العربية وراءها، وبتنظيف حقل المعركة وذلك بدفن القتلى العرب ونقل القتلى الفرنسيين في سيارات التموين التي كانت تعود فارغة باتجاه قيادة الجيش.

خسائر الطرفين في المعركة

لقد اختلفت المصادر العربية والأجنبية في تحديد خسائر الطرفين بمعركة ميسلون، وأمّا نحن فسنكتفي بذكر أقرب هذه الأرقام إلى الصحة. جاء في التقرير الرسمي للوحدات الفرنسية المنشور في «الكتاب الذهبي لجيش الشرق» أنّ خسائر الفرنسيين في معركة ميسلون كانت اثنين وأربعين قتيلاً، ومائة واثنين وخمسين جريحاً منهم ضابطان، وأربعة عشر مفقوداً. وأما غوابيه فيحدّد الخسائر الفرنسية في مذكراته باثنين وخمسين قتيلاً وحوالي مائتي جريح منهم ثلاثة ضباط.

وتُجمعُ المصادر الفرنسية على أنّ الوحدتين اللتين بُليتا بأفدح الخسائر هما بطارية روبرت، وسرية المشاة التي كان يقودها كلوبفنستاين، والتي كُلّفت بمواكبة الدبابات الفرنسية أثناء هجومها.

وأمّا المصادر العربية فقد أعطت أرقاماً تزيد قليلاً عمّا ذكرته المصادر الفرنسية في تحديدها لخسائر الجانب الفرنسي، فقد ذكرت المجلة العسكرية السورية أن هذه الخسائر كانت ستة وسبعين قتيلاً ومائتين واثنين وخمسين جريحاً وأربعة وعسرين مفقوداً.

ويؤكد القائد شريف الحجّار، في مذكراته المخطوطة عن معركة ميسلون، أن خسائر الفرنسيين كانت مائتين واثني عشر قتيلاً وأكثر من ثلاثمائة جريح. وأمّا الأميرالاي تحسين الفقير فيذكر أنّ خسائر الفرنسيين من العتاد هي أربعة مدافع جبلية سريعة، وطائرة واحدة، وأربع دبابات ثقيلة. وهذه الأرقام صحيحة كلّ الصحة، ولكن السيد الفقير يذكر فيما يتعلق بخسائر الفرنسيين من الأرواح، أرقاماً تبدو إلى المبالغة أقرب منها إلى الحقيقة؛ حيث يؤكّد أنّ رئيس المستشفى العسكري (مستشفى العظمة حالياً) ذكر له بعد إطلاعه على سجلات مديرية الصحة العسكرية لفرقة الجنرال غوابيه أنّ الفرنسيين خسروا في المعركة أربعمائة قتيل، وألف وستمائة جريح من الجند وأربعين ضابطاً بين قتيل وجريح.

وأمّا خسائر السوريين في المعركة فقد بالغت أيضاً بعض المصادر العربية في تقديرها حيث جعلتها بين ألف ومائة إلى ألف ومائتي قتيل، وأربعمائة جريح. ولكننا بعد مزيد من التحقيقات والإحصاءات تأكدنا من أن هذه الخسائر لم تتجاوز أربعمائة قتيل، منهم حوالي ثمانين من الحرس الملكي، ومائة وعشرين من المتطوعين، والبقية من الجند النظامي.

وقد أُسر من السوريين بين مائة وخمسة وعشرين إلى مائة وخمسين شخصاً، وأمّا عدد الجرحى فلم نتمكن من إحصائه. وكان أبرز من قاتلوا واستشهدوا في ميسلون هم نفر من رجال الدين المسلمين الذين اعتبروا الاشتراك في ميسلون فريضة جهاد مقدّسة يجب أن يؤدوها ولو استشهدوا هناك، وهؤلاء الشهداء هم: الشيخ عبد القادر كيوان، الشيخ كمال الكازي الخطيب، الشيخ سليم الدرا، الشيخ محمد توفيق الدرا، الشيخ صلاح الدين أبو الشامات، ياسين كيوان، عمر الصباغ، صادق هلال، أحمد الموصلي، محمد نوري الحصري، عبده الصباغ، أحمد القحف، عبد الله الكلاس، محمد نبروز (من دوما)، وغيرهم.....

يوم ميسلون
مذكرات ساطع الحصري
دمشق 1948

عدتُ إلى دمشق، وأنا جازم كلّ الجزم بأنّ القوم مصمّمون على احتلال بلادنا احتلالاً تاماً، وعاملون على استكمال وسائل هذا الاحتلال مهما تقلبت الظروف والأحوال. حتى لو أننا أذعنّا لمطالبهم الجديدة، ونفّذنا كلّ ما جاء فيها، فلن نستطيع أن نمنع النتيجة المقرّرة لأنهم لن يترفعوا عن إيجاد وسيلة جديدة لتقديم مطالب جديدة، لينفذوا مآربهم الكثيرة.

ذهبتُ إلى قصر الملك ساعة وصولي دمشق، في وقت متأخر من الليل، وسلمتُ الملك الرسالة الخاصة مع المذكرة الرسمية، وقصصتُ عليه، بحضور بعض الوزراء الذين كانوا آنئذ في القصر، كلّ ما حدث خلال أداء مهمتي.

وقد كانت الرسالة الخاصة – التي تسلمتها من الجنرال غورو في آخر لحظة، تحثّ الملك فيصل على «إبعاد المتطرفين المتهوّرين من حوله» لضمان «تأسيس العلاقات الودية بين سورية وفرنسا»، و«تطبيق الانتداب الذي قبلته فرنسا بناء على قرار جمعية الأمم» في جوّ مشبع «بروح التفاهم والإخلاص». ويلي ذلك تأكيدات الجنرال السابقة بأنّ «الانتداب لا يقصد منه الإخلال باستقلال البلاد». وكان الملك فيصل يبدو متعباً جداً. فقرأ الرسالة والمذكرة، وسمع حديثي دون أن يبدي رأياً، وأمر بدعوة مجلس الوزراء إلى الاجتماع صباحاً، لدرس القضية ملياً.

اجتمع مجلس الوزراء صباح اليوم التالي، وهو آخر يوم مدة الهدنة التي كسبناها في القصر، بحضور الملك فيصل، واطلع على الشروط الجديدة التي حملتها من

عاليه. وقصصتُ على المجلس – في خلال اجتماعه هذا – ما دار بيني وبين غورو من الحديث بإيجاز، وبينت له الحكم الذي توصلت إليه عن نوايا الفرنسيين بعد الاتصالات المباشرة التي تمّت بيني وبينهم أثناء سفرتي – التي استغرقت نحو ثمانية وعشرين ساعة – واطّلع الوزراء على شروط الجنرال، واستمعوا إلى بياناتي بوجوم تشوبه الحيرة عند معظمهم، والذهول عند البعض، والحذر من إظهار الرأي عند الآخرين.

وقد لاحظتُ على وجوه أكثرهم عدم القناعة باستنتاجاتي الشخصية. ولاح لي أنّ الملك فيصل ظلّ بعيداً عن مشاطرتي رأيي في الموضوع. ولا شكّ في أن الرسالة – التي كتبها الجنرال غورو، في آخر لحظة، بعد مقابلته جميل الألشي – كان لها أثرها القوي في توجيه تفكيره، لأنها كانت تنصّ في ظاهرها على وضع الثقة بالملك، وتعزو تبعة الحوادث إلى المتطرفين المتهوّرين، وتعد وتؤكد بأنّ الانتداب لا ينوي أيّ سوء بالاستقلال.

ولكن الوقائع تولّت بنفسها تأييد حكمي وإظهار نوايا الفرنسيين قبل نهاية اجتماع مجلس الوزراء. فقد جاء الكولونيل كوس إلى القصر في أثناء الاجتماع، وسلّم الملك برقية جديدة من الجنرال غورو، يطلب فيها السماح للجيش الفرنسي بالتقدم إلى خان ميسلون، بحجة أنّ ذلك ضروري لضمان حاجاته. وهذا هو نصّ البرقية:

برقية عاجلة ذات أولوية

إلى الكولونيل كوس. دمشق – رقم 358 /2

تاريخ الإصدار: 1920/7/23 – الساعة العاشرة

مكان الإصدار: بيروت المقرّ الصيفي

إنّ شروط الهدنة قد سلمت أمس إلى وزير المعارف، وقد أعطيت له سيارة للعودة إلى دمشق.

وقد أعلمني الجنرال قائد الفرقة من جهة ثانية أنّ الأربع والعشرين ساعة التي قضاها في منطقة عين جديدة بطروم تحمله على التصريح بعدم إمكان

بقاء فرقته معسكرة في الموقع المذكور، نظراً لقلّة الماء وحالة الطريق المؤدية إلى محطة التكية التي لا تصلح إلا لسير البغال. وهو يعتبر من الضرورات الحيوية لجيوشه الانتقال إلى موقع آخر يتوفر فيه الماء الكافي ويرتبط بالسكة الحديدية بطريق صالحة لسير العجلات.

أعلموا الأمير بأنّ رئيس أركان جيشي سيكون غداً في الساعة السادسة في الوادي الذي كان جعل حداً فاصلاً بين جيوش الطرفين، للبتّ مع ممثل الأمير في مسألة إنزال الفرقة في مكان تتوفر فيه الشروط المقبولة.

يتبين من المعلومات المستقاة من تلك المنطقة، أنّ المعسكر ينبغي أن يُقام في خان ميسلون.

وفيما عدا ذلك، لم يطرأ أيّ تعديل على شروط الهدنة.

«غورو»

إنّ هذه البرقية كانت بمثابة دليل جديد على صحة ما ذهبتُ إليه عن حقيقة نوايا الفرنسيين. فإنّ الجنرال غورو بعد أن أبلغني الشروط التي وضعها لوقف الزحف يوم أمس، وبعد أن ألحّ عليّ كل هذا الإلحاح لحملي على قبولها أو رفضها فوراً دون مراجعة الملك والوزارة، أضاف إليها هذا اليوم بهذه البرقية شرطاً جديداً، يضمن لجنوده اجتياز وادي الرزور، وتسلّق سفوح ميسلون، والوصول إلى العيون الغزيرة التي تتدفّق بجانب الخان المعروف باسم خان ميسلون. ولا شكّ في أنّ الجنزال غورو كان يريد بطلبه هذا إيصال جيوشه إلى مسافة خمسة وعشرين كيلومتراً من دمشق، بانتظار توفر وسيلة جديدة لطلب جديد يوصل الجيوش المذكورة إلى قلب العاصمة نفسها ..

ولم تترك هذه البرقية لأحد مجالاً للقول بلزوم قبول الشروط.

فتقرّر أن يكتب فوراً برقيات استغاثة جديدة إلى جميع الدول. كما تقرّر أن يُدعى جميع قناصل الدول الأجنبية إلى الاجتماع بغية اطلاعهم على تفاصيل الوضع. وقد أُلقيتْ هذه المهمة أيضاً على عاتقي.

عندما غادرتُ المجلس، لحق بي يوسف العظمة – وكان قد تلقى الوضع باعتدال ورباطة جأش، وبعد أن شكرني على نجاحي في تمديد الهدنة أربعة وعشرين ساعة أخرى، أخبرني أنه سيسعى للاستفادة من هذه الهدنة كلّ الاستفادة.

ولا شكّ في أنه كان يعلم أنّ عدم قبول الشروط سيؤدي إلى الاصطدام، وأنّ الاصطدام، سينتهي بالانكسار، ولكنه كان يسعى لجعل هذا الاصطدام مشرّفاً على قدر الإمكان.

اجتمع القناصل في القنصلية الإيطالية العامة، لأن الماركي دُ باترنو كان أكبرهم مقاماً.

وكنا قد علمنا، منذ مدة، أن الكونت اسفورزا الذي تولّى وزارة الخارجية الإيطالية قرّر أن يُعنى عناية خاصة بالشؤون الشرقية، وأن ينتهج بشأنها سياسة جديدة؛ فرأى أن يوفد إلى سورية شخصية ذات مكانة ممتازة، لتنفيذ هذه السياسة. وكان الماركي المذكور قد جاء دمشق على أثر هذا التبديل الذي حصل في السياسة الإيطالية الخارجية، وأخذ يُظهر عطفاً كبيراً على القضية العربية بوجه عام، والقضية السورية بوجه خاص؛ ولكن هذه المساعي جاءت بعد فوات الأوان.

ذهبتُ إلى القنصلية الإيطالية العامة لمحادثة القناصل مجتمعين.

وبدأتُ الحديث بسرد تطوّرات الحوادث. وشرحتُ ما جرى خلال الأيام الثلاثة الأخيرة، ولفتُ أنظار الجميع إلى طريقة المكر التي سلكها الجنرال غورو باحتلال الجبال والوديان، والتقدم إلى الأمام، بعد أن قبلتْ حكومتنا شروط الإنذار، وشرعتْ بتسريح الجنود وأخلتْ مجدل عنجر من الحامية العسكرية المرابطة فيه... وبذلتُ كلّ جهدي لإظهار هذا المكر إلى العيان، بشرح أهمّ صفحات المناقشة التي دارت بيني وبين الجنرال غورو في عاليه.

وكان الماركي دُ باترنو يُظهر الأسف والاستنكار كلما اطلع على صفحة من صفحات القضية. وكان قنصل إسبانيا، دارندا، يشاركه هذا الأسف والاستنكار.

ولكن قنصل الولايات المتحدة الأمريكية قال لي منذ بدء الحديث: «إن حكومته قررت منذ مدة عدم التدخل في شؤون السياسة الأوروبية ». فأجبته قائلاً: «إننا لم نطلب منكم أن تتدخلوا في الأمر، إنما نريد أن تطّلعوا على حقيقة الأمر، لتنوروا الرأي العام في بلادكم. ولا شكّ في أنّ مواطني الولايات المتحدة، وإن كانوا لا يحبون تدخل دولتكم في السياسة الأوروبية، فإنهم لا يفتؤون يتطلّعون إلى أحداث السياسة العالمية، ويتوقون إلى معرفة ما يجري في العالم، ولا سيما في هذه البقاع من الشرق. فكلّ ما نرجوه منكم هو أن تطّلعوا على حقائق الأمور لتُطلعوا مواطنيكم عليها».

وأمّا قنصل إيران فقد وقف موقفاً غريباً؛ إذ قال: «يصعب علينا أن نعرف الحقيقة، لأننا لم نسمع رأي الطرف الثاني في هذا الشأن، وقد علمتُ أنهم يؤكدون أن البرقية تأخرت بسبب أعمال العصابات». فاضطرني إلى لفت نظره إلى ما قد بينته عن البرقيات التي تبودلت بين الجنرال غورو والملك فيصل، وقلت له: «إني مستعدّ، إذا شئتم، لإطلاعكم على البرقية التي وردت من الجنرال غورو في شكر الملك على قبول الشروط»، ثمّ زدت على ذلك الملاحظة التالية: «لو فرضنا جدلاً أنّ الجنرال لم يطّلع قدّ على قبول الشروط، فإنّ ذلك قد يبرّر تقدم جيوشه، ولكنه لا يبرّر، بحال من الأحوال، عدم سحب تلك الجيوش بعد ظهور الحقيقة. وأما اتخاذ هذه الدعوى ذريعة لتقديم مطاليب جديدة، فأمر لا يمكن تبريره بأيّ وجه من الوجوه».

وختمتُ كلامي، موجّهاً الخطاب إلى الجميع بقولي: «وعلى كلّ حال فلقد شهدتم، كلكم، القسم الأعظم من الحوادث بأنفسكم: إنّ الحكومة قبلت شروط الإنذار، وشرعت بتسريح الجيش، فسبّب ذلك هياجاً شديداً لدى الأهلين، واضطرّ الحكومة إلى استعمال السلاح لتسكين الاضطرابات. وقد علمتم، بعد ذلك، بأنّ الجيوش الفرنسية أخذت تزحف نحو دمشق، بالرغم من هذه الإجراءات كلها، وأنها لا تزال تريد أن تواصل الزحف».

وقد أثر حديثي في الماركي دُ باترنو تأثيراً واضحاً، وأيّدني بصراحة، كما وعدني أن يبذل كل ما في وسعه لتنوير الرأي العام الإيطالي – بل والرأي العام الأوروبي – عن هذا العدوان الفظيع.

بعد الانتهاء من محادثة الهيئة القنصلية، توجهتُ نحو القصر – ووجدتُ في الطريق المؤدية إليه ازدحاماً كبيراً. ولاحظتُ أنّ هذا الازدحام ازداد كثافة أمام القصر نفسه، وعلمتُ بعد برهة أنّ قرار الدفاع كان قد ذاع بين الناس. دخلتُ غرفة الملك فيصل، وأخذتُ أقصّ عليه خلاصة الأحاديث التي دارت بيني وبين القناصل، وخلال هذا الحديث دخل الغرفة الشيخ كامل القصّاب مهرولاً، ومدّ يده نحو الملك قائلاً: «ما دمتَ قد قرّرت الدفاع، فأنا أعدك بتجنيد عشرة آلاف حامل بندقية حتى المساء». وبدأت بعد ذلك في المدينة حركة تطوّع شاملة، مقترنة بمظاهرات حماسية.

وعند الأصيل، جاء الكولونيل كوس إلى القصر يطلب جواب الحكومة على مذكرة الجنرال غورو وبرقيته. ولمّا علم أن الجواب لم يكتب بعد، طلب بضع أوراق، وكتب عليها مسودتين: الأولى في قبول الشروط، والثانية في رفضها، ثم قدّمهما إلى الشهبندر قائلاً: «إنّي أعددتُ لكم المسودتين بغية تسهيل مهمتكم. فاختاروا إحداهما لنكون نحن على بيّنة من الأمر». ولكنّ الصيغة التي أفرغ فيها كوس الجواب في كلتا المسودّتين لم تنل موافقة أحد.

وكُتب الجواب بأسلوب أكثر مرونة، وجاء فيه: «إننا نأبى الحرب، ولكن قبول الشروط الواردة في مذكرتكم الأخيرة يعرّضنا لا محالة إلى حرب أهلية. إننا مستعدون لتنفيذ الإنذار المؤرّخ في 14 تموز بحذافيره، وقد نفّذنا إلى الآن أربعة من شروطه؛ وإننا نتعهّد بشرفنا بتنفيذه بإخلاص على أن ينسحب الجيش الفرنسي من الأماكن التي احتلّها مؤخراً.»

وبعد العشاء، جاء يوسف العظمة يودعنا، قائلاً بأنه سيتوجه إلى الجبهة. ولكنه – قبل أن يغادرنا – انتحى بي زاوية من الغرفة، وقال لي بالتركية، بصوت تخنقه العبرات: «أنا ذاهب! إني أترك ليلى أمانة لديكم، أرجوكم ألّا تنسوها». وليلى المقصودة في كلامه هذا هي ابنته الوحيدة التي جاءت من الأستانة – مع أمها – قبل أسبوعين من تاريخ تلك الحوادث، أي قبل بدء الزوبعة التي كانت تجرفنا في ذلك الحين. ولقد أدركتُ حالاً ما كان يقصد من كلامه هذا: إنه

يتوجه نحو الجبهة موطداً العزم على ألّا يعود منها أبداً. ولم أشأ – في هذا المقام الرهيب – أن أبدي له أيّ رأي كان؛ بل قلتُ له بهدوء تام: «تستطيع أن تطمئن إلى ذلك كلّ الاطمئنان»

يـوم ميســـلون

إنّ بدء اليوم الرابع والعشرين من تموز كان موعد انتهاء الهدنة التي عقدناها مع الجنرال غورو، فكان من الطبيعي أن يبدأ هجوم الفرنسيين على رُبى ميسلون في فجر ذلك اليوم. وأخذت تتوارد علينا بعض الأخبار – عن المعركة التي بدأت فعلاً – في الوقت المذكور، منذ الصباح الباكر. وما كنتُ أستطيع أن أمنّي نفسي بأيّ أمل في الانتصار، بعد أن علمت ما علمت من أحوال جيشنا، وشاهدتُ ما شاهدتُ من عُدَد الجيوش الفرنسية، وما كنتُ أجد مجالاً للشكّ في النتيجة الأليمة التي ستنتهي إليها المعركة، ولكني مع هذا كنتُ أتمنى أن تطول المعركة على قدر الإمكان، وأمنّي نفسي بمعركة عنيفة تُساعد على حفظ شرفنا العسكريّ على أقلّ تقدير.

ولكنّ النتيجة لم تبطئ كثيراً؛ فقد وردت الأخبار قبل الساعة العاشرة بانكسار الجيش واختراق الجبهة. وقالوا: «يوسف العظمة قُتل في ميسلون». فقلت: «بل إنه انتحر هناك!... واستشهد على كلّ حال».

إن كلّ ما أمكن جمعه من الجنود والعُدَد، وكلّ ما أمكن ارتجاله من التحصينات ما كان ليصمد أكثر من بضع ساعات أمام الهجوم العنيف الذي شنّه الجيش الفرنسي المجهّز بجميع وسائل القتال من مدافع ثقيلة ودبابات وطيارات...

بين دمشق والكسوة

تقرّر أن تنتقل الوزارة إلى الكسوة بالقطار، على أن يذهب الملك إليها بالسيارة. غير أني اقترحت أن نصدر قبل سفرنا بياناً إلى الشعب، نعلن فيه خروج الحكومة من العاصمة، بغية مواصلة الدفاع عن حقوق البلاد واستقلالها. ونال هذا الاقتراح

موافقة جميع الزملاء؛ فكتبنا مسودة البيان، وسلّمناها إلى الديوان، لتبييضه وإرساله إلى النشر، بعد توقيعه بتوقيع رئيس الوزراء هاشم الأتاسي. ثمّ تفرقنا، ليذهب كلّ منا إلى داره ويأخذ حقائبه، على أن نعود فنجتمع في محطة الحجاز استعداداً للرحيل إلى الكسوة في الساعة الواحدة بعد الظهر.

وصلتُ المحطة بعد أن أخذتُ من داري بعض الملابس وبعض الأوراق؛ ووجدتها غاصّة بعدد كبير من الوطنيين الذين كانوا يرون من الضروري أن يتباعدوا عن دمشق قبل وصول الفرنسيين. وكان بعض هؤلاء في حالة فزع شديد؛ آذانهم مفتّحة لسماع كلّ حديث، وأذهانهم مستعدة لتصديق كلّ خير، ومخيّلاتهم ميّالة إلى تكبير كلّ خطر. وكان من الطبيعي أن تنتشر في هذا الجوّ المعنوي المتكهرب شتى الشائعات: هذا يقول إنّ الفرنسيين بلغوا الغوطة وأخذوا يتقدّمون نحو القدم، وذاك يروي أنّ أهل الميدان أخذوا يتجمّعون، استعداداً لإحراق المحطة ونسف القطار، وآخر يدّعي أنه لم يبقَ لوصول الفرنسيين إلّا برهة من الزمن... وكان يتبع كلّ شائعة من هذه الشائعات سلسلة طويلة من الاقتراحات، كلّها ترمي إلى طلب تعجيل القطار قبل اشتداد الخطر أو فوات الأوان. وقد تعبنا كثيراً لتسكين هذه الأعصاب الهائجة، وتفنيد هذه الشائعات المثيرة، ومنع حركة القطار قبل حلول الميعاد المقرّر للسفر.

في هذه الأثناء خطر لي أن أتأكد من مصير البيان الذي قرّرنا إذاعته على الناس، فعلمتُ أنه سلّم إلى هاشم الأتاسي؛ فسألتُ الأتاسي عنه، وعلمتُ أنه لم يقرأه بعد، فأخرجه من جيبه، وصار يقرأ باهتمام.

عندما قرُبَ موعد السفر كان الوزراء جميعاً قد حضروا إلى المحطة ما عدا فارس الخوري وعلاء الدين الدروبي. وعلمنا أنّ فارس الخوري أرسل حقيبته، ولكنه لم يصل بعد. فأخذنا ننتظر وصوله بفارغ الصبر. وأما علاء الدين الدروبي، فلم نعرف عنه شيئاً. فقد علمنا فيما بعد، أنه كان أخبر رئيس الوزراء بأنه يرى أن بقاءه في دمشق – بصفته وزيراً للداخلية – أوفق للمصلحة من خروجه إلى الكسوة، وأنه بقي متمسكاً برأيه هذا، بالرغم من اعتراض رئيس الوزراء عليه.

وفي الأخير حان وقت السفر، وقمنا لركوب القطار؛ وعندما هممتُ بالمشي، رأيتُ أن أسأل هاشم الأتاسي عمّا فعل بالبيان؛ ولكنّي رأيته يتفجّر غضباً، ويصيح بأعلى صوته: «البيان! البيان! لماذا تلحّ عليّ كلّ هذا الإلحاح؟». لاحظتُ أنّ أعصابه كانت قد توترت كثيراً بتأثير الجوّ المعنوي المكهرب الذي ملأ المحطة، فقلت له بكلّ هدوء: «لأنني أعتقد أننا إذا سافرنا من غير أن نصدر هذا البيان، نكون قد انهزمنا من العمل.. في حين أننا لا نذهب من هنا فراراً من الواجبات المترتّبة علينا، بل لنتمكّن من أداء تلك الواجبات بأحسن الوسائل وأكملها». وعندما كنتُ أقول ذلك، كان هياج بعض اللاجئين إلى المحطة قد ازداد، واشتد لحاحهم في طلب السفر بدون تأخير. وفي هذا الجوّ الهائج، ارتبك هاشم الأتاسي ارتباكاً غريباً فاضطررتُ إلى التأكيد عليه قائلاً: «لا يحقّ لنا أن نغادر هذا المكان دون أن نصدر البيان؛ إذ لا يسوغ لنا أن ننهزم من الميدان في هذه الآونة بعد أن أخذنا على عاتقنا مسؤولية الحكم حتى الآن». فهدّأتْ كلماتي هذه غضب الأتاسي، واضطرته إلى توقيع البيان. وبعد ذلك أمر بإيصال البيان إلى الدروبي، لضمان نشره بوسائل مختلفة. ولكنا علمنا بعد ذلك أن الدروبي أهمل نشر البيان عن قصد وعمد.

وصلنا إلى الكسوة، واتخذنا عربات القطار الذي أوصلنا إليها مكتباً ومسكناً. وكان بين تلك العربات صالون خاص، أُعدّ ليكون مسكناً للملك فيصل ومكتباً له عند وصوله إلى الكسوة. وصل الملكَ فيصل – مع حاشيته – بالسيارات مساءً قبيل غروب الشمس.. وقد كان في حالة شاذّة، تختلف عن حالاته المعتادة اختلافاً كبيراً. فجميع حركاته وسكناته كانت تدلّ على أنه في حالة تردّد شديد وقلق عظيم. ولاحَ لي من تتبّع هذه الحركات أنه كان مشغول اللُبّ بشيء يميل إلى إخفائه عنا. فقلتُ لنفسي: «ربما كان لا يزال يأمل في التفاهم مع الفرنسيين، وينتظر ورود بعض الأخبار التي تساعد على تحقيق هذا التفاهم». وقد تبين لي بعد قليل أنّ ظني هذا كان مطابقاً للحقيقة والواقع: إنه كان قد أوفد نوري السعيد لمقابلة الفرنسيين، وأرجأ جميع قراراته إلى حين وصول أخبار هذه المقابلة. ولهذا، كان ينتظر هذه الأخبار بفارغ الصبر، ويتجنّب التكلم وإبداء الرأي في أيّ موضوع كان.

أمّا الأخبار التي كان ينتظرها الملك، فقد وصلتنا بعد مدة في برقية من نوري السعيد يقول فيها:

دولة رئيس الوزراء

الاتفاق مؤقت، هو الحكومة القديمة باقية على أن تعد ما حصل ضدّ رغائبها السلمية، وتنشر بلاغاً في ذلك والفرنسيون يقيمون في المزّة لمدة مؤقتة ولا يتداخلون بأمر غير إنفاذ المواد الأولية المعلومة الجنود النظامية تبقى في القدم، ويبقى الدرك والشرطة في داخل البلد. ولأجل حفظ النظام يجوز قلب قطعات النظامية إلى درك تقرّب جلالته من دمشق ضروري، أنتظر توكيل تحريري للمفاوضات السياسية منعت الخروج بعد الساعة ثمانية ليلاً، البلد هادئة تماماً، لا تفتكروا.

نوري السعيد

إنّ هذه البرقية لم تقنعني قطّ، ولم يداخلني ريب في أنّ مضمونها يدلّ على عدم اطّلاع صاحبها على نوايا الفرنسيين الحقيقية، وعلى عدم تقديره مبلغ استرسالهم في الخداع والمكر. ولكنّ الملك فيصل الذي كان يبحث آنئذ عن خيط من الأمل يتمسّك به في ظلمة هذا الجوّ الحالك، تفاءل من البرقية، واسترسلَ في تفاؤله هذا استرسالاً غريباً. وقد بلّغته في اليوم التالي أخبار شفهية عديدة، شبيهة بمضمون البرقية؛ فزادت تفاؤله، وحملته على اتخاذ قرار خطير، في سبيل التفاهم مع الفرنسيين: فقرّر أن يعهد إلى علاء الدين الدروبي بتأليف وزارة جديدة، وأوفد كبير الأمناء إلى دمشق لمفاوضة الدروبي في هذا الأمر.

إنّ الوقائع الأخيرة، كانت تدلّ دلالة واضحة على أن علاء الدين الدروبي كان متفاهماً مع الفرنسيين، وأنّ تخلفه عنا بدمشق، عند خروجنا إلى الكسوة، كان ناتجاً عن هذا التفاهم السابق. ولذلك ظنّ الملك فيصل أنّ الدروبي يستطيع تأليف وزارة تضمن التفاهم مع الفرنسيين. ولقد كنتُ مدركاً بوضوح أنّ تفاؤل الملك فيصل لم يكنْ في موضعه أبداً، وأنّ هذه التضحية لن تجديه نفعاً. والوقائع أيّدت ذلك بعد قليل من الزمن.

ألّف علاء الدين الدروبي الوزارة حالاً، وأدخل فيها ثلاثة من أعضاء وزارتنا، هم: فارس الخوري، جلال الدين، ويوسف الحكيم. وضمّ إليهم أربعة وزراء جدد، هم: جميل الألشي، عطا الأيوبي، عبد الرحمن اليوسف، بديع مؤيد العظم. وتسلّمت الوزارة الجديدة مقاليد الحكم، وأخذ الملك فيصل يترقّب نتائج تدبيره هذا بفارغ الصبر. ولكن نوايا الفرنسيين الحقيقيّة لم تلبث أن ظهرت إلى العيان – مرة أخرى – في اليوم نفسه: فقد قابل إحسان الجابري – كبير الأمناء – خلال وجوده بدمشق، الماركي دُ باترنو، قنصل إيطاليا العام، وعلم منه أن الفرنسيين، قرّروا إعلان انتهاء العهد الفيصلي، وإنهم يحاولون أن يدعموا قرارهم هذا بمضبطة يتولى تنظيمها أذنابهم، ويقولون فيها: «أن البيعة للملك فيصل قد سقطت، بناء على تركه العاصمة وفراره منها». نقل الماركي هذه الأخبار إلى إحسان الجابري، وقال له أنه يرى من الأوفق لمقتضيات السياسة أن يعود الملك إلى دمشق، ليُفسد هذه الدسائس الفرنسية، ويقوّي موقفه تجاه المحافل السياسة الأوروبية. فرأى الملك فيصل أن يستبق الحوادث، ويعود إلى دمشق، عملاً بهذا الاقتراح.

وعاد بنا القطار من الكسوة إلى دمشق. وتوالت الوقائع بعد ذلك بسرعة كبيرة:

جمع الجنرال غوابة – قائد الحملة العسكرية التي احتلت دمشق – رجال الحكومة الجديدة، وقرأ عليهم بياناً طويلاً قال فيه: «إنّ الأمير فيصل جرّ البلاد إلى مسافة إصبعين من الهلاك، وأنّ مسؤوليته عن كلّ ما حدث من الاضطرابات الدموية على مسرح سورية، في الأشهر الأخيرة كبيرة وبديهية إلى درجة لم يعدْ معها من الممكن استمراره في حكم البلاد». وعندما اطلع الملك فيصل على ذلك، احتجّ على هذه التصريحات ببرقية أرسلها إلى الجنرال غورو، قال فيها: «إنني أحتجّ على التصريح الذي أدلى به قائد حملتكم إلى حكومتي نهار أمس. وأنفي عن نفسي كلّ مسؤولية أردتم تحميلي إياها. واعتبر كافة التبليغات أو التعليمات التي سترسلونها إلى حكومتي مباشرة – وعن غير طريقي- لاغية وغير مشروعة أمام عصبة الأمم».

غير أنه لم يمضِ على إرسال هذا الاحتجاج وقت طويل، حتى جاء الكولونيل طولا، وسلّم الملك كتاباً رسمياً باسم الحكومة الفرنسية يدعوه إلى مغادرة البلاد. وهذا نصّ الكتاب:

أتشرّف بإبلاغ سموّكم الملكي قرار الحكومة الجمهورية الفرنسية: إنها ترجو منكم أن تغادروا دمشق بأسرع ما يستطاع، بسكة حديد الحجاز مع عائلتكم وحاشيتكم وسيكون تحت تصرّف سموكم والذين معكم قطار خاص يتحرّك من محطة الحجاز غداً 28 تموز الساعة الخامسة صباحاً.

ردّ الملك فيصل على هذا التبليغ باحتجاج شديد قال فيه: «إنني لا أعترف للحكومة الفرنسية بأيّ حقّ في نزع السلطة التي منحني إياها مؤتمر الصلح رسمياً لإدارة المنطقة الشرقية، ولا في نزع اللقب الذي لقّبني به الشعب السوري». كما أنّه صرّح فيه: «أنّ دخول الجيوش الفرنسية إلى دمشق، خرق لمقررات مؤتمر السلام، ومخالف لمبادئ جمعية الأمم ومناف للأخلاق الدولية». وقد أرسل صوراً عن هذا الاحتجاج المطوّل إلى جميع الدول. ومع هذا كان لا بدّ له من الإذعان لحكم البلاغ، ومغادرة دمشق فعلاً.

ذهبتُ إلى محطة الحجاز، وركبتُ القطار مرة أخرى. وكنتُ في هذه المرة مع الملك فيصل، من غير زملاء لأنّ بعض زملائي السابقين كانوا قد دخلوا الوزارة الجديدة، وبعضهم رجّحوا البقاء في دمشق، ما عدا الشهبندر الذي التحق بنا فيما بعد[15]. حدث ذلك في أواخر الليل. غيرَ أنّ السماء كانت حمراء ملتهبة، بسبب الحريق الكبير الذي نشبت نيرانه في المدينة. تحرّك بنا القطار من المحطة، واجتاز الغوطة، ثمّ مرّ بالكسوة، وخربة الغزالة وانتهى بنا إلى درعا.

15- عبد الرحمن الشهبندر (1879-1940)، زعيم سوري وطبيب، تسلّم وزارة الخارجية في نهاية العهد الفيصلي وقاد الحركة الوطنية في سورية من سنة 1920 وحتى مقتله على يد الاستخبارات الفرنسية سنة 1940.

بقينا في درعا حتى صباح اليوم الأول من شهر آب. واتخذنا القطار مقراً لنا، نجلس ونأكل وننام فيه، كما فعلنا في الكسوة من قبل. غير أننا نصبنا خيمة بالقرب من القطار، ليستقبل الملك فيها شيوخ العشائر ويتذاكر معهم شتّى شؤون البلاد. كانت درعا بمثابة مفترق الطرق، من الوجهتين المادية والمعنوية: فقد كان يلتقي فيها ثلاثة خطوط حديدية، أولها يأتي من الشمال ويربطها بدمشق، والثاني يتجه نحو الغرب ويربطها بحيفا، والثالث يتجه نحو الجنوب ويربطها بعمّان. وكنّا وصلنا إلى درعا من طريق الشمال؛ فكان على الملك فيصل أن يختار أحد الطريقين الآخرين: طريق الغرب أو طريق الجنوب. وكان الاختيار بين هذين الطريقين، يعني – في الحقيقة – الاختيار بين خطتين وسياستين. لأنّ السفر إلى حيفا كان يعني خروج الملك فيصل من البلاد التي كان يحكمها، ويحتّم عليه – في الأخير – التباعد عن سورية بأجمعها. ولكنه مقابل ذلك كان يوصله إلى أوروبا. ويفتح أمامه مجال الاتصال بكبار ساستها، ويتيحُ له الدفاع عن حقوق البلاد أمام مؤتمر الصلح وجمعية الأمم وصحافة العالم.

وأما السفر إلى عمّان، فكان يؤدي به إلى القسم الجنوبي من البلاد التي بايعته، ويبقيه متصلاً مع سورية من جهة، ومع الحجاز من جهة أخرى؛ ولكنه – مقابل ذلك – كان يبعده عن أوروبا، ويُعرقل اتصاله بمؤتمر الصلح وجمعية الأمم. وخلاصة القول: إنّ الأول كان بمثابة طريق العمل السياسي والكفاح السلمي، وأما الطريق الثاني فكان بمثابة طريق النشاط الثوروي والكفاح العنيف. وكان لكل من هاتين الخطّتين محاذير ومحسنات، ومعارضون ودُعاة؛ وبقي الملك فيصل متردّداً حائراً بينهما مدة غير قصيرة. وكان هناك من العوامل ما يزيده حيرة، ويضطره إلى تأجيل القرار: فقد خرج من دمشق، وليس لديه شيء يذكر من المال. فكان عليه لذلك أن يطلب من والده الملك حسين ما يحتاج إليه من مال، وأن يعرف ما يستقرّ عليه رأي والده في هذه القضايا من جهة، وما سيكون موقف الإنكليز تجاه الحوادث الأخيرة من جهة أخرى.

ولكنّ الفرنسيين لم يمهلوا الملك فيصل في درعا طويلاً. فقد تخوّفوا من حركات عشائر حوران. وأوعزوا إلى علاء الدين الدروبي بكتابة برقية مستعجلة

لتبليغه ضرورة السفر إلى الحجاز: فقد وردت في اليوم التالي لوصولنا – أي في 29 تموز سنة 1920 – برقية هذا نصّها:

مستعجل لا يجوز تأخيره ولا دقيقة:

إلى متصرّف حوران

اعرضوا على جلالة الملك برقيتنا المحرّرة أدناه وجاوبونا.

إلى جلالة الملك في درعا: إنّ السلطة الفرنسية أفادتنا أن يوضع قطار تحت أمر جلالتكم للسفر إلى الحجاز على الطريق الذي تختارونه من طريقي معان وحيفا، بدون توقف في درعا. فاسترحم من جلالتكم حفظاً لبلاد حوران من المصائب والخراب تعجيل حركة جلالتكم مولاي.

29 تموز سنة 1920

رئيس الوزراء
علاء الدين الدروبي

وفي الوقت نفسه حلّقت طائرة فرنسية فوق درعا ومختلف قرى حوران وألقت منشورات كثيرة على الأهلين، تدعوهم بها إلى إخراج الملك فيصل من البلاد:

من الجنرال قائد القوات الفرنسية إلى أهالي درعا وضواحيها: إنّ الأمير فيصل كان قد تلقّى أمراً بأن يترك دمشق ويسافر رأساً إلى بلاده وقد تعهّد بإطاعة هذا الأمر. أما وقد بلغنا على العكس بما تعهّد به أنه بقي في درعا وشرع في مخادعة الأهالي ليدفعهم إلى أعمال سيئة العواقب ومضرّة بمصالح البلاد التي لم يبقَ له فيها أقلّ علاقة. فقد كتب له أن يتابع سفره بلا تأخير. فنحن الآن ندعو عموم الأهالي أن يكلّفوه بأنفسهم بترك بلادهم حالاً؛ إذ إنّ إقامته بينكم تجعل بلادكم هدفاً للقنابل. والآن نعطيكم مهلة عشر ساعات، ليتوجه الأمير في ختامها إلى بلاده، وإذا مانع في ذلك يجب إرجاع قطاره إلى الشام.

تجاه هذه الأحوال، قرّر الملك المسير نحو حيفا. وطلب من الأمير عادل أرسلان أن يتصل بالسير هربرت صموئيل – الذي كان آنئذ مندوباً سامياً بفلسطين – لتهيئة وسائل للسفر. وفي الوقت نفسه أوعز إلى كبير الأمناء إحسان الجابري بكتابة برقية جوابية إلى علاء الدين الدروبي. وقد أشير في هذه البرقية إلى أنّ «جلالة الملك يقيم في جزء من البلاد التي بايعته»، ومع هذا فقد قرّر مغادرة درعا في أول شهر آب لأنه «يسعى دائماً إلى إسعاد البلاد، ولا يريد أن يتضرّر أحد من أبناء الوطن بسببه».

وقد ردّ علاء الدين الدروبي بتكرار طلب الفرنسيين، وقد قال في برقيته الجوابية ما نصّه:

مستعجل

درعا، رئيس الأمناء الأفخم

ج. أبلغتُ ما ذكرتم من اهتمام جلالته بتهدئة الخواطر إلى السلطة الفرنسية، فأظهروا الشكر على ذلك. وأفادوا إذا تأخر سفر جلالته مع حاشيته عن الوقت الذي عينتموه في برقيتكم، فإن السلطة الفرنسية تكون حرّة في كلّ عمل سيدي.

31 منه

رئيس الوزراء
علاء الدين الدروبي

وأمّا الأمير عادل أرسلان فقد أرسل برقية رقمية توصي بالتريّث، وتسعى إلى توجيه الأنظار نحو الجنوب.

وهذا نصّ البرقية:

رأى هربرت صموئيل تشريف جلالته حيفا عند الحاكم، وقد أعطى الأمر باتخاذ التدابير اللازمة أو إحضار صالون خاص من البلد. وبعد ذلك يمكن تشريفه للقدس لمقابلة هربرت صموئيل. حركتهم كأنهم تخلّصوا من الأزمة.

لذلك أرى عدم التسرّع حتى يأتي جواب جعفر الذي وصل إلى مصر اليوم اعتباراً من عجلون في مأمن من كلّ تجاوز من طرف الفرنسيين. تأملوا الجملة الأخيرة جيداً، والجواب حالاً، منتظر على الماكنة.

إنّ هذه البرقية كانت تُنبئ وتُعلم قضيتين مهمتين:

أولاً: أنّ الإنكليز كانوا يتمنون توجيه الملك فيصل نحو الغرب. ولهذا السبب قابلوا فكرة مجيئه إلى حيفا بارتياح كبير. ووجدوا في ذلك ما يخفّف عنهم شدّة الأزمة.

ثانياً: أنّ القسم الجنوبي من سورية، اعتباراً من عجلون، سيبقى تحت الانتداب البريطاني. وسيكون في مأمن من اعتداءات الفرنسيين. فإذا سافر الملك إلى ما وراء الأردن، يستطيع أن يواصل عمله هناك دون أن يخشى ملاحقة الفرنسيين.

غير أنّ هذه البرقية لم تبدّل شيئاً من اتجاه الملك وقراره. فتمّ السفر إلى حيفا، في اليوم الأول من شهر آب. وهكذا خرج الملك فيصل من حدود المملكة التي كان يحكمها فعلاً منذ مدة تناهز السنتين. وأما بعد ذلك، فقد تضافرت الظروف على تباعد الملك فيصل عن سورية بصورة تدريجية. إنّ هذه الظروف ستوصله إلى العراق، قبل أن يمضي حول كامل على يوم ميسلون، وستجعله هناك ملكاً مختاراً من الشعب، وستفسح أمامه مجالاً واسعاً لإظهار مواهبه، بتأسيس مملكة جديدة، على أسس قويمة، مستفيداً في ذلك من الخبرة والحنكة الإدارية والسياسية التي اكتسبها في سورية وفي أوروبا قبل يوم ميسلون، وبعد يوم ميسلون.

ميسلون في الأرشيف الوطني الفرنسي*

وثائق ميسلون: مقدمة تاريخية

في عام 1916، كانت حرب الخنادق تستعر على امتداد شمال-غرب فرنسا بين قوات الامبراطورية الألمانية من جهة وقوات الجمهورية الفرنسية وحليفتها بريطانيا العظمى من جهة أخرى. في كلّ يوم من هذه الحرب العبثية كان آلاف القتلى يسقطون من الجانبين في هجمات شبه انتحارية ضدّ خطوط العدو المحصّنة. حتى أنّ الأوروبيين، الذين كانوا يعيشون حينها أوج أسطورة تفوّقهم الحضاري على باقي الأعراق والشعوب، لم يتوانوا عن استعمال الغازات السامّة في قتل بعضهم بعضاً. إلا أنّ أنهار الدماء التي كانت تجري على أرض بلادهم لم تثنِ السياسيين الفرنسيين عن طموحاتهم الاستعمارية؛ ففي الوقت الذي كان فيه الألمان يقرعون أبواب باريس، كان الدبلوماسي الفرنسي فرانسوا جورج بيكو يوقّع مع نظيره البريطاني مارك سايكس على اتفاق حول تقاسم المناطق العربية في الامبراطورية العثمانية عقب نهاية الحرب.

تحدّث المؤرّخون العرب والأجانب مطولاً عن اتفاق سايكس - بيكو وما تعرّض له العرب من «خداع» على يد البريطانيين وكيف تقاسمت القوى الإمبريالية المنطقة وقامت بإنشاء حدود مصطنعة بين الشعوب العربية. خضع الاتفاق الفرنسي - البريطاني لعام 1916 لعدّة جولات لاحقة من التفاوض، أصرّت فيها فرنسا على حقوقها «التاريخية» في سورية، وانتهت بحصول الجمهورية الفرنسية على «حقّ الانتداب» على كلّ من سورية

* Ministre des Affairs Etrangers. Direction des Affairs Politiques et Commerciales. Serie E, Carton 313. Syrie, Liban, Cilicie. Dossier General. Vol 30 et Vol 31.

ولبنان في مؤتمر سان ريمو في نيسان عام 1920. ونستعرض بدءاً من هذا التاريخ في هذا الكتاب المراسلات التي تمّت بين رئيس الوزراء ووزير الخارجية الفرنسي ألكسندر ميلران والمفوض السامي للجمهورية الفرنسية في سورية وكيليكيا ولبنان وقائد جيش الشرق الجنرال هنري غورو. تستعرض الوثائق الواردة في هذا القسم من الكتاب، والتي توجد نسخها الأصلية في أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية في ضاحية لا كورنوف في باريس، النقاشات التي دارت بين السياسيين الفرنسيين في باريس وأولئك الموجودين على الأراضي السورية حول أهمية احتلال دمشق وإنهاء حلم الدولة العربية الموحدة والمستقلة، وذلك في سبيل بسط كامل السيطرة الفرنسية على الأراضي التي مُنحت لهم بموجب الاتفاقات المبرمة مع الامبراطورية البريطانية. ومن نافلة القول أنّ ما يرد في هذه الوثائق لا يحتاج كثيراً من التأويل، وأنّ القارئ سيستشفّ منها طريقة التفكير الفرنسية تجاه العرب، إضافة إلى تفاصيل تاريخية مهمّة حول معركة ميسلون وأسبابها ونتائجها المباشرة. إلا أنّه من الضروري استباق عرض هذه الوثائق بتمهيد تاريخي مقتضب لأهمّ الأحداث التي وقعت بين نهاية الحرب العالمية الأولى في شهر تشرين الثاني من عام 1918 وسقوط دمشق في يد الفرنسيين مع نهاية شهر تموز عام 1920.

لم تكد الحرب العالمية الأولى، والتي عُرفت في حينها بالحرب العظمى، تضع أوزارها مخلّفة ملايين القتلى في أوروبا حتى كان مجلس الشيوخ الفرنسي يناقش مشروعاً لإدارة الأراضي السورية بعد بسط السيطرة الفرنسية عليها. قامت مجموعة من المعنيين بالشأن السوري من أعضاء لجنة «آسيا الفرنسية»، والتي مثّلت المصالح السياسية والاقتصادية والعسكرية الفرنسية في المشرق العربي، بإعداد دراسة تمكّن عملاء بريطانيون من الحصول على نسخة منها لا تزال موجودة حتى اليوم في ثنايا الأرشيف الوطني البريطاني في كيو غاردنز، لندن[16]. فضّل المخططون الفرنسيون في حينه فرض الاستعمار المباشر على سورية، إلا أنّ ذلك تعارض مع النقاط الأربع عشرة التي طرحها الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون والتي نصّت إحداها على حقّ تقرير شعوب الامبراطورية العثمانية المندثرة لمصيرها بعد نهاية الحرب. لم يكن مفهوم

16- TNA, FO 608/105, Curzon to Balfour, 30 January 1919.

الانتداب بأبعاده القانونية قد تطوّر بشكل كامل بعد، إذ كان ذلك يتوقّف على نتائج مؤتمر الصلح الذي تقرّر عقده في باريس مطلع عام 1919. إلا أنّ أعضاء اللجنة طرحوا مخطّطاً بديلاً لحكم سورية دون وجود استعمار مباشر مشابه لما كان في المغرب والجزائر وتونس ودول غرب أفريقيا. تصوّر الفرنسيون في حينه تقسيم سورية إلى ثماني دويلات مستقلة إدارياً تخضع لاتحاد فدرالي يتمتّع ببعض الصلاحيات، مع وجود «مفوضية سامية» فرنسية في سورية يكون لها القول النهائي في جميع الأمور السياسية والإدارية والاقتصادية، وبطبيعة الحال الشؤون العسكرية أيضاً.

على الأرض، سعت فرنسا، التي أنهكتها الحرب بشرياً ومادياً، لفرض أمر واقع من خلال تعزيز وجودها العسكري في سورية بشكل تدريجي، حيث قامت بحريتها باحتلال جزيرة أرواد عام 1916 وتحويلها لقاعدة عسكرية، ثم أنزلت قواتها في كلّ من بيروت واللاذقية ولواء اسكندرون وكيليكيا مع حلول خريف عام 1918. ورغم أنّ القوات العربية دخلت اللاذقية وأنطاكيا عقب خروج آخر فلول الجيوش العثمانية في تشرين الأول من عام 1918، إلا أنّ البريطانيين أوعزوا للأمير فيصل بسحب هذه القوات وعدم مقاومة القوة الفرنسية المكلّفة باحتلال هذه المدن، وذلك تنفيذاً للتفاهمات السابقة بين القوتين العُظميين. كانت الكلمة النهائية في المشرق العربي في تلك الفترة للبريطانيين الذين دخلت جيوشهم القدس ودمشق وحلب برفقة القوات العربية بقيادة الأمير فيصل بن الحسين. قام القائد العام لقوات الحلفاء في الشرق الأوسط المارشال البريطاني ألّنبي بتقسيم الأراضي السورية لأربع مناطق تحت اسم «إدارة أراضي العدو المحتلة»: **المنطقة الغربية** والتي امتدّت من لواء اسكندرون إلى صيدا عبر اللاذقية وطرابلس وبيروت، يحتلها الفرنسيون (بشرط رجوعهم للمجلس الحربي الأعلى المشترك مع البريطانيين)، **المنطقة الشرقية**، والتي ضمّت دمشق وحلب وحمص وحماه، تحت إدارة الحكومة العربية (التي تشكّلت في دمشق بعد خروج العثمانيين) مع بقاء القوات العربية بقيادة الأمير فيصل ووجود ضباط ارتباط بريطانيين وفرنسيين، **المنطقة الجنوبية** التي شملت فلسطين وشرق الأردن وكانت تحت الاحتلال البريطاني، **المنطقة الشمالية** في كيليكيا ضمّت أضنة ومرسين يسيطر عليها الفرنسيون (والذين احتلوا عسكرياً أيضاً كلاً من عنتاب ومرعش وأورفا).

في ربيع عام 1919 اندلعت انتفاضة مسلّحة في الساحل السوري سرعان ما تحولت إلى ثورة شعبية في مواجهة الاحتلال الفرنسي بقيادة الشيخ صالح العلي. تصاعدت الهجمات ضدّ القوات الفرنسية في صيف ذلك العام، مما دفع بالجنرال هاملان إلى قصف مناطق القدموس والمرقب وما حولها بالمدفعية والطيران، فيما اتهم غورو الحكومة العربية بمساندة الشيخ صالح بالسلاح والرجال. وتزامناً مع استعار المعارك في الساحل السوري، تمّ انتخاب المؤتمر السوري العام والذي رفض الانتداب الفرنسي على سورية وكسر الدعاية الفرنسية بوجود تمييز ضدّ المسيحيين في سورية مما يحتّم عليها التدخل لحمايتهم، حيث كانت نسبة تمثيل المسيحيين العرب السوريين في المؤتمر تفوق نسبتهم العددية في البلاد. كما ساهم المؤتمر السوري العام بحشد جماهير البلاد دعماً لقضية الاستقلال قبيل وصول لجنة كينغ كراين الأمريكية، والتي كلّفها مؤتمر الصلح بالتحقيق بطموحات أهالي المشرق العربي السياسية. أتت نتائج تقرير اللجنة لتصبّ الزيت على نار الغضب الفرنسي؛ إذ أظهرت رفض معظم سكان سورية لمبدأ الانتداب وخاصّة الانتداب الفرنسي وإصرارهم على قيام دولة عربية مستقلة تضمّ سورية والعراق وفلسطين. ومع حلول الخريف تصاعد الغضب الفرنسي تجاه البريطانيين، حيث اعتبروا أنّ سيطرة فيصل على المنطقة الشرقية تُخلّ باتفاق عام 1916 والذي نصّ على أن تقع المنطقة الممتدّة من البحر المتوسط إلى الموصل تحت السيطرة الفرنسية. وبعد جولات عديدة من التفاوض وافق البريطانيون على سحب قوّاتهم من المنطقة الشرقية مقابل تنازل فرنسا عن مدينة الموصل لصالحهم، متخلّين بذلك عن فيصل. حصل الانسحاب البريطاني في شهر تشرين الأول من عام 1919، وسرعان ما تصاعدت الضغوط والمطالبات الفرنسية للحكومة العربية بأن تخضع المنطقة الشرقية للانتداب الفرنسي بشكل كامل.

في مطلع عام 1920، وخلال زيارته للعاصمة الفرنسية باريس، عقد الأمير فيصل اتفاقاً مع رئيس الوزراء الفرنسي جورج كليمنصو نصَّ على قبول فيصل والحكومة العربية في دمشق بالانتداب الفرنسي على سورية والاعتراف باستقلال لبنان تحت وصاية فرنسية. إلا أنّ المؤتمر السوري العام رفض هذا الاتفاق وسرعان ما سقطت حكومة كليمنصو ليحلّ محلّه ألكسندر ميلران في منصب رئيس الوزراء ووزير الخارجية. وفي الثامن من آذار عام 1920، أعلن المؤتمر السوري العام المنعقد في دمشق قيام

مملكة عربية مستقلة في سورية وبايع الأمير فيصل ملكاً عليها. في الساحل السوري، استمرّت ثورة الشيخ صالح العلي تقضّ مضاجع المحتلين، حيث شهد فصل الربيع تجدّد هجمات المقاومين على المخافر والتجمعات الفرنسية وكان أهمها قلعة المرقب وسراي بانياس، كما هاجمت مجموعات المقاومين بقيادة ابراهيم هنانو القوات الفرنسية في محيط أنطاكية، وشهدت مناطق تلّ كلخ وجبل عامل (أيضاً في المنطقة الغربية) ثورات مسلّحة ضدّ القوات المحتلة. أمّا في المنطقة الشمالية، أي كيليكيا ومحيطها، فقد قامت القوات التركية بقيادة مصطفى كمال أتاتورك بشنّ هجوم كبير على القوات الفرنسية المتواجدة هناك وسيطرت على مرعش وأورفة ومناطق واسعة من ولاية أضنة. أدّت سيطرة الحكومة العربية على القسم الأكبر من الخطّ الحديدي ريّاق – حلب لمنع تدفّق التعزيزات العسكرية الفرنسية المتواجدة في بيروت نحو الشمال لمواجهة الأتراك، مما زاد من غضب باريس تجاه دمشق.

بالرغم من الانتكاسات المتتالية على الأرض، والتي حمل الفرنسيون مسؤوليتها بشكل شبه كامل للحكومة العربية في دمشق، تمكّنت باريس من الحصول على «شرعية دولية» لوجودها في سورية، حيث أقرّ مؤتمر الحلفاء المنتصرين في الحرب العالمية الأولى والمنعقد في مدينة سان ريمو الإيطالية «الانتداب الفرنسي على سورية» في شهر نيسان من عام 1920. في ظل هذا «التفويض القانوني»، بدأ السياسيون والعسكريون الفرنسيون إعادة تقييم موقفهم في سورية وتوصّلوا إلى نتيجة مفادها أنّ دمشق باتت العقبة الأساسية أمام تحقيق طموحاتهم الاستعمارية في المشرق، كما سنرى من خلال الوثائق الواردة في هذا الكتاب.

المراسلات

من رئيس الوزراء، وزير الخارجية ألكسندر ميلران إلى المفوّض السامي للجمهورية الفرنسية في القسطنطينية، 27 أيار 1920، رقم 294:

أتشرّف بأن أرسل لاطّلاعكم نسخة من رسالة وجهتُها إلى وزير الحرب؛ ستطّلع من خلالها على التوجّه الحالي لعملنا في سورية.

النصّ المرفق مع البرقية بعنوان: «مذكرة حول السياسة الفرنسية في سورية – كيليكيا»:

هنالك ثلاثة حلول لمسألة سورية – كيليكيا.

الحلّ الأول:

إرسال اثنتي عشرة كتيبة إلى بيروت واحتلال دمشق وحمص وحماه وحلب. بالتزامن مع ذلك، الانسحاب من مخافرنا المتقدمة في كيليكيا وتنظيم مواقع دفاعية في مرسين وطرسوس وأضنة وعثمانية.

فوائد هذا الحلّ: استعادة هيبتنا عبرعملية ناجحة ورفع علمنا في مركز المناهضة العربية – أي دمشق.

مضارّ هذا الحلّ: لن تظهر مضارّ هذا الحل إلى ما بعد احتلال دمشق.

تتطلّب عملية الاحتلال هذه عدداً من الرجال أكبر مما يتطلّبه رتل نظامي. ويجب الأخذ بالاعتبار أنّ العملية ستتمّ في شهر آب؛ أي في أكثر مواسم السنة حَرّاً. إنّ تعداد قوة الاحتلال الحالي، سبعة وثلاثون ألف رجل، وهي قوة تخسر أربعة

آلاف رجل كلّ شهر بسبب التعب والإصابات والمرض. لذلك، وكيلا تغدو تبعات العملية كارثية، يتحتّم علينا إرسال قوة كبيرة، ربما تصل إلى خمسة وعشرين ألف رجل، للحفاظ على الاحتلال، مع إرسال تعزيزات بمعدّل خمسة آلاف رجل كلّ شهر للحفاظ على الوضع الطبيعي للقوة. تتطلّب التبعات المالية أيضاً تفكيراً جدّياً؛ إذ يتوجّب حتماً مضاعفة كلفة الاحتلال، والتي تتجاوز حالياً خمسمائة مليون فرنك كلّ سنة. كما أنّه من الضرورة بمكان توقّع زيادة كبيرة في تكاليف الإدارة المدنية، والتي يقدر الجنرال غورو قيمتها الحالية بثلاثمائة وثلاثين مليون فرنك.

هل نحن في وضع يسمح لنا بتحمّل التكاليف البشرية والماديّة؟ كيف سيتفاعل الرأي العام والبرلمان مع الزّحف على دمشق والعواقب الحتمية لهذه العملية؟ هل نقدّر بشكل جيد المقاومة التي سيقوم بها السكان العرب الذين يحملون أفكاراً قومية والذين سيتلقون دعماً من القوميين الأتراك الذين بدورهم سيلقون بثقلهم ضدّنا في كيليكيا؟

إذاً بدا أنّ الإنكليز سيعترفون بحقّنا في التصرّف بحرّية في سورية، فهل نحن متأكدون من ماهية النصيحة التي سيقدمونها للأمير فيصل؟

أخيراً، ما هو رأي الأمريكيين، الذين يتهموننا أساساً بممارسة الإمبريالية في الشرق، بهذا الغزو الذي يسعى لفرض انتداب لم تحدّد شروطه بعد؟

الحلّ الثاني:

التخلّي بشكل كامل عن سورية وكيليكيا . الأمر الذي سوف يشعل ثورةً في الرأي العام (في فرنسا) ضدّ هذا الخيار.

الحلّ الثالث:

التخلي عن كيليكيا بشكل تدريجي مع التفاوض على معاهدة سلام تضمن لنا منطقة نفوذ هناك تنحصر بضمان حماية الأقليات.

التفاوض مع القوميين الأتراك.

الاكتفاء باحتلال مدن الساحل السوري: الاسكندرونة، اللاذقية، طرابلس، بيروت، صيدا ولبنان.

إنشاء موقع دفاعي قويّ في رياق من أجل قطع الخطّ الحديدي الواصل بين دمشق وحلب.

في كيليكيا: الإبقاء على احتلالنا لمرسين وطرسوس وأضنة وعثمانية.

التفاوض مع فيصل على تطبيق الانتداب بشكل يتوافق مع كل من ميثاق عصبة الأمم واتفاق كانون الثاني مع الأمير (اتفاق فيصل – كليمنصو). يجب ألّا يتضمن هذا الانتداب احتلالاً عسكرياً لداخل البلاد (أي المنطقة الشرقية) والاكتفاء بإرسال بعض الموظفين الفرنسيين ليكونوا مسؤولين عن توجيه الإدارة المحلية.

فؤاد هذا الحلّ أنه يوفّر المال والرجال، ويلائم بين تضحياتنا وإمكاناتنا بشكل يحافظ على واجباتنا التقليدية ويتماشى مع نصوص المعاهدات.

وعليه، يكون المستقبل (كلمة غير واضحة في الوثيقة الأصلية).

من رئيس الوزراء، وزير الخارجية ألكسندر ميلران إلى المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في سورية ولبنان وكيليكيا الجنرال هنري غورو، 15 حزيران 1920، رمز G41/42:

رغم كلّ ما قدمناه من تنازلات ومحاولات للوصول إلى تفاهم طيلة أشهر، فإنّ الموقف العدائي المستمرّ لفيصل والحكومة الشريفية يوضح استحالة مواصلة هذه السياسة دون استعمال إمكاناتنا العسكرية لتحقيق وضع في سورية يتماشى مع ما منحه نظام الانتداب لفرنسا. كما لا يمكننا أن نؤخّر الانخراط في سياسة تؤدي إلى إيجاد الحلّ العاجل والضروري في سورية ريثما يعقد اتفاق نهائي وشامل مع (مصطفى) كمال لأسباب سبق وشرحتها لكم. علينا أن نحقّق مع ذلك الجانب (الأتراك) وقفاً فعلياً للأعمال العدائية ونضمن حيادهم، رغم ضرورة الحفاظ على بعض الإجراءات الاحتياطية، وذلك لتمكينكم من التصرّف بقسم من الجنود المتواجدين في منطقة حلب – الاسكندرونة، ممّا سيمنحكم حرية حركة أكبر في مواجهة مشكلة الشريف (فيصل).

إنّ الحلول الضرورية في سورية لا يمكن أن تنحصر فقط في منحنا حرية حركة مشروطة لاستعمال الخطّ الحديدي (رياق–حلب) من قبل فيصل. لا يمكننا الاكتفاء بترتيبات مثل أن نحرّك بعض العربات أو أن ننقل المؤن وليس الجنود، مع سيطرة فيصل فعلياً على الخطّ الحديدي وإمكانية إغلاقه في وجهنا في أيّ وقت. الطريقة الوحيدة لتسوية هذه القضية هي احتلالنا للخطّ الحديدي. إنّ الخروقات المتواصلة من قبل فيصل لما كان التزم به تجاهنا يعطينا الحقّ بأن نصبح في حلّ من هذه الترتيبات، حيث لم تعط بنود اتفاق السادس من كانون الثاني (اتفاقَ فيصل – كليمنصو) فيصل الحقّ في إعلان نفسه ملكاً، وتسليح العصابات، وتجهيز جيشٍجيشضدنا، ومطالبتنا بإخلاء المنطقة الغربية (الساحل السوري ولبنان) دون عقد أيّ اتفاقيات.

إنّ ما ورد في كلامي حول الخطّ الحديدي لا يعتبر أمراً للقيام بعمل فوري، بل هو من أجل اتباع سياسة نشطة. لا تقتصر مهمتنا على القضاء على الجماعات

المعادية فحسب؛ إنما يتوجب علينا ضمان وجود فئات ترحّب بنا في المدن وضمن الفئات الاجتماعية الأساسية، حيث يمكننا أن نجند من صفوفهم أشخاصاً يمكنهم تولي السلطة في حال أدت أعمالنا إلى اختفاء السلطات الشريفية. إنني مقتنع بضرورة تحضير هذه الأوساط في سورية بشكل سريع. كما ألفت انتباهك إلى ضرورة أن تكون نتائج احتلالنا للخطّ الحديدي حاسمة، دون الخوض في عدة عمليات جزئية تستمرّ لفترة مطوّلة. إذا تحققت هذه الشروط فسوف ينخفض كثيراً خطر نشوب عداء بيننا وبين غالبية السكان ممّن تمّ تحريضهم ضدّنا لمدة عام ونصف. كما يجب أن تقوم بالعمل العسكري اللازم ضمن الإمكانات المتاحة لك دون الحاجة لتجاوزها.

إنّ عملنا السياسي والأثر النفسي لقوتنا العسكرية المتعاظمة سيدفع بالسكان إلى طلب تواجدنا لمنع اندلاع الفوضى ورغبة في الخلاص من التجنيد الإجباري غير المبرّر (في الجيش العربي). نتمنى أن تُحلّ مشكلة دمشق، التي لا يمكن تفاديها، عبر عمل عسكري محدود، وذلك من أجل إقامة نظام مستقرّ في سورية بما يتماشى مع مسؤوليتنا كقوة منتدبة وبما يمكّننا من مواجهة الصعوبات بشكل تدريجي.

ميلران

من المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في سورية ولبنان وكيليكيا الجنرال هنري غورو إلى رئيس الوزراء، وزير الخارجية ألكسندر ميلران، 29 حزيران 1920، رقم 1327:

دفع تصريح الأمير فيصل بخصوص قدوم لجنة برلمانية (فرنسية) إلى دمشق المعارضة (لفرنسا) في المدينة إلى تفسير الخبر بأنّ الحكومة الفرنسية اتخذت هذا الإجراء نتيجة وجود آراء في فرنسا تشكّك في إمكانية الاستمرار في احتلال سورية. وقد نُشر مقال مهمّ في إحدى الصحف الدمشقية المعارضة حول الموضوع، ويبدو أنّ الرأي العام يرى في هذه الزيارة تكراراً لتجربة اللجنة الأمريكية (لجنة كينغ- كراين) التي أثارت العديد من الأصوات في البلاد، والتي حيك حولها الكثير من المؤامرات. يُذكّر الوضع الحالي بالمظاهرات التي تبعت مقال السيد مارسيل كاشين، الذي راسله العديد من الدمشقيين، والذي حُملت نسخة عن مقالته في التظاهرات في شوارع دمشق. كما علّقت الصحافة الدمشقية على معلومات وردت في جريدة «راديكال» (الفرنسية) حول تفكير الحكومة الفرنسية بعمل عسكري ضدّ دمشق.

غورو

من المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في سورية ولبنان وكيليكيا الجنرال هنري غورو إلى رئيس الوزراء، وزير الخارجية ألكسندر ميلران، 9 تموز 1920، رقم 1378 إلى 1386:

1) إنّ الإنزال الأخير في بيروت للواء السنغالي وفوج الصباحيين (الخيالة) المغاربة لم يمر دون أن تلحظه دمشق، رغم حرصي على تقديم هذه القوات على أنها تعزيزات ضرورية للدفاع عن منطقتنا (المنطقة الغربية) بشكل أكثر فعالية ضدّ الهجمات التي تستهدفها والمستمرة منذ ستة أشهر.

2) أرسل الأمير فيصل إليّ نوري باشا السعيد الذي أصرّ أن يحصل على بيان يؤكّد اعترافنا باستقلال سورية وبواقع وجود الحكومة العربية في دمشق والحكم الملكي للأمير فيصل. وأراد أن يكون البيان مرضياً أكثر ممّا صدر عني وعن الإدارة (المفوضية السامية) في وقت سابق. كما قدم طلباً لمنحة (مالية) جديدة. لقد أدّت الظروف بالأمير فيصل أخيراً إلى سياسة تفاهم معنا. كان جوابي لنوري باشا السعيد أنه بات معروفاً أنّ الحكومة الفرنسية لن تعدّل البيان الذي صدر عنها سابقاً ولن تقدّم مساعدات مالية جديدة للحكومة الشريفية طالما أنّ الأخيرة لم تغير من أسلوبها. كما قدّم لي الجنرال نوري رسالة من الأمير فيصل يخبرني فيها أنّ برقية وردته من رستم حيدر تحذّره من أنّ الحكومة الفرنسية ستهاجم المنطقة الشرقية وطلب مني تطمينات بهذا الخصوص. قمت بإعطائه جواباً فيه مماطلة توفيراً للوقت.

3) ما كاد أن يعود نوري السعيد إلى دمشق حتى أرسل لي الأمير فيصل الكولونيل طلعت عارضاً عليّ التزاماً متبادلاً بالامتناع عن القيام بهجوم عسكري وسياسي من المنطقتين (الشرقية والغربية). حتى أن الأمير فيصل سمّى المعاهدة المقترحة بالهدنة (armistice). كما تعهّد فيصل بالسفر إلى فرنسا بأقرب وقت (لتوقيع الاتفاق) إذا وافقت عليه. وعلى الفور أجبتُ على هذه الرسالة الشفهية إذ لم يكن لديّ متسع من الوقت لأستمزج رأي سعادتكم على هذا الطرح المفاجئ من الأمير. وأجبته أنه لم يعد هنالك متسع من الوقت لدى

الأمير لحضور مؤتمر سبا (الذي يضمّ ممثلي قوى الحلفاء فرنسا وبريطانيا وإيطاليا والولايات المتحدة) إذ إنّ جدول أعماله مزدحم أساساً، ولا يمكن للأمير، الذي رفض لشهرين دعوة الحلفاء، أن يتوقع جواباً فورياً على طرحه من قبل الحكومة الفرنسية التي لديها مشاغل أخرى غير سورية. لقد حاولت في هذه الحوارات شراء الوقت وتهديد فيصل دون أن أحّدد له طبيعة هذا التهديد.

4) لن أستطيع أن أحرّك الرتل المؤلف من تسعة كتائب والذي أنوي أن أحتلّ به رياق وأهدّد دمشق قبل العشرين من شهر تموز. كما أنوي إرسال قوة من نفس الحجم لاحتلال حلب. إنّ سبب هذا التأجيل هو تأخر وصول أحصنة ومعدات اللواء السنغالي التي لم تُنزل بعد إلى الميناء.

5) وصلتني هذه الليلة برقية من الأمير فيصل لمعاليكم يعلن فيها أنه سيخاطب حكومات قوات الحلفاء بما يلي: «رداً على دعوة الحلفاء لي للقدوم إلى أوروبا، ورغم أنّ طلبي من الحكومة الفرنسية الاعتراف باستقلال بلادي قوبل بالرفض، فإنه لمن دواعي سروري أن أعلمكم قراري مغادرة دمشق بأسرع وقت لحضور جلسة مؤتمر الصلح حول تركيا». من الواضح أنّ هذه البرقية جاءت ردّاً على جوابي على الرسالة الشفهية التي حملها الكولونيل طلعت بأن الحكومة الفرنسية قد تكون مشغولة في الوقت الحالي. من جهة أُخرى، أشارت الحكومة البريطانية بشكل رسمي أنه وبسبب العلاقات الودّية والقديمة بين المارشال ألنبي (القائد الأعلى لقوات الحلفاء في الشرق الأوسط ومقرّه القاهرة) والأمير فيصل، فإنها ستسمح للأول بتولّى التواصل مع دمشق (من قبل الحلفاء). إنّ استمرار هذه العلاقات بين المارشال ألنبي والأمير فيصل، وأسلوب الأمير فيصل في خطابه إلى الحلفاء، وأن يكون الإنكليز هم الوحيدون المعنيون بالتواصل معه، يولّد لديّ خوفاً بأن إنكلترا لم تتخلَّ عن سياستها في سورية، وما تزال مستعدة لدعم الأمير فيصل كما فعلت في الماضي. أطلب اهتمام معاليكم البالغ بهذه النقطة.

6) كما أرغبُ بتذكير حضرتكم بالشرطين الأساسيين للتمهيد لعمل فعّال في الحرب مع الأمير فيصل. الأول هو هدنة دائمة في الشمال والتي لم تتحقق بعد.

رغم ذلك، أعتقد أنّ ما لديّ من قوات، والهجوم اليوناني (على القوات التركية) وما نتج عنه، يمكّنني من أخذ مخاطرة الهجوم على حلب دون تأخير. الشرط الثاني هو أن تتدخّل الحكومة الفرنسية بشكل فعّال مع الإنكليز حتى يمتنعوا عن التدخل بيننا وبين فيصل. لقد أبلغني الكولونيل كوس (ضابط الارتباط الفرنسي في دمشق) معلومات عن مراسلات بين المارشال ألنبي والأمير فيصل تثبت، إضافةً إلى البرقية التي أرسلها فيصل إلى الحلفاء، أنّ هذا التدخل (من قبل الحكومة الفرنسية مع الإنكليز) عشية عملياتنا العسكرية أصبح ضروريا أكثر من أيّ وقت سابق.

7) بما أنني حدّدت تاريخ العشرين من تموز لبداية المرحلة الفعّالة من تدخلنا، فمن الضروري ألا تردوا معاليكم على رسالة الأمير فيصل على الفور. من المناسب لحضرتكم أن تردوا بحدود الخامس عشر من تموز عبر إرسال برقية متأخرة تشرح بأنّ الحكومة (الفرنسية) ستأخذ بعين الاعتبار احتمال دعوته إلى الجلسة القادمة من مؤتمر الصلح، وأنه هو وحده (أي فيصل) المسؤول عن التأخير لأنه انتظر مطولاً كي يجيب على دعوة أُرسلت قبل أشهر وجُددت في الوقت المناسب.

8) سأبذل جهدي لإبقاء الأمير في سورية. كما أفضل، ريثما يتمّ حلّ الموقف، ألّا يغادر السيد روبير دو كيه (معاون غورو السياسي) باريس دون الرجوع إليّ. أطلب من معاليكم إبلاغه بذلك.

غورو

من المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في سورية ولبنان وكيليكيا الجنرال هنري غورو إلى رئيس الوزراء، وزير الخارجية ألكسندر ميلران، 10 تموز 1920، رقم 1391 إلى 1395:

كنت قد لفتّ انتباه معاليكم في برقيتي المرقمة من 1379 إلى 1386 إلى نيّة الإنكليز التدخّل بيننا وبين الأمير فيصل. لقد أرسل الكولونيل كوس برقية لي تؤكد هذا الأمر؛ حيث أخبرني أنّ القنصل الإيطالي في دمشق، المركيز بوتيرنو، الذي أخذ دور المستشار الدبلوماسي للأمير فيصل، يشجّعه على ذلك (حضور جلسة مؤتمر الصلح). إضافة إلى ذلك، فقد طلب الأمير من ضابط الارتباط الإنكليزي أن يؤمّن مروره عبر مصر إذا لم تتوفّر سفينة تنقله من بيروت. يدّعي الأمير فيصل بما أنه عضو في مؤتمر الصلح بأنه لا يحتاج أن تخضع مغادرته لموافقة الحكومة الفرنسية.

ليس لديّ معطيات حول الردّ الإنكليزي بخصوص تنقلات الأمير، إلا أنّ هناك أسباباً تدفع للاعتقاد بأنّ الأمير فيصل لم يقدّم هذا الطلب دون بعض التشجيع (من طرف الإنكليز). هذا الأمر يطرح مجدداً تساؤلات حول الموقف الإنكليزي تجاهنا في سورية وتدخلهم المستمرّ في شؤوننا عبر دعم الأمير فيصل ضدّنا.

وعليه، إذا تمكّنت الحكومة (الفرنسية) من اتخاذ موقف في الوقت الحالي، فإنّ ذلك سيبرهن للإنكليز أنّ تسهيل مرور الأمير فيصل ضدّ إرادتنا من بلد عُهد بانتدابه إلينا، وإجبارنا على قبول وجوده في المؤتمر ليتحدث في الشأن السوري رغم تبنيه موقفاً عدائياً ضدّ فرنسا سيعتبر عملاً غير ودّي. إنّ الخيار الأضمن هو منع الأمير فيصل من المغادرة وذلك عبر الحصول على تعهّد من الإنكليز بعدم تسهيل الرحلة، التي يشجع عليها من جهة أُخرى حلفاؤنا الإيطاليون.

بالنسبة لي، فإنني أعتمد على الوسائل المتاحة محلياً. أولاً، أعلمته (أي فيصل) أنني أعتبر عدم ردّه على دعوة الحكومة الفرنسية لشهرين ثمّ المغادرة فجأة دون

إخطارها أمراً مرفوضاً. أضفتُ أننا سنؤمّن له السفينة في الوقت المطلوب، لكنّ ذلك لا يعني أنني سأسمح للأمير فيصل بالمغادرة دون أن يقدّم لنا تعهدات مُرضية أقوم أنا بتحديدها في الوقت المناسب. ثانياً، سوف أبادر إلى احتلال نقاط استراتيجية في سهل البقاع، والتي سيسهل استيلاءنا عليها تموضعُ رتلنا في هذا السهل عندما يحين وقت استخدامه. إنّ إرسال الأمير فيصل لقوات نظامية إلى مجدل عنجر الواقعة في البقاع يعطينا فرصة للقيام بهذا التحرّك. فبحسب شروط الاتفاق الذي توصّل إليه مع السيد كليمنصو، لا يحقّ للأمير أن ينشر قوات الجندرما (الشرطة) سوى في السهل مع انسحاب قواته النظامية وقواتنا منه بشكل متزامن. إذا أدّى هذا التحرك إلى صدامات عسكرية، فإنّ موقف حكومتنا بمواجهة إنكلترا سيصبح أكثر قوّة لأنه سيؤكد للأخيرة بأنّ فيصل عدوّ يشنّ عمليات ضدنا.

إنّ وتيرة إنزال التعزيزات العسكرية (في بيروت) تستمرّ في منعي من إرسال الإنذار المقترح إلى فيصل قبل العشرين من تموز. من الأفضل إطلاق العملية قبل سفر الأمير فيصل، لذلك سأبذل قصارى جهدي لمنعه، ولكن على الحكومة (الفرنسية) الطلب من الحلفاء عدم حثّه على المغادرة وعدم إعطائه السبل لذلك وعدم الترحيب بهذا العدوّ على أنه صديق في مؤتمر الصلح.

غورو

من المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في سورية ولبنان وكيليكيا الجنرال هنري غورو إلى رئيس الوزراء، وزير الخارجية ألكسندر ميلران، 12 تموز 1920، رقم 1403 إلى 1406:

رفعتُ سابقاً تقريراً لمعاليكم عن الجهود الدعائية (البروباغندا) الحثيثة التي تقوم بها حكومة دمشق لتخريب مشاعر الارتباط بين لبنان وفرنسا. لقد تبلورت هذه الجهود في خطوة خطيرة تمكنّا من كشفها في الوقت المناسب بفضل أحد المخبرين. في مساء العاشر من تموز تمكنتُ، عبر المخفر السنغالي في عين صوفر، من إيقاف ثمانية أعضاء من الاثني عشر عضواً في مجلس لبنان الإداري، حيث كانوا ذاهبين سرّاً إلى دمشق لإعلان الولاء للأمير فيصل، إذ إنه مستعدّ للاعتراف بلبنان الكبير مقابل رفض الانتداب الفرنسي عليه. كان أعضاء المجلس الإداري سيذهبون بعدها إلى حيفا ومنها إلى أوروبا لتقديم طلب إلى مؤتمر الصلح، بعد إعفائهم للمطران خوري من مهمته هناك، بالاعتراف بلبنان الكبير ضمن سورية تحت الحكم الملكي للأمير فيصل. يبدو أن هذا الانقلاب تمّ تحضيره من قبل ضابط الارتباط الشريفي في بيروت، دون وجود دليل قاطع على ذلك. لكن من المؤكّد أنّ أعضاء المجلس الإداري وُعدوا بأربعين ألف جنيه مصري تمّ دفع ألف وخمسمائة منها مقدماً.

إن التحقيق متواصل وقد تمّ الحصول على اعترافات مهمّة. قمتُ باعتقال أعضاء المجلس الإداري بعد عودتهم إلى بيروت (من عين صوفر). وبحسب الظروف، سيتمّ الحكم عليهم إمّا إدارياً أو عن طريق مجلس الحرب (المجلس الفرنسي البريطاني المشترك في مناطق الانتداب). قمتُ بإعلان حلّ مجلس لبنان الإداري، الذي فقد مصداقيته منذ وقت طويل، فنظامه يعود للحقبة العثمانية. سوف يتمّ تعيين لجنة مؤقتة لتحلّ محلّ المجلس ريثما يتمّ انتخاب بديل عنه.

سوف أغتنم فرصة الحادثة لتبيان أساليب حكومة دمشق الفاسدة وضمان وصول شهادات حول الواقعة إلى جميع سكان لبنان الذين سيدفعهم تعاطفهم معنا وولاؤهم لنا إلى رفضها بشدة. وأعتقد أنه من المناسب عرض الحادثة في الصحافة المحلية (...).

غورو

من رئيس الوزراء، وزير الخارجية ألكسندر ميلران (المتواجد في مدينة سبا لحضور مؤتمر الصلح) إلى دائرة الشؤون السياسة والتجارية في وزارة الخارجية الفرنسية (باريس)، 13 تموز 1920 (الساعة الخامسة مساءً)، رقم 19 إلى 21:

أخبرني اللورد كرزون (وزير خارجية بريطانيا) أنّ الأمير فيصل خاطبه عبر المارشال ألنبي ليبلغ الحكومة الإنكليزية أنه جاهز للمغادرة فوراً لحضور جلسة مؤتمر الصلح، كما طلب مساعدات مالية، وعاد ليتمنى الحصول على ضمانات من الحكومتين الفرنسية والإنكليزية لجهة استمرار الوضع في سورية وعدم تغييره في غيابه. أضاف اللورد كرزون أنّ فيصل تمت دعوته من قبل مؤتمر سان ريمو (الذي انعقد في نيسان من العام نفسه) وأنه في حال وجدت الحكومة الفرنسية صعوبة في تأمين سفينة لنقل الأمير، ستقوم سفينة إنكليزية بالتكفل بالأمر.

كان ردّي على اللورد كرزون أن فرنسا حصلت على الانتداب على سورية وبالتالي تعتبر أنه من حقها وحدها تقرير شكل الردّ على فيصل وما إذا كان الاتفاق معه ممكناً أو لا. وأنّ موقف الأمير يخالف نصّ اتفاق السادس من كانون الثاني، وأنّ عدوانيّته وفظاظته وتواطؤه مع القوميين الأتراك (مصطفى كمال) ورفضه لاستعمالنا الخطّ الحديدي وإعلانه قيام مملكة سورية وادعاءه السيادة عليها يستوجب تحقيق تغييرعميق في مشاعره وفي حاشيته حتى نتمكن من متابعة المشاريع المتفق عليها. بالنسبة لدعوته لمؤتمر سان ريمو، فقد سقط (من حديث كرزون) سهواً واقعة أنه رفض القدوم إلى سبا. إنّ الملك حسين (ملك الحجاز) لم يعد يعترف به (أي فيصل) لا مندوباً لمملكة الحجاز ولا ممثلاً له في سورية. وبالنظر إلى هذه الظروف، فإنّ الحكومة الفرنسية، التي تعطي إنكلترا كامل الحرية لتنظيم انتدابها على فلسطين وبلاد ما بين النهرين كما ترتئي، تطالب أن تحصل على نفس الحرية في سورية، وألّا يتمكن فيصل من الاستمرار في الاعتماد على إنكلترا ضدّها. إنّ الردّ (الإنكليزي) الواجب توجيهه لفيصل هو أنّ فرنسا هي القوة المنتدبة على سورية وبالتالي لها وحدها حق مخاطبته.

لقد قمت بإيصال الفكرة بشكل كامل واستمع لي اللورد كرزون بصمت وقال إنه سيتحدّث مع السيد لويد جورج (رئيس وزراء بريطانيا) حول الموضوع. إلا أنّ السيد فانسيتارت (دبلوماسي بريطاني) أوصل صباح اليوم وبشكل غير رسمي إلى السيد بيرتولت (جنرال فرنسي وعضو مجلس الحرب الأعلى) نصّ برقية تمّ إرسالها إلى المارشال أللينبي (من قبل الخارجية البريطانية على الأغلب):

«إنّ مؤتمر سبا على وشك الانتهاء ولن يستطيع فيصل بكلّ حال الوصول في الوقت المناسب، حتى ولو لم يكنْ في الواقع قد تجاهل الدعوة للقدوم إلى أوروبا التي أُرسلت إليه قبل ستة أشهر وتكررت في مؤتمر سان ريمو. إضافة إلى ذلك، فقد تمّ منح فرنسا بالأمس الانتداب على سورية في سان ريمو، ويجب توجيه طلب فيصل إلى الحكومة الفرنسية وليس لنا. هكذا يجب أن يكون جوابك له».

ميلران

من رئيس الوزراء، وزير الخارجية ألكسندر ميلران (المتواجد في مدينة سبا لحضور جلسة مؤتمر الصلح) إلى دائرة الشؤون السياسة والتجارية في وزارة الخارجية الفرنسية.

باريس: 13 تموز 1920: الساعة السابعة وخمسٌ وأربعون دقيقة مساءً، رقم 22:

تُظهر البرقية السابقة (المرسلة إلى ألنبي من قبل السلطات البريطانية) أن إنكلترا قرّرت أن تتفهّم الموقف وتمتنع عن التدخل بيننا وبين فيصل. عليكم إبلاغ السيد روبير دو كيه في بارس (معاون غورو) وإرسال البرقية السابقة إلى الجنرال غورو وإلى لندن (السفارة الفرنسية في لندن).

ميلران

من روبير دو كيه (باريس) إلى المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في سورية ولبنان وكيليكيا الجنرال هنري غورو: 13 تموز 1920، رقم 703:

اطلعت على برقيتك المرقمة من 1378 إلى 1386. رغم أنني أرغب في العودة إلى سورية، لكن بالنظر للأحداث الأخيرة، فإنّه من الضروري أن أتابع العمل السياسي هنا لتغطيتها. لذلك من المفهوم أن أؤجل المغادرة وسأحدد موعدها بالاتفاق معك فقط.

دو كيه

من المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في سورية ولبنان وكيليكيا الجنرال هنري غورو إلى رئيس الوزراء، وزير الخارجية ألكسندر ميلران: 14 تموز 1920، رقم 1413 إلى 1414:

كما أشرتُ لحضرتكم في برقيتي المرقمة من 1391 إلى 1395، قمتُ باحتلال رياق و(كلمة غير واضحة) صباح الثاني عشر من الشهر ردّاً على تحرّكات الأمير فيصل في مجدل عنجر في البقاع. لم تحصل أيّة حوادث، لكنّ الأمير فيصل احتجّ لديّ على الاحتلال الذي اعتبره غير شرعي. وبسبب هذا التحرك، والذي اعتُبر اعتداءً من قبلنا، ظهرت حالة من الامتعاض المصطنع في الدوائر السياسية والحكومية في دمشق. خاطب الأمير فيصل الممثلين الأجانب باستثناء الممثل الفرنسي للاحتجاج على العقبات التي تقف في طريق سفره إلى أوروبا، والتي يتهمني بوضعها. إنّ في هذا استمراراً للّعبة التي ما زال يلعبها ضدّنا، بينما يواصل الاعتماد على قوى أوروبية، خاصة إنكلترا. إنّ دور الممثلَين البريطاني والإيطالي في دمشق يبدو حاسماً في القرار الذي اتخذه الأمير فيصل بمغادرة سورية دون موافقتنا ومساعدتنا. إنّ سكان دمشق، الذين يخشون صراعاً مسلحاً، يعتمدون على إنكلترا لمنعنا من الدخول.

غورو

من المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في سورية ولبنان وكيليكيا الجنرال هنري غورو إلى رئيس الوزراء، وزير الخارجية ألكسندر ميلران: 14 تموز 1920، رقم 1415 إلى 1416:

لقد منحتنا التحضيرات العسكرية التي قمنا بها متسعاً كافياً من الوقت لمواجهة جهود الأمير في دمشق لمغادرة المدينة (إلى أوروبا)، الأمر الذي ينصحه به مستشاروه الإنكليز والإيطاليون، عبر طريق يؤمّنه البريطانيون. حسمتُ قراري بأن أقدّم للأمير فيصل اليوم، أي الرابع عشر من تموز، مذكرة تتضمّن بياناً يسرد المظالم التي تعرّضنا لها وشروطنا. سوف أُرفق مع الحقيبة الدبلوماسية نص الإنذار لمعاليكم.

أشرتُ في المذكرة إلى تعليمات وزارة الخارجية التي تمّ إعلامي بها في اليوم الذي تلى اتفاق السادس من كانون الثاني (اتفاق فيصل – كليمنصو)، الذي تعهّد الأمير فيصل بموجبه إظهار الولاء لنا والقدرة على إدارة سورية. كما تضمّنت المذكرة دلائل على كلّ الأفعال التي تستحق اللوم والتي قامت بها حكومة دمشق، حيث تضمنت الاتهامات التالية: العداء الموصوف ضدّ قوة الاحتلال التابعة لنا (هكذا وردت التسمية في الوثيقة بشكل حرفيّ notre corps d'occupation)، السياسة العدوانية، الإجراءات الإدارية الموجّه ضدّ فرنسا، أعمال عدائية موصوفة، انتهاك القانون الدولي، والتسبب بأضرار لفرنسا وسورية.

الشروط التي نصّت عليها المذكرة:

1) السيطرة الكاملة على الخطّ الحديدي رياق – حلب عبر ضمان تحكمنا بالحركة عليه وحراسة محطات رياق وبعلبك وحمص وحماه وحلب واحتلال هذه المدن.

٢) إلغاء التجنيد الإجباري وإعادة تعداد الجيش الشريفي إلى ما كان عليه في الواحد من كانون الأول (1919).

3) القبول بالانتداب الفرنسي، الأمر الذي يستدعي تطبيقه التعاون معنا.

4) القبول بالعملة السورية (العملة الورقية التي أصدرتها فرنسا في المنطقة الغربية).

5) معاقبة المسؤولين الأكثر خطورة الذين ارتكبوا أعمالاً عدائية ضدّنا.

يجب القبول بهذه الشروط قبل الثامن عشر من تموز الساعة 24، وفي حال عدم الالتزام سوف تستأنف الحكومة الفرنسية حريّة العمل وسوف أكون مضطراً للجوء إلى القوة لفرضها.

غورو

من غايلار (دبلوماسي فرنسي في القاهرة) إلى دائرة الشؤون السياسة والتجارية في وزارة الخارجية الفرنسية، 15 تموز 1920، رقم 135:

في اللحظة التي وصلتني بها برقيتكم المرقمة من 138 إلى 141، علمت من مصدر جدّي أنّ الأمير فيصل أبرق إلى المارشال ألنبي ليعلمه بإنزال قوات ومعدات فرنسية في الاسكندرونة (لواء اسكندرون). يستعدّ الفرنسيون، بحسب فيصل، للزحف على حلب والسيطرة على المنطقة الشرقية وفرض إدارتهم والعملة السورية (العملة الورقية التي طبعتها فرنسا) هناك. ختم الأمير فيصل بالطلب من المارشال ألنبي بأن يطلب من حكومته التدخّل لمنع زحف قواتنا.

حسبما فهمت، فإن الأمير فيصل لن يحصل على أيّ تشجيع من المفوضية السامية البريطانية (في مصر، حيث يوجد في القاهرة مقرّ قيادة قوات الحلفاء في الشرق الأوسط).

إرسال نسخة إلى بيروت.

غايلار

من بالالوغ (دبلوماسي فرنسي في وزارة الخارجية في باريس) إلى المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في سورية ولبنان وكيليكيا الجنرال هنري غورو، 15 تموز 1920، رقم 170 إلى 171:

استقبلتُ في الثاني عشر من تموز السيدين حيدر وشُكر الموفَدَين من الأمير فيصل. وقد أصرّا على أنّ الأمير فوّضهم بالسفر إلى باريس بشكل عاجل بغية إيضاح سوء الفهم الذي حصل بينه وبين حكومة الجمهورية (الفرنسية). أجبتهما أنّ على الأمير مخاطبتك (أي غورو) لأنك مؤتمن على كلّ أفكار وتعليمات الحكومة الفرنسية. كما أعلنتُ لهما أنّ: «حكومة الجمهورية عازمة على التصرّف ضمن الصيغة الموسّعة والأكثر حرية للانتداب الموكل إليها على سورية وما تزال مستعدّة للتعاون مع الأمير في هذا العمل السياسي العظيم، لكنها ليست أقلّ عزماً لجهة عدم السماح بأن توقفها المكائد التي شلّت عملها مطولاً. فأنتما سوف تخدمان القضية السورية إذا أفهمتما الأمير، لكن إن استمرّ في مناوراته الحالية، فليس له أن يتطلّع إلى تحقيق أيّ مكاسب بعد الآن».

سوف ألتقي بموفَدَي الأمير مجدداً يوم الخميس، وسوف أعلمهما بالتعليمات التي أرسلتها الحكومة البريطانية للمارشال ألنبي والتي سأرسل نصها إليك. يجب أن توضح هذه التعليمات للأمير أنّ عليه ألا يعتمد على أي تدخل للحكومة البريطانية بينه وبيننا.

بالالوغ

من رئيس الوزراء، وزير الخارجية ألكسندر ميلران إلى المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في سورية ولبنان وكيليكيا الجنرال هنري غورو، 15 تموز 1920، رقم 713 إلى 714:

استقبلتُ صباح اليوم السيدين حيدر وشُكر، وقرأتُ على مسامعهما جواب اللورد كرزون إلى المارشال ألنبي وعلّقت عليه.

طلبت منهما العمل على إفهام الأمير فيصل الوضع الذي يجد نفسه فيه والذي يستوجب عليه اتباع التعليمات التي وصلته من المفوض السامي الفرنسي (غورو)، ولم أتردد في القول لهما إن: «على الأمير فيصل السير على الصراط المستقيم الآن، وأننا لن نتحمل مزيداً من المكائد أو سوء التصرّف من قبله بعد اليوم». تركتْ لغتي انطباعاً قوياً لدى محاورَي اللّذَين قالا إنهما سيخبران الأمير فيصل على الفور. كما طلبا مني أن يختما برقيتهما للأمير بالإعلان التالي: «إنّ الحكومة الفرنسية فوّضت الجنرال غورو أن ينفتح على الأمير فيصل بكلّ ثقة من أجل إنجاز العمل». أجبتهما: «يتوقف الأمر على الأمير فيصل بأن يعدَ الجنرال غورو بتقديم المساعدة وأن يطلب منه أن يثق به في سبيل إنجاز العمل المشترك».

أخيراً، رفضتُ الاستماع إلى المطالب والمظالم التي لم يفوّض الأمير السيدين حيدر وشُكر إيصالها.

ميلران

من رئيس الوزراء، وزير الخارجية ألكسندر ميلران إلى المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في سورية ولبنان وكيليكيا الجنرال هنري غورو، 18 تموز 1920، رقم 723 إلى 724:

إن أردتَ مواكبة تحركاتك العسكرية ببيان يهدف إلى تطمين سكان سورية ومنع الدعاية الشريفية من تشويه عملنا، أرجو أن تخبرني بشكل مسبق لأنّ ذلك قد يؤثر على كلّ سياساتنا في سورية. وألفتُ انتباهك إلى عدم فائدة التعامل مع فيصل على أساس قوة لقوة (أي دولة لدولة). لقد أشرتُ إلى اللورد كرزون بكلّ وضوح أنني أعتبر الأمير فيصل مجرد قائد للجنود العرب الذين حلوا محلّ الجنود الإنكليز في المنطقة الشرقية بالتوازي مع احتلالنا للمنطقة الغربية. وبما أنّ المؤتمر (مؤتمر سان ريمو) أعطى لفرنسا الانتداب على سورية، فإنه منوط بنا أن ننظم الانتداب مع السلطات المحلية التي نراها كفؤة والتي لا يمكنها أن تأخذ هذه المهمة إلا من فرنسا، مع الإبقاء على الاستقلال الموعود للشعوب.

ميلران

من المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في سورية ولبنان وكيليكيا الجنرال هنري غورو إلى رئيس الوزراء، وزير الخارجية ألكسندر ميلران، 22 تموز 1920 (الواحدة صباحاً بتوقيت باريس، أي الرابعة صباحاً بتوقيت سورية)، رقم 1429 إلى 1431:

أشيرُ إلى برقيتي رقم 1416 المرسلة لحضرتكم في الرابع عشر من تموز والتي ضمّنتها شروط الإنذار. في يوم التاسع عشر من تموز أحضر لي الكولونيل طلعت وأحد ضباط الأمير موافقته هو و[كلمة مفقودة mot passé] الأساسيين، عقب رسالة وردتني مساء ذلك اليوم من الكولونيل كوس (ضابط الارتباط الفرنسي في دمشق) تتضمّن الموافقة الرسميّة للأمير (على شروط الإنذار).

إلا أنّ إنذار الرابع عشر من تموز أكّد أنّ مجموعة من القرارات الرسمية التي تؤكد تنفيذ نقاط الإنذار يجب أن تظهر قبل انتهاء المهلة المحددة. ذكّرتُ الأمير بأنه في حال لم يتمّ إعلامي بتنفيذ هذا البند المهمّ بحلول العشرين من تموز فسوف يبدأ الجنود تحرّكهم في صباح الحادي والعشرين.

في نفس الوقت، يومي التاسع عشر والعشرين، قامت طائراتنا بإلقاء بلاغ مستوحى من التعليمات التي أرسلتموها حضرتكم في برقيتكم رقم 497 يوم السادس والعشرين من حزيران فوق دمشق وحمص وحماه وحلب. وتمّ جمع البلاغ بحماسة.

وفي صباح اليوم، الحادي والعشرين من تموز، عند الساعة 0، ولعدم تلقّي أيّ جديد من الأمير، تحرّك الرتل المتمركز في منطقة زحلة بقيادة الجنرال غوابيه عبر البقاع واعتلى سفوح سلسلة جبال لبنان الشرقية. وانسحبت المخافر الشريفية على نهر الليطاني والسفوح المتقدّمة لمجدل عنجر مع اقتراب رتلنا الذي حقّق مهام اليوم الأول.

وصلتني في ساعات الصباح برقية من دمشق تعلن أنّ الأمير قد أعطى الأوامر الضرورية لتنفيذ شروط الإنذار. لم تصل هذه البرقية في الوقت المناسب، وقد

غادرت دمشق يوم العشرين من تموز، وذلك نتيجة لانقطاع خطّ التواصل في منطقة جبال لبنان الشرقية بسبب وجود قطّاع الطرق. أجبتُ الأمير أن موافقته الكاملة وصلت متأخرة جداً وأنه لا يمكن إيقاف مسير القوات التي في الطريق إلى دمشق، لكنّها لن تدخل المدينة إن لم تتطلب الظروف العسكرية ذلك.

إنه لمن دواعي الفضول أن تقع دمشق – في هذا الظرف الخطير- ضحية إحدى عصابات النهب التي دعمتها . بحسب معلومات وصلتنا من دمشق، قام الأمير بحلّ المؤتمر السوري يوم العشرين (...).

غورو

من المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في سورية ولبنان وكيليكيا الجنرال هنري غورو إلى رئيس الوزراء، وزير الخارجية ألكسندر ميلران، 22 تموز 1920 (الثامنة صباحاً وخمسون دقيقة بتوقيت باريس، أي الحادية عشر صباحاً وخمسون دقيقة بتوقيت سورية)، رقم 1432 إلى 1433:

في برقيتكم رقم 723 يوم الثامن عشر من تموز تلطّفتم بالطلب مني أن أعلم معاليكم بالبيان الذي سيواكب تحرّك الجنود قبل إصداره. لم أتمكّن من تنفيذ رغبتكم لأنّ الطائرات قامت بإلقاء البيان في اليوم الذي تلى وصول برقية معاليكم. إنّ نصّ البيان، الذي سأرسله لكم مع مجموعة البريد القادمة، يتماشى مع التعليمات الواردة في برقيتكم رقم 497 بتاريخ السادس والعشرين من حزيران، ولا يُلزم سياستنا في سورية بشيء.

غورو

من المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في سورية ولبنان وكيليكيا الجنرال هنري غورو إلى وزارة الحرب الفرنسية (تمّ إرسال نسخة منها إلى رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والماريشال فوش وغيرهم من القيادة الفرنسية)، 23 تموز 1920، رقم 1477 إلى 1480:

لقد أثار خبر زحف قواتنا على دمشق، بالرغم من قبول الحكومة الشريفية الكامل بشروطنا، المشاعر في المدينة، الأمر الذي دفع الكولونيل طلعت للإعراب للقناصل الأجانب عن مخاوفه من حصول مجزرة بحقّ المسيحيين، حيث أتى إليّ يوم أمس يحمل طلباً أخيراً لإيقاف مسير الرتل مشدّداً على الأثر السيء الذي تولّد في العديد من الأوساط نتيجة ما اعتبروه فعل خيانة (من قبل فرنسا). رافق طلعت الوزير الشريفي المفوض بالتعاطي معنا من قبل فيصل.

نظراً إلى أنه من غير المفيد لنا أن نترك انطباعاً أننا قمنا بعمل خيانة ينتشر في البلاد، إذ لم تكن هذه نيتنا الأساسية، ونظراً لوجود خطر مواجهتنا لانتفاضة شعبية قد يستغلها المتطرفون، مما قد يفاقم الوضع في كيليكيا أيضاً في أيّة لحظة، فقد فكّرت فيما يمكن عمله في أقرب وقت، ووافقتُ على وقف الزحف على دمشق في حال قبول الشروط التالية قبل الساعة 24 من يوم الثالث والعشرين من تموز:

1) نشر الحكومة في دمشق مذكرة تعلن بها ولاءها لنا.
2) الإبقاء على الرتل في مكانه حتى تنفيذ الترتيبات التي نصّ عليها الإنذار بخصوص خطّ رياق – حلب الحديدي.
3) انسحاب كافة الوحدات الشريفية التي لا تزال في البقاع وغرب [كلمات غير واضحة].
4) نزع سلاح الجيش بشكل فوري ونزع السلاح من السكان بشكل تدريجي.
5) أخيراً، تشكيل بعثة مقرها دمشق تكون مسؤولة عن الإشراف على تنفيذ شروط الإنذار ودراسة تطبيق الانتداب الفرنسي في المنطقة الشرقية.

غورو

أرفق غورو النصّ الكامل لمذكرة 22 تموز في البرقية التي تحمل رقم 306 التي أرسلها إلى رئيس الوزراء، وزير الخارجية ميلران في 28 تموز 1920، أي بعد ثلاثة أيام من دخول القوات الفرنسية إلى دمشق. فيما يلي نصّ هذه الوثيقة المعنونة «مذكرة 22 تموز إلى الأمير فيصل»:

رغم أنّ الشروط لم تنفّذ في الوقت المحدد، لكن وبما أن الأمير اتخذ اجراءات لتنفيذها، فقد وافق الجنرال على تعليق مسير الرتل في حال الالتزام بالشروط التالية:

1) أن تنشر حكومة دمشق هذه المذكرة وتوضح أنّ المسير باتجاه دمشق كان قد بدأ وتبيِّن سبب توقّفه.
2) سوف يبقى الرتل في المنطقة التي وصل إليها حتى قبول الأمير بالشروط وتنفيذها، وحدود المنطقة هي الضفة الشرقية للنهر (أي نهر بردى) في التكية (قرية على مجرى نهر بردى). وسوف ينسحب تدريجياً مع البدء بتنفيذ الشروط.
3) في هذه الفترة، ستبقى القوات في مواقعها على الطريق الواصل بين رياق والتكية.
4) الوحدات الشريفية التي تحتلّ المنطقة الواقعة غرب وشمال ضفة النهر، بما فيها المتواجدة في البقاع، سوف تنسحب إلى دمشق. من أجل ضمان أمن القوات، سوف تُوضع قوات الجندرما (الشرطة) المنتشرة في المنطقة تحت سلطة الاحتلال العسكري الفرنسي.
5) الإيقاف الفوري للدعم التي تقدمه حكومة دمشق للعصابات في المنطقة الغربية وخاصة تلك التابعة للشيخ صالح (العلي).
6) إنّ الاضطرابات التي تثيرها العصابات هي التي سبّبت الوضع الحالي - أي أحداث الحادي والعشرين من تموز (هجوم تل كلخ المزعوم) - وأظهرت

الخطر الناجم عن تسليح السكان. وعليه، يتوجّب على الجنود المسرّحين وضع أسلحتهم في المستودع كما ينبغي سحب السلاح من غالبية السكان.

7) إرسال بعثة فرنسية إلى دمشق لديها الصلاحيات التالية فوق الحكومة (العربية):

أ- مؤقتة: العمل كلجنة لمراقبة تنفيذ الشروط التي قبلتها الحكومة.

ب- دائمة: دراسة تطبيق الانتداب الفرنسي في المنطقة الشرقية؛ أي التعاون (مع السلطات المحلية) لتنظيم عمل الإدارات الوزارية والخدمات العامة. سوف تكون هذه البعثة بإدارة الكولونيل كوس وتتضمن مبدئيا :

- قسم عسكري.
- قسم مالي (الضرائب، المحاسبة، أملاك الدولة، المصالح العقارية، البريد).
- قسم إداري (الإغاثة، النظافة العامة).
- قسم اقتصادي (الزراعة، المناجم، الأشغال العامة).
- قسم عدالة - شرطة.
- قسم تعليم عام.

8) في حال عدم تنفيذ هذه البنود أو ارتكاب أعمال عدائية ضدّ الجنود الفرنسيين في أيّ لحظة سوف يعاود الرتل عمله بحرية كاملة.

من رئيس الوزراء، وزير الخارجية ألكسندر ميلران إلى المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في سورية ولبنان وكيليكيا الجنرال هنري غورو، 23 تموز 1920، رقم 741 إلى 744:

قرأتُ بكامل الرضا برقياتك من رقم 1429 وتباعاً، وأحثك على متابعة التوفيق بين أعمالك وروح التعليمات التي أرسلتها لك في البرقيات المرقمة من 719 إلى 723، بعدم التعاطي مع فيصل كقوة لقوة (أي دولة لدولة). نصّت القوانين على إعطاء الانتداب على سورية لفرنسا وحدها، هذا ما قلته في مجلس النواب (الفرنسي)، وهذا ما أقرّت به الحكومة البريطانية أمام مجلس العموم في التاسع عشر من تموز، مما يمنحنا كل الحرية لتنظيم انتدابنا في سورية كما تقوم هي (أي بريطانيا) في بلاد ما بين النهرين (العراق). لا وجود قانوني لحكومة دمشق أو السلطة الملكية التي اجترحها الأمير، وعليه لا يوجد حوار معها حول اتفاق السادس من كانون الثاني المؤقت والذي انتهى مفعوله بسبب سياسة الشريف (فيصل) العدوانية ضدّنا.

إنّ نجاح عملك يجب ألّا يشتت انتباهنا عن حقيقة أنك تملك حالياً أكبر الإمكانات الممكنة التي لا يمكن خفضها، وبالتالي فإنّه من الضروري ألا تنجرّ خلف لعبة الشريفيين لشراء الوقت، وأن تتخذ كلّ الاجراءات الضرورية لفرض الأمن وضمان إقامة الانتداب وتنظيمه وفق الوقائع المحلية وعدم العودة إلى الوضع السابق.

ليس لديّ أيّ شك أنك تنفذ شروط الإنذار على أساس هذه المبادئ. إنّ احتلال الخطّ الحديدي ومدينة حلب يجب أن يكون فعالاً ويجب إنهاء سيطرة الأمير على الخطّ وضمان حراسة المحطات وحماية أنصارنا في المدن، وترك الحرية للسكان في التعبير عن رغبتهم بالحكم الذاتي دون تدخل السلطات الشريفية، وخاصة في البلاد الواقعة غرب سلسلة جبال لبنان الشرقية والحرمون، الأمر الضروري لوجود لبنان.

إنّ إلغاء التجنيد الإجباري، الأمر المرغوب في دمشق – كما فهمت منك – يجب أن يكون فورياً ومُتحكَّماً به بشكل صارم تحت إشرافك المباشر. بالفعل، إنّ وجود الجيش الشريفي لا يتلاءم مع روحية الانتداب التي لا تعترف إلا بميليشيات مسلحة محلية.

أخيراً، إنّ الشروط التي حدّدتها والمتعلقة بالأمور المالية توحي بالدفع الفوري لصكوك الدين العثماني (غالباً لفرنسا) وإلغاء القروض القسرية الذي تمّ فرضها بهدف محاربتنا (يبدو أنّ حكومة دمشق فرضت على جهات معينة إقراضها المال في سبيل دعم المجهود الحربي ضدّ الفرنسيين).

أنا سعيد أنك، من خلال عمل دقيق ومعتدل وحازم، قد قمت بتصويب وضع محفوف بالمخاطر، مع الأخذ بعين الاعتبار بأنّ الظروف الدولية تسمح لنا بتسويةً الوضع في المنطقة الشرقية بالتوافق مع مبادئ انتداب فرنسا على سورية.

ميلران

من المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في سورية ولبنان وكيليكيا الجنرال هنري غورو إلى رئيس الوزراء، وزير الخارجية ألكسندر ميلران، 24 تموز 1920 (السادسة مساءً بتوقيت فرنسا، التاسعة مساءً بتوقيت سورية)، رقم 1445 إلى 1446:

عاجل جداً

1) لم يقبل الأمير – الذي أكد رفضه للحرب – المذكرة التي أرسلتها له في الثاني والعشرين من تموز.

2) قامت قوة من أربعمائة خيال ومدفعي ميدان ومدافع رشاشة بعد ظهر الثاني والعشرين بمهاجمة مخافرنا شرقي تل كلخ. وانسحبت مخافرنا إلى موقع تجمّع قواتنا الأساسي، حيث توجد لدينا كتيبتان في منطقة فتحة حمص – طرابلس. قامت قواتنا بهجوم معاكس صباح أمس، الثالث والعشرين، ودحرت العدو وأسرتْ خمسين مقاتلاً، منهم ضابطين، وصادرت مدفع ميدان وستة مدافع رشاشة.

3) بمواجهة هذا الخرق الفاضح للالتزامات السابقة، عاود الرتل تقدّمه صباح اليوم – كما كنت حذّرت الأمير – باتجاه الموقع الذي تموضعتْ فيه القوات الشريفية بهدف اعتراض طريقنا إلى دمشق في منطقة خان ميسلون.

أكون شاكراً لو أرسلت حضرتك هذه البرقية إلى وزارة الحرب.

غورو

من المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في سورية ولبنان وكيليكيا الجنرال هنري غورو إلى رئيس الوزراء، وزير الخارجية ألكسندر ميلران، 24 تموز 1920 (العاشرة مساءً وخمسون دقيقة بتوقيت فرنسا، الواحدة صباحاً وخمسون دقيقة من يوم 25 تموز بتوقيت سورية)، رقم 1445 إلى 1446:

عاجل جداً

إنّ الرتل بقيادة الجنرال غوابيه، والذي أوفدتُ معه لغرض هذه العملية رئيس أركاني الكولونيل بيتيلات، خاض اليوم معركة قاسية على طول الثمانية كيلومترات التي فصلته عن خان ميسلون، المقرّ الأساسي للقوات الشريفية. قاومت القوات الشريفية بشكل كبير بمؤازرة من عصابات بدوية وبمساندة المدافع الرشاشة ومدافع الميدان. إنّ حماسة قواتنا من الفوج 415 وفوج المشاة الجزائرية الثاني وفوجي المشاة السنغالية العاشر والحادي عشر وفوج الخيالة من جيش أفريقيا وكتيبة الصباحيين (الخيالة) المغاربية وبطاريات المدفعية لجيش أفريقيا وبطارية المدفعية 155 انتصرت عقب معركة ضارية استمرت ثماني ساعات في أرض وعرة كان نشر المدفعية فيها أمراً شبه مستحيل. شاركت الدبابات والطائرات في هذه المعركة باستخدام القنابل والمدافع الرشاشة كما فعلت خلال الحرب الكبرى (أي الحرب العالمية الأولى) وكان لها دور كبير في تحقيق النجاح. انتهت المعركة بحدود الواحدة والنصف من بعد الظهر بدحر العدوّ بشكل كامل، حيث عانى من خسائر كبيرة وترك في أرض المعركة خمسة وعشرين مدفعاً رشاشاً وتسعة مدافع ميدان والكثير من الذخيرة وعدداً من العربات وكثيراً من المؤن. لقيَ وزير الدفاع الشريفي يوسف بيك العظمة حتفه في المعركة. إنّ خسائرنا، التي لم تحدد بشكل كامل بعد، بلغت حوالي مائة وخمسين رجلاً. يبدو أنّ هذا اليوم أسقط القوة الشريفية. وصل بعد الظهر الكولونيل كوس، ضابط ارتباطنا، إلى معسكر قواتنا برفقة ضابط شريفي، والذي أعلن نيابة عن الحكومة الشريفية أنه لن تكون هنالك أيّة مقاومة وصولاً إلى دمشق، وأنّ مدينة دمشق ستوفر مؤونة الرتل حتى عودة عمل الخطّ الحديدي. سوف يدخل الرتل إلى الحيّ الأوروبي في دمشق صباح الغد، الخامس والعشرين من تموز.

غورو

من رئيس الوزراء، وزير الخارجية ألكسندر ميلران إلى المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في سورية ولبنان وكيليكيا الجنرال هنري غورو، 25 تموز 1920، رقم 753 إلى 756:

جواباً على برقيتك المرقمة من 1435 إلى 1438.

إنّ فهمتك بشكل صحيح، يبدو أنك أوقفت عملك قبل الوصول إلى دمشق بشكل يعترف بوجود حكومة فيصل من خلال فرض الشروط عليها مجدداً. إنك تخاطر بجعل هذا أمراً واقعاً سيعود بنا إلى المشاكل السابقة، عوضاً عن اغتنام فرصة النجاح الكامل لتحرّكك (العسكري) من أجل تسوية القضية السورية بشكل واضح، وتنصيب سلطات وبلديات في المدن والمناطق المختلفة تدين بسلطتها ومصالحها للنظام الذي سنقيمه. إنّ الوضع في كيليكيا هو سبب إضافي لتعزيز موقعنا في سورية. لقد تركتْ لنا الحكومة الإنكليزية حرية التحرك والرأي العام الفرنسي يوافق على عملنا الذي تبرّره العدوانية الشريفية وتدعمه النصوص القانونية التي منحت الانتداب لفرنسا. عبّر يوم أمس، في مجلس الشيوخ (الفرنسي)، السيد ريبو عن تهانيه لدخولنا إلى حلب ودمشق وأعلن أنه لا يمكننا بعد الآن التخلي عن كوننا أسياداً.

يجب ألا تتأثر سياستك برأي القناصل الأجانب في دمشق ولا بإحساس الشكّ الناتج عن تحدّي فيصل لسلطتنا ولا بالشارع في دمشق الذي يثيره المخبرون الشريفيون. إنّ موقفاً نشطاً هو بلا شكّ الطريقة الأفضل، لا بل الوحيدة، للحفاظ على الهدوء هناك وضمان سلامة الأجانب والمسيحيين.

إنّ أيّ مظهر من مظاهر الانسحاب لرتلنا قد يحرّض على المقاومة والعصيان، ولو قمت بإيقافه فلا يجب، بأي حال من الأحوال، أن ترجعه إلى الوراء. إنّ إخلاءً جديداً لسهل البقاع باتجاه لبنان سيكون له عواقب كارثية على المسيحيين واللبنانيين. لا يمكن تسريح الجيش الشريفي ونزع السلاح وتنفيذ شروط الإنذار

دون تواجد قواتنا. يجب ألا تتحمل أيّ تأخير أو غموض في دمشق أو في تسليم الخطّ الحديدي. يجب أن تدرس لجنة الإدارة التي ستشكلها في دمشق تطبيق الانتداب في المنطقة الشرقية دون أيّ تفاوض. أتطلّع إلى تلقّي مقترحاتك حول تنظيم الانتداب مع المعلومات التي طلبتها حول الهيئات التي سيتم الاستفادة منها أو إنشاؤها. سأرسل لك تعليماتي بالإضافة لخطّة شاملة لتطبيق انتدابنا على سورية. ألفتُ انتباهك إلى برقياتي الأخيرة، خاصة تلك المرقمة 741 إلى 744.

ميلران

من المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في سورية ولبنان وكيليكيا الجنرال هنري غورو إلى رئيس الوزراء، وزير الخارجية ألكسندر ميلران، 30 تموز 1920، رقم 1490:

تلبية لدعوتي، قام الأمير فيصل بمغادرة دمشق مساء الثامن والعشرين عن طريق [كلمة مفقودة mot passé] مع أقاربه وسط حالة لامبالاة عامة. لم يرافقه أحد إلى المحطة، ولم تحصل أية حادثة. سيسافر الأمير فيصل إلى الحجاز عبر القاهرة. نبهت السيد غايلار والمارشال ألنبي إلى أنّ الشروط التي ترك بموجبها الأمير الحكومة (أي حكم سورية) لا تتيح له إمكانية العودة إليها.

غورو